الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 111 - April 2008

مجلة شهرية . العدد المائة وأحد عشر . السنة العاشرة . أبريل ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

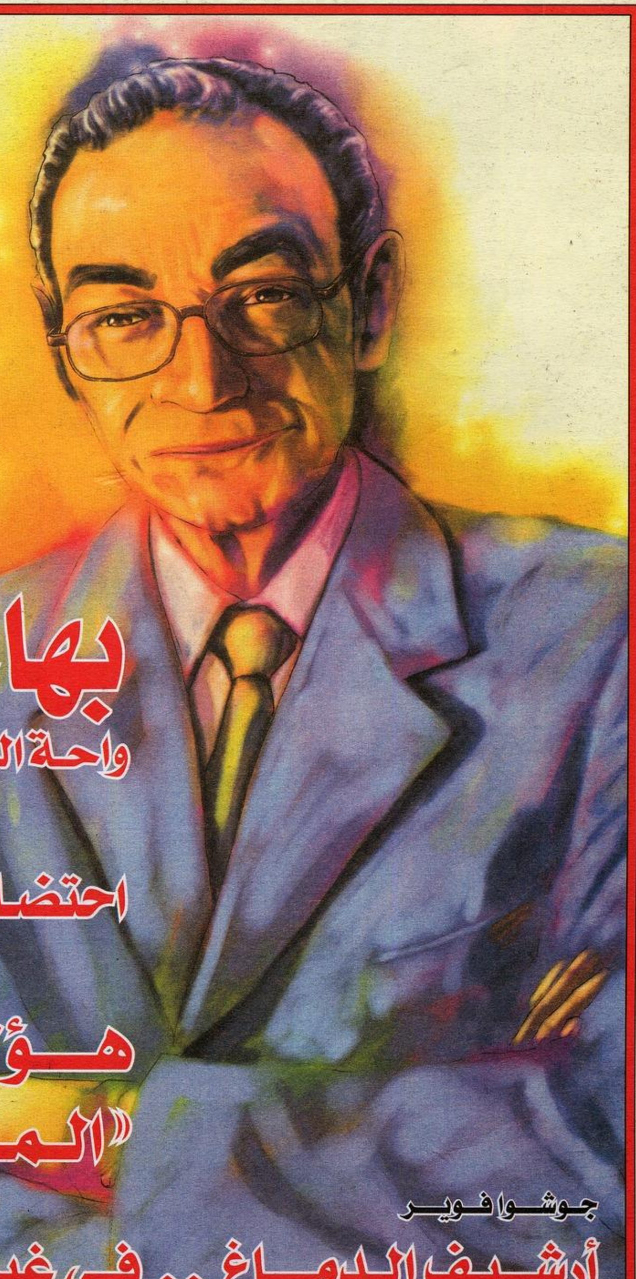




رجاء وأودنيس

جدل العروبة والشعوبية !

حلمى القاعود



بهاء طاهر

واحة الغروب ووطأة التاريخ

منى أنيس

احتضار الفكر العربى !

جهاد فاضل

هؤلاء الأقباط "المصريون"

س. هـ. ليدر

جوشوا فوير

أرشيف الدماغ .. فى غياهب الذاكرة !

السـنة العاشـرة

العـدد المائة وأحـد عشـر

أبـريـل ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج

أحـمـد الزيـادى

الكـتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشـركة المصـرية
للنشـر
العـربى والـدولى

رئيس مجلس الإدارة

إبـراهيـم المعـلـم

رئيس مجلس التحرير

سـلامـة أحـمـد سـلامـة

رئيس التحرير

أيـمـن الصـيـاد

رئيس التحرير الفنى

حـلمى التـونى

محتـويات العـدد:

كتـاب العـدد:

- أبو زيد راجح.. رئيس الهيئة العامة لبحوث الإسكان والبناء والتخطيط العمراني سابقًا.
- أبو يعرب المرزوقي.. كلية العلوم الإنسانية جامعة تونس الأولى.
- ثروت عكاشة.. وزير الثقافة الأسبق.
- جهاد فاضل.. كاتب وناقد لبناني.
- جوشوا فوير.. صحفى متخصص فى المجالات العلمية
- حسين عبد الله.. خبير اقتصاديات البترول والطاقة.
- حلمي محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- السيد أمين شلبي.. سفير مصري سابق - الرئيس التنفيذي للمجلس المصري للشئون الخارجية.
- س. هـ. ليدر.. كاتب بريطاني عاش في مصر بداية القرن العشرين.
- فكري أندراوس.. كاتب مصري مقيم بالولايات المتحدة.
- محمد يوسف عدس.. باحث في التاريخ والشئون السياسية مقيم في إنجلترا.
- منى أنيس.. صحفية مصرية.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب مصري.

رسوم العدد للفنانين

محمـد حجـى - محمود عبده

Alen Lauzan Falcon - Angel Boligan

المراسـلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠١/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشـتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



الإسلام.. «اليابانى»!!

وليــــد محمـود عبد الناصـر

«جمعية مسلمى اليابان» تقول إن هناك مائة ألف مسلم فى اليابان، عشرة آلاف منهم من المسلمين اليابانيين والتسعون ألفا الآخرين من الأجانب الوافدين إلى اليابان من دول إسلامية مثل باكستان واندونيسيا وغيرهما

■ تأتى أهمية أى كتاب عادة إما من موضوعه أو من مؤلفه. والكتاب الذى نعرض له اليوم يجمع الدلالتين معاً. ولكننا سنبدأ هنا بتناول أهمية الموضوع. فللإسلام فى اليابان قصص عديدة، بعضها يتصل بالمقيمين المسلمين فى اليابان من غير اليابانيين ودخول الإسلام على أيديهم، وبعضها الآخر يرتبط بتحول بعض اليابانيين إلى اعتناق الإسلام، سواء تم ذلك خلال وجودهم فى بلادهم أو عبر سفرهم إلى بلدان إسلامية واعتناقهم الإسلام بها. وقد بدأ البناء فى مسجد بمدينة «كوبى» فى عام ١٩٢٨ من تبرعات المسلمين، وشارك فى دفع التبرعات قنصل مصر فى «كوبى» فى ذلك الوقت المغفور له الدكتور محمود فوزى والذى شغل بعد ذلك عدداً من المناصب البارزة كان آخرها منصب نائب رئيس الجمهورية مرورا بمنصبى وزير الخارجية ثم رئيس مجلس الوزراء، وقد انتهى بناء المسجد عام ١٩٣٥ . ثم تأسست جمعية مسلمى اليابان، أحد أكبر التنظيمات الممثلة لليابانيين المسلمين، على يد الرعيل الأول من المسلمين اليابانيين وتولى رئاستها مؤسسها صادق إيمايزومى فى الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٦٠ ثم تولى رئاستها عمر ميتا (مترجم معانى القرآن الكريم إلى اليابانية) من ١٩٦٠-١٩٦٢، ومن ثم تعاقب على رئاستها ثمانية من اليابانيين المسلمين حتى مطلع عام ٢٠٠٨. وقد شهدت المرحلة التكوينية فى العقد الأول التركيز على بناء الإطار المؤسسى للجمعية وإطار الدعوة إلى الدين الإسلامى وجذب أعداد متزايدة من اليابانيين لاعتناق الإسلام، خاصة عبر توسيع الدعوة لتشمل مختلف المحافظات اليابانية، حيث تم لاحقاً على سبيل المثال إقامة جمعية مماثلة فى مدينة «كيوتو» عام ١٩٥٤ . وفى فترة تالية لعبت جماعة التبليغ والدعوة الباكستانية دوراً فى نشر الإسلام فى اليابان عبر إرسال وفود سنوية دعوية لليابان لمدة أربع سنوات متتالية، ومن ثم سافر عشرة مسلمين يابانيين للدراسة فى باكستان. بالمقابل، بدأ توجه اليابانيين المسلمين للدراسة بالأزهر الشريف بدءاً من عام ١٩٥٧، ونشرت ترجمة القرآن باللغة اليابانية لأول مرة فى العام نفسه. وبدأ مسلمو اليابان فى تقديم الإسلام بدورهم إلى مواطنيهم من خلال عدد من المحاضرات وإمامة الصلاة فى عدد من المحافظات، وكذلك عبر الصحف حيث أصدروا عام ١٩٥٩ جريدة «الإسلام». وفى ذات العام افتتحت جامعة «تاكشوكو» اليابانية قسماً للغة العربية ودراسات الشرق الأوسط. وفى عام ١٩٦٠ بلغ عدد المنتمين لجمعية مسلمى اليابان ١١٢ فرداً، وفى العام ذاته بدأ نشاط المسلمات اليابانيات من خلال تنظيم محاضرات مقصورة عليهن، وتزامن ذلك مع بدء نشاط جمعية مسلمى اليابان بهدف توفير مقبرة إسلامية يدفن فيها المسلمون بدلاً من حرق الجثامين كما هو معمول به فى اليابان بشكل عام.

وتم خلال الفترة ما بين عامى ١٩٦٠ و١٩٦٢ العمل على ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة اليابانية للعمل على نشر الإسلام، بالإضافة إلى سعى جمعية مسلمى اليابان إلى توثيق الصلات مع جماعة التبليغ والدعوة فى باكستان، وإيجاد رابطة للطلبة المسلمين فى اليابان. كما بدأت المباحثات مع رابطة العالم الإسلامى بمكة حول إقامة مقبرة إسلامية فى اليابان، وفى عام ١٩٦٢ تمت أول حالة دفن إسلامية لمسلمة يابانية (أمينة سايتو) فى مدينة شيوياما بعد محادثات للجمعية مع الطائفة البوذية المسئولة عن المقبرة فى تلك المدينة وتفهم هذه الطائفة لمقتضيات الدفن لدى المسلمين، وذهب دارس يابانى للدراسة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وخلال زيارة رئيس وزراء ماليزيا إلى اليابان عام ١٩٦٤ أعلن عن قيامه بدعوة سبعة طلاب مسلمين يابانيين للدراسة فى ماليزيا. وشهدت المرحلة ذاتها إرسال ثمانية يابانيين دفعة واحدة للدراسة بالأزهر الشريف وهو الأمر الذى كرس إيجاد جيل من مسلمى اليابان المرتبطين بمصر دينيا وثقافيا، وأعقب ذلك لاحقاً سفر ستة طلاب يابانيين للأزهر الشريف عام ١٩٦٥. كما شارك مصريون فى ندوات نظمتها جمعية مسلمى اليابان، كما ساعدت مصر مسلمى اليابان فى جهودهم لشراء قطعة أرض لبناء مقبرة إسلامية فى مدينة «إنزان» التى تقع على بعد مائة كيلومتر من طوكيو. كذلك أشرف المصرى/ حسن السمنى على مسجد طوكيو لمدة ستة عشر عاماً متواصلة وحتى عودته إلى مصر عام ١٩٧٨ . وقد نظمت جمعية مسلمى اليابان حفل تأبين لشيخ الأزهر الراحل محمود شلتوت لدى وفاة فضيلته. وفى عام ١٩٦٧ مولت المملكة العربية السعودية لجنة لترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة اليابانية. وفى عام ١٩٦٨ تم تجديد مسجد طوكيو بمساعدة من الحكومة الكويتية. وفى العام نفسه اعترفت السلطات المسئولة بالحكومة اليابانية عن الشئون الدينية وتسجيل الجماعات والطوائف الدينية باليابان لأول مرة بجمعية مسلمى اليابان وبالإسلام كأحد الأديان المتواجدة فى اليابان. وفى عام ١٩٦٩ أنهى السيد/ عمر ميتا ترجمته لمعانى القرآن الكريم باللغة اليابانية وبدأ فى تدريس اللغة العربية فى الجمعية بغرض إعداد كوادر لترجمة الكتب الشرعية. ثم توجه عدد من أعضاء الجمعية لدراسة الإسلام فى جامعات المدينة المنورة بالمملكة السعودية والأزهر الشريف بمصر ولاهور بباكستان وبرلين بألمانيا. وسافر عمر ميتا إلى مكة فى عام ١٩٧٠ للحصول على إذن رابطة العالم الإسلامى لطبع ترجمة معانى القرآن الكريم باللغة اليابانية، وشارك أحد أعضاء الجمعية فى مؤتمر الدعوة الإسلامية بليبيا فى العام نفسه.

وفى عام ١٩٧٢ تم نشر ٥٠٠٠ نسخة من ترجمة عمر ميتا لمعانى القرآن الكريم، إلا أنه بعد ذلك بسنة واحدة ارتأت رابطة العالم الإسلامى جمع نسخ تلك الترجمة لتصحيح بعض أخطاء الترجمة وتمت إعادة الطبع فى نفس العام وتم إيفاد بعثة إلى السعودية لهذا الغرض. وفى عام ١٩٧٤ وجهت الجمعية دعوة إلى عدد من الشركات اليابانية لتشارك فى عضويتها كمؤسسات تقدم الدعم المادى للجمعية، فاستجابت أربع شركات عاملة فى مجال التنقيب عن البترول بالشرق الأوسط. استمرت جمعية مسلمى اليابان بعد ذلك فى مراجعة وتصحيح ترجمة معانى القرآن الكريم معتمدة على ترجمة الأزهر الشريف، إضافة إلى تقوية العلاقات بينها وبين رابطة العالم الإسلامى بالسعودية، خاصة بعد أن ضعف تمثيلها للإسلام فى اليابان بعد إنشاء المركز الإسلامى عام ١٩٦٦ وضم العديد من المسلمين المقيمين من غير اليابانيين. كما أنشأ فى عام ١٩٧٤ أحد المسلمين اليابانيين وهو السيد شوقى نيكى «مجموعة الإسلام اليابانية» وأرسل أربعة مسلمين يابانيين للدراسة فى ليبيا، وانضمت جمعية مسلمى اليابان رسميا إلى رابطة العالم الإسلامى عام ١٩٧٥ وقامت بإيفاد عدد من الدارسين إلى جامعتى أم القرى والأزهر الشريف فى نفس العام، وأنشأت عام ١٩٧٦ - بالتعاون مع المركز الإسلامى - تجمعاً للجمعيات الإسلامية فى اليابان للتنسيق فيما بينها.

وخلال الفترة ما بين عام ١٩٧٧ و٢٠٠٣ قامت جمعية مسلمى اليابان بمواصلة إدارة شئون المقبرة الإسلامية وتوسيعها، كما بدأت وتوسعت فى علاقات مع العراق. كذلك زار رئيس ومسئولو رابطة العالم الإسلامى اليابان، وكذلك زارها فى تلك الفترة الدكتور يوسف القرضاوى عميد كلية الشريعة بجامعة قطر وقدم ثلاث منح لطلاب يابانيين للدراسة بالجامعة. وفى عام ١٩٨٢ أقيم مؤتمر للحوار بين المسلمين والطوائف المسيحية اليابانية (كاثوليك وبروتستانت) بحضور ٧٨ مسيحياً و٢٩ مسلماً كلهم من اليابانيين. كذلك تم إنشاء مصلى داخل المقر الجديد لجمعية مسلمى اليابان بطوكيو. وتمت طباعة وتوزيع ٥٠٠ مصحف مترجم إلى اللغة اليابانية. وشهد عام ١٩٨٣ وفاة السيد/ عمر ميتا من جهة وإنشاء المعهد العربى الإسلامى التابع لجامعة محمد بن سعود السعودية فى طوكيو من جهة أخرى. كما أقيمت أول صلاة موسعة للعيد فى قاعة أحد الفنادق بطوكيو بحضور ٥٠٠ فرد عام ١٩٨٥، ونشر فى العام ذاته كتاب السيد/ أبو بكر موريموتو بعنوان «مدخل إلى الإسلام». وسافر السيد/ حسن ناكاتا (أحد أنشط المسلمين اليابانيين فى مجال التعريف بالإسلام) عام ١٩٨٦ إلى مصر للدراسة وارتفع عدد المشاركين فى صلاة عيد الفطر عام ١٩٨٧ إلى ثلاثة آلاف فرد. وتمت مراجعة إقامة جنازات المسلمين اليابانيين لتتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية فى هذا الشأن عام ١٩٨٨. وفى عام ١٩٩٠ توجه ممثلان عن مسلمى اليابان هما عبد الكريم سايتو والزبير سوزوكى لمقابلة الرئيس التركى حينذاك تورجوت أوزال بهدف تجديد بناء مسجد طوكيو، بالإضافة إلى إعادة طبع مجلة «الإسلام» وتنشيط حوار الأديان.

بدأت جمعية مسلمى

الأديان فى اليابان بين الماضى والمستقبل
أمين ماكوتو ميزوتانى
دار الكتب العلمية فى بيروت، ٢٠٠٧م.
عدد الصفحات ٢٠٨ صفحات مع ٢٠ صورة تقدم الطقوس اليابانية

اليابان مرحلة جديدة عام ٢٠٠٣ عبر تولى السيد أمين توكوماسو لرئاسة الجمعية، وهو أحد اليابانيين الذين درسوا بالأزهر الشريف ويركز خلال هذه المرحلة على تقوية علاقات الجمعية مع سفارات الدول الإسلامية فى طوكيو، وبناء مسجد ومركز إسلامى.

ونستطيع القول بقدر من الثقة أن جمعية مسلمى اليابان ركزت دائماً على إبراز الحاجة إلى كوادر مسلمة يابانية للتصدى لقيادة الجهد الدعوى الإسلامى فى اليابان بشكل أفضل من المسلمين من غير اليابانيين، واستشهدت الجمعية فى ذلك بالآية الكريمة: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم». إلا أن هذا المسعى يواجه عوائق فى اليابان.



وننتقل الآن إلى المؤلف، فالأستاذ أمين ميزوتانى مستشرق ومستعرب يابانى من طراز خاص. فبخلاف غالبية المستشرقين اليابانيين الحاليين، فإنه لا ينطلق من أرضية التأثر بالغرب لدى صياغة مواقفه تجاه العالم الإسلامى، بل على النقيض من ذلك يتحدث بوصفه يابانيا مسلماً، حيث اعتنق الإسلام طواعية فى القاهرة بعد أن أجاد التحدث باللغة العربية عام ١٩٨٨ بعد دراسة وبحث طويل فى الدين الإسلامى وعنه، وبعدها استقال من عمله بوزارة الخارجية اليابانية ثم تفرغ للكتابة والترجمة والتدريس والبحث بالمعهد العربى الإسلامى بطوكيو. وعن خلفيته الدراسية نقول أنه حاصل على الليسانس فى التاريخ من جامعة كيوتو فى اليابان عام ١٩٧١، ثم درس التاريخ كطالب مستمع فى كلية الآداب فى جامعة القاهرة عامى ١٩٧٣ و١٩٧٤ حيث بدأ يهتم بدراسة أعمال الكاتب المصرى الإسلامى أحمد أمين، كما اهتم بدراسة الخط العربى خلال عمله بجدة حيث وجد أن تطوره منذ عصر النبوة وحتى الآن عكس التطور الحضارى للفكر العربى والإسلامى بأسره بالإضافة إلى ما فى الخط العربى من قيم جمالية عالية، ثم حصل على درجة الماجستير فى دراسة منطقة الشرق الأوسط من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام ١٩٩٢، وبدأ الإعداد للدكتوراه أما عن خلفيته المهنية، فقد عمل مستشاراً وقنصلاً عاماً فى سفارات اليابان فى عدة بلدان منها مصر والمملكة العربية السعودية ولبنان وبريطانيا والولايات المتحدة وبعثة اليابان لدى الأمم المتحدة فى نيويورك، وخلال عمله فى السفارة اليابانية بالقاهرة كان له دور فى الإشراف على بناء المركز الثقافى (الأوبرا) الذى تم بمساعدة اليابان مع التزام بفن العمارة الإسلامية أما فيما يتعلق بخلفيته الأكاديمية والبحثية، فقد كان الأستاذ أمين ميزوتانى محاضراً زائراً حول الثقافة الإسلامية فى كليات الآداب بعدد من الجامعات اليابانية منها جامعتا طوكيو وكيوتو، كما أنه نشر العديد من المقالات البحثية عن المفكر المصرى والإسلامى الراحل أحمد أمين، كما ترجم إلى اللغة اليابانية كتاب «حياتى» للراحل أحمد أمين، وقد نشر كتاباً كاملاً عن أفكار الأستاذ الراحل أحمد أمين باللغة الإنجليزية، وفسر اهتمامه بالأستاذ أحمد أمين بأنه لم يكن عبقريا متفرداً ولكن مثقف يمكن النظر إلى عقله كمرآة تنعكس عليها قضايا الدين والعقيدة والتراث، وبذلك يمكن فهم كيف تنعكس هذه المسائل على عقلية المواطن العادى، فدراسة أحمد أمين كانت بالنسبة له مفيدة لأنه ليس شديد الارتفاع عن المستوى الفكرى للمواطن العادى، ولكن أحمد أمين كان لديه اطلاع واسع وموقف أخلاقى. وقد أعد أمين ميزوتانى رسالة الدكتوراة للمناقشة أمام جامعة لندن حول لأعمال الأدبية والسياسية للأستاذ أحمد أمين. كما ألف الأستاذ أمين ميزوتانى كتب «المساجد حول العالم»، و«الجامع فى الحج»، و«تاريخ الكعبة المشرفة وآثارها»، و«الجنة فى الإسلام»، وذلك باللغة اليابانية، وقد نشرت جريدة «الأمة» التى تصدر فى اليابان وتعنى بالشئون الإسلامية خبراً حول إلقاء أمين ميزوتانى لأول خطبة باللغة اليابانية يوم الوقوف بعرفة فى موسم حج عام ١٤٢٧هـ وذلك أمام وفد الحجاج من اليابان حيث تناولت الخطبة أهمية الحج كأحد أركان الإسلام، وأهمية الوقوف بعرفة كركن أساسى من شعائر الحج، مستشهداً فى ذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة. ويظل يخطب ويكتب حول موضوع الدين عامة ودين الإسلام خاصة مثل كتابه الذى نعرض له اليوم: «الأديان فى اليابان بين الماضى والمستقبل» الصادر من بيروت.

إن هذا الكتاب يبحث فى صورة موجزة الأوضاع الراهنة للأديان فى اليابان حول ثلاثة محاور رئيسية وهى أولا سبب تاريخى لما يسميه الكاتب بـ «الفراغ العقائدى» فى حالة المجتمع اليابانى وثانيا صعوبات خاصة باعتناق الدين الإسلامى فى اليابان وثالثا حالة انجذاب للأديان نلمسها بصفة خاصة بين الشباب كما نلاحظ من نشوء الطوائف الجديدة المتعلقة بالأديان التقليدية.

وأيضا يقدم الكتاب الذى بين أيدينا معلومات متوافرة عن الأديان التقليدية اليابانية كى يعرف القارئ العربى المزيد عن الخلفية الضرورية لفهم الموضوع بصورة واضحة متوازنة.

يبدأ الكتاب بمدخل تمهيدى عن الديانات اليابانية التقليدية والإسلام، يتناول فيه المؤلف ما يلى:

(١) يقدم الكاتب إحصائيات عن عدد معتنقى الديانات المختلفة باليابان، وذلك على النحو التالى:

يصل تعداد السكان فى اليابان إلى حوالى مائة وسبعة وعشرين مليون نسمة. أما أعداد معتنقى الديانات المختلفة فيصل إلى ضعف هذا العدد وهو حوالى مائتين وعشرين مليون فرد[1]، وهذه الإحصائيات التى تبدو غير معقولة للوهلة الأولى سببها أن أكثر من نصف اليابانيين يقولون: البوذية والشنتاوية كلتهما ديانتهم. أما بالنسبة للمسيحية، فعدد معتنقيها يبلغ حوالى مليون شخص، علماً بأن من تخرجوا من اليابانيين فى مدارس مسيحية (بجميع مراحلها من رياض الأطفال وحتى الجامعة) يبلغ عددهم عشرة ملايين شخص، أى أن هناك ١٠٪ تقريبا من اليابانيين درس فى مدرسة مسيحية فى إحدى مراحل الدراسة، وكذلك هناك ١٠٪ من هؤلاء اعتنق المسيحية.

وبعيدا عن الإحصائيات السابقة هناك العديد من الديانات الأخرى تصنف تحت اسم «الديانات الجديدة»، ويبلغ عدد تلك الجماعات حوالى أربعين ألف مجموعة (أو ديانة) بين الكبيرة والصغيرة. معظم تلك الديانات خرجت من تحت عباءة البوذية أو الشنتاوية. فكل مجموعة من تلك المجموعات أخذت جزءاً صغيرا من تعاليم البوذية أو الشنتاوية وعدت هذا الجزء من أهم تعاليم تلك الديانة وهو ما يجب أن يكون ركيزة للدين والتعاليم وأقامت على هذا الأساس دينا جديدا تدعو إليه، وهناك منها المجموعات الكبيرة التى يبلغ عدد معتنقى تعاليمها من مليون إلى عشرة ملايين شخص، ومنها مجموعات امتد نشاطها إلى خارج اليابان.

وفى إحصائيات الحكومة اليابانية يصنف الإسلام تحت اسم تلك «الديانات الجديدة»، ولم يصدر رقم لعدد معتنقيه بالإحصاء، ولكن «جمعية مسلمى اليابان» تقول إن هناك مائة ألف مسلم فى اليابان، عشرة آلاف منهم من المسلمين اليابانيين والتسعين ألفا الآخرين من الأجانب الوافدين إلى اليابان من دول إسلامية مثل باكستان وإندونيسيا وغيرهما.

(٢) علاقة الإسلام مع الديانات اليابانية

حتى هذه اللحظة تسير الأمور على ما يرام بين الإسلام والأديان الأخرى فى اليابان. وفى الأيام الأخيرة يقام حوار بين مؤسسات دينية مختلفة تحت قيادة «المؤتمر العالمى من أجل الأديان والسلام (WCRP)»، وهى منظمة غير حكومية تتمتع بوضع استشارى لدى المجلس الاقتصادى والاجتماعى التابع للأمم المتحدة، وتشارك فيها مؤسسات بوذية وشينتاوية ومسيحية وإسلامية وغيرها من الديانات الأخرى ويمتد نشاط المجموعات الشبابية والمجموعات النسائية لمنظمة (WCRP) إلى جميع أنحاء اليابان.

وبغض النظر عن التعاون بين الديانات المختلفة على الساحة الدولية، ففى اليابان تعاون وتسامح ملحوظ بين الديانات المختلفة ومن بينها الإسلام. ويتحدث الكتاب الذى بين أيدينا عن ذلك فى الفقرات التالية ولكن نستطيع أن نقول إن السبب فى ذلك أن الدين بشكل عام فقد ثقله فى المجتمع اليابانى بعد الحرب العالمية الثانية.

ومثال آخر على سلاسة العلاقة بين الإسلام والديانات الأخرى فى اليابان، أن ما ينشر من كتب فى اليابان للتعريف بالدين بوجه عام نادراً ما لا يحتوى على الإسلام، فمنذ ثلاثين عاما مضت لا نجد كتابا دينيا لا يتطرق إلى الإسلام مما يوحى بوجود تغير ملحوظ فى الأوضاع هنا، وهذا بالطبع وضع لم يكن ليوجد

سوى من خلال توافر علاقة سلسة بين الإسلام والديانات الأخرى.

وبشكل عام، فإن الحديث عن الدين دون التطرق إلى الإسلام فى اليابان أصبح شيئًا نادرًا مما يعنى أن الإسلام له طابع وثقل خاص فى اليابان، ويمثل ذلك دليلاً إضافيا على الدور الهام للإسلام فى عالم الأديان. ومن هذا المنطلق نشرت فى اليابان مؤخرا مناظرة ثلاثية بين ممثل عن البوذية وآخر عن المسيحية وثالث عن الإسلام. وأن يلقى الدين الإسلامى كل هذا الاهتمام فى اليابان بالرغم من قلة عدد معتنقيه بها يعد معاملة خاصة من نوعها، حيث إن هناك العديد من الديانات الأخرى التى تصنف تحت اسم «الديانات الجديدة» لها معتنقون عددهم أكثر بكثير من عدد المسلمين.

ولم يكن السبب فى هذه المعاملة الخاصة بسبب انتشار تعاليم الدين الإسلامى فى اليابان، ولكنه كان لوعى اليابان بتأثير الإسلام فى الأحداث العالمية فى الحاضر والمستقبل. ونستطيع القول بأن الازدياد المتسارع فى عدد معتنقى الإسلام على الصعيد العالمى سوف يؤثر تأثيرا كبيرا ومباشرا حتى فى اليابان.

وإذا ما نظرنا إلى علاقة الإسلام بالمجتمع فى اليابان فلن نجد احتكاكا ملحوظا يستوقف النظر[١]، ونسمع أحيانًا قليلة للغاية أن هناك بعض المشاكل، وأن هناك من المسلمين من يغضب إذا ما عامله اليابانيون معاملة خاصة، أو من يشكو من أن أولاده يتعرضون لمضايقات من أطفال يابانيين ولكن تبقى هذه حالات نادرة ومعزولة وغير معروفة التفاصيل، وبالتالى غير واضح إلى أى مدى كان الانتماء للدين الإسلامى سبب هذه المشكلات. كذلك فهناك بعض الحذر الذى يلتزمه اليابانيون فى معاملتهم مع الأجانب من المسلمين بسبب حوادث الإرهاب التى تقع فى العالم وخاصة عند التقدم للحصول على عمل أو استئجار منزل وما إلى غير ذلك. ولكننا لا نرى فى اليابان أحداثا مثل تلك التى تقع فى أوروبا أو أمريكا الشمالية بين المسلمين وتلك المجتمعات مثل حظر ارتداء الفتيات للحجاب فى المدارس أو أحداث الشغب التى يقوم بها بعض المسلمين ردا على ما يعتبرونه تفرقة عنصرية تمارس ضدهم، وحتى فى الأحداث التى نتجت عما نشر فى الصحف الدانمركية من رسوم كاريكاتورية مسيئة للرسول محمد عليه الصلاة والسلام، فإن رد الفعل فى اليابان لم يتعد مظاهرة سلمية نظمها مسلمون أجانب مقيمون فى اليابان أمام سفارة الدانمرك فى اليابان.

ويعرض الكتاب لحصيلة مائة عام من الإسلام فى اليابان، وذلك على النحو التالى:

أ. بناء المسجد

فى عام ١٩٠٥ تم بناء أول مسجد للمسلمين فى اليابان وكان فى مدينة «إيزومى أووتسو» بالقرب من أوساكا، فقد اصطحب الجيش اليابانى عدداً كبيراً من الأسرى من مسلمى وسط آسيا فى حرب اليابان وروسيا التى دارت عام ١٩٠٥، وهؤلاء الأسرى قاموا ببناء مسجد وكذلك أسسوا منطقة لمقابرهم. وبعد ذلك قام تاجر هندى مسلم ببناء مسجد آخر فى «كوبى» عام ١٩٣٥، وفى عام ١٩٣٨ تم بناء مسجد فى طوكيو بدعم من الحكومة التركية، وهو لايزال قائماً حتى الآن.

وفى الوقت الحالى إذا حصرنا عدد المساجد فى اليابان، فستجد فى جميع أنحاء البلاد من أربعين إلى خمسين مسجداً بما فيها «المصليات» (أماكن صغيرة للصلاة)، يتركز أكثر من نصفها فى طوكيو وضواحيها ثم يأتى بعدها من حيث العدد «أوساكا» ثم «ناجويا»، أما الباقى فينتشر فى جميع أنحاء البلاد من «هوكايدو» فى الشمال إلى «أوكيناوا» فى الجنوب.

وكانت المساجد فى اليابان فى مجملها نتاج جهد شاق لمن قاموا ببنائها، وتخطط «جمعية مسلمى اليابان» لبناء مسجد كبير بيد اليابانيين أنفسهم، ولكن الخطوات العملية لهذا المشروع لم تحدد بعد. وطبقًا للتقاليد اليابانية فى بساطة البناء والتصميم والمنظر الداخلى فليس من المتوقع أن يكون مثل هذا المسجد فائق الزخارف مثلاً، فالمهم بالنسبة لهم هو بناء المسجد فى حد ذاته.

ب. الحج

فى عام ١٩٠٩ كان السيد «ياماأوكا كووتارو» أول الحجاج اليابانيين كما ورد فى السجلات. فى بادئ الأمر كان مكلفا من الجيش اليابانى بجمع المعلومات من اليابانيين ولكن الأمر انتهى به إلى أن يتحول إلى الإسلام ويستمر على دينه الجديد إلى أن وافته المنية. لم تكن سجلات الحج التى تركها منسقة بشكل صحيح، ولكنها تعطى انطباعا لمن يقرأها بحماسه الزائد وشجاعته إذ لم يسبقه أحد من اليابانيين للحج فكان أول وآخر من ذهب للحج راكبا الجمل من أهل اليابان.

وجاء بعده السيد «تاناكا إيبيه»، وكان قد ذهب للحج مع مسلم من الصين عام ١٩٢٤، ثم ذهب للمرة الثانية عام ١٩٣٣ وقد ترك لنا سجلات رحلات الحج التى قام بها. كانت إقامته فى الصين لفترة طويلة وكان على معرفة كبيرة بالبوذية والشينتاوية والكنفوشيوسية وكذلك التاوية، وبعد عودته إلى اليابان قام بأنشطة عديدة ليس من أجل الإسلام فقط بل من أجل تحقيق تسامح فيما بين مختلف الديانات فى اليابان.

وجاء بعد ذلك السيد «سوزوكى تسويوشى» والمجموعة التى ذهبت معه، فقد أدوا فريضة الحج ثلاث مرات فى الأعوام ١٩٣٥ و٣٧ و٣٨، وترك لنا سجلات وتقارير عن رحلات الحج بعنوان: (مذكرات الحج)، وقد ترجمت إلى اللغة العربية[٢].

وقد بلغ عدد الحجاج من اليابانيين حتى قبيل الحرب العالمية الثانية عشرين شخصا تقريبا بمن فى ذلك هؤلاء الذين سبق ذكرهم، وزادت الأعداد تدريجيا بعد الحرب حتى أصبح عدد من يؤدى الفريضة فى السنوات الأخيرة يبلغ أربعين شخصا فى كل عام. أصبحت الطائرة هى وسيلة الانتقال وذهب العناء الذى كان يواجهه الأوائل. ولكن مذكرات الحج لم تعد تنشر كما كان يفعل الرواد، ربما كان ذلك لازدياد عدد الحجاج، وإن كان هناك الكثيرون الذين يودون الاطلاع على تفاصيل هذه الرحلة الجليلة.

بدأ البناء فى مسجد بمدينة «كوبى» عام ١٩٢٨ من تبرعات المسلمين، وشارك فى التبرعات قنصل مصر فى «كوبى» فى ذلك الوقت الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية ونائب رئيس الجمهورية فيما بعد

جـ. ترجمة «معانى القرآن والتفسير»:

صدرت الترجمة اليابانية الأولى لمعانى القرآن باليابانية فى عام ١٩٢٠ ثم فى الثلاثينيات والخمسينيات، وكانت الترجمة المباشرة الأولى من اللغة العربية عام ١٩٥٧ وقدمها السيد «إيزوتسو توشيهيكو». وفى عام ١٩٧٠ قام اثنان من علماء اللغة العربية بتجربة جديدة للترجمة.

وكأول محاولة ليابانى مسلم كانت ترجمة السيد «عمر ميتا» عام ١٩٧٢ (الطبعة الثانية عام ١٩٨٢). أمضى السيد عمر سنوات طويلة فى مكة مستغرقا فى تحقيق مهمته وتوفى بعد أن انتهى من نشر عمله مباشرة، وقد ترك هذا العمل الكبير، وأدخلت بعد ذلك «جمعية مسلمى اليابان» تعديلات وتحسينات متواصلة على هذه الترجمة، حتى أصبح هذا الكتاب هو الترجمة الأكثر تداولا للقرآن فى اليابان.

أما بالنسبة لتفسير القرآن فلم تكن هناك الترجمة المناسبة، ولكن مؤخرا صدر عن «جمعية اليابان ـ السعودية» ترجمة (تفسير الجلالين) للسيدة «ناكاتا كاأورى» والتى استغرق العمل فيها من عام ٢٠٠٢ وحتى عام ٢٠٠٦ وهو كتاب كبير مكون من ثلاثة أجزاء، ولكن الحجم الكبير يعوق تيسير التداول، لذا تدرس «جمعية مسلمى اليابان» إمكانية إصدار كتب تفسير صغيرة الحجم.

د. الأحاديث النبوية وسيرة النبى محمد عليه الصلاة والسلام:

أما بالنسبة للأحاديث النبوية فقد صدرت عن «جمعية مسلمى اليابان» ترجمة لـ (صحيح مسلم) فى ثلاثة أجزاء عام ١٩٨٧، وغير ذلك صدر مختارات من الأحاديث النبوية مثل (الأربعون حديثا) ثم (المائتا حديث)، وهناك مشروع لإصدار (المائة حديث)، فإصدار هذه المجموعات من الأحاديث بشكل سهل الاستخدام ومنتقى يسهل على المسلم اليابانى استيعابها والعمل بها.

أما سيرة النبى عليه الصلاة والسلام فمنذ القرن التاسع عشر وحتى الآن صدر ما يقرب من ١٥ كتاباً، معظمها ترجمات من لغات أوربية يبدو واضحاً فيها روح الاستشراق، ولكن فى عام ١٩٩٣ صدرت أول ترجمة عن اللغة العربية لكتاب من كتب السيرة من جمعية «مسلمى اليابان»، وكانت الترجمة كاملة لكتاب (سيرة النبى) للسيد «حسن السباعى».

إن التساؤل الذى يظل يشغل المسلمين عن اليابانيين هو: ما هو اعتقاد اليابانيين عن الهدف من الحياة؟ وما هو اعتقادهم عن ما بعد الموت؟ كيف يتصورون خلق الكون؟ وفى الفترة الأخيرة كانت هناك أخبار أكثر عما قبل تنشر عن حوادث قتل وانتحار فى اليابان، فطرح التساؤل: هل هذا يعنى وجود خلل نفسى ما لدى اليابانيين؟ وفى ضوء ما يشاع أحيانًا من أن كل ما

الإسلام اليابانى!!

يشغل اليابانيين هو السعى وراء المال، طرح البعض سؤال: هل اليابانيون بدون عقيدة؟ إلى آخر ذلك من التساؤلات.

ويتناول الكاتب فى هذا السياق بصراحة التساؤل فى العالم الإسلامى عما إذا كانت اليابان تعتبر «بلاد كفار» أو «دار حرب»؟

وربما يأخذ البعض هذا السؤال على إنه إهانة، ولكن الكاتب يعتبر أن بعض المسلمين يطرحونه، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. فهو سؤال هام يراودهم ولا يستطيعون تجنبه، وحول هذه النقطة يستعين الكاتب بما قاله المؤرخ والمفكر المصرى الإسلامى الراحل الأستاذ «أحمد أمين» منذ حوالى نصف قرن وهو:

«وحسبنا دليلاً على ذلك أن أمة اليابان وهى وثنية الدين لما حذت حذو أوروبا وأمريكا فى نهضتهما فأيدت علماء الطبيعة والكيمياء وعلمتهم التعليم الحديث وشجعتهم على الاختراع والابتكار ساروا سيرهم ووصلوا إلى ما وصلت إليه أوروبا وأمريكا وحاربوا روسيا وانتصروا عليها ثم حاربوا أوروبا وأمريكا وانتصروا عليهم أولا وإن انهزموا أخيرا. ولم تمنعهم وثنيتهم أولا من النهوض والتقدم وكان تقدمهم فى وسائل النهضة الأخرى مغطيا على انحطاطهم الدينى. فكيف لو صلح دينهم وسمت روحانيتهم؟»[1].



نحن بالطبع لا نستطيع أن نمر مرور الكرام بمثل هذا الرأى، حيث إنه صادر عن مفكر بارز، وتضمن نقداً ضمنيا الذى وجهه الكاتب للديانات اليابانية. وهكذا نرى أنه أحياناً ينظر بعض العرب والمسلمين لليابان على أنها بلد بدون ديانة حقيقية، بل إن هذه النظرة موجودة بين بعض المثقفين وترجع إلى فترة زمنية بعيدة.

المتغيرات المختلفة فى التاريخ اليابانى:

ويوجه الأستاذ أمين ميزوتانى رسالة للرد على هذا الفهم لدى بعض العرب والمسلمين لليابان، ويستعين فى رده بتاريخ اليابان الطويل فى محاولة لتقديم صورة كاملة وواضحة للرد. ويرى أن هناك صعوبات تواجه الديانات عموماً فى المجتمع اليابانى من منظور تاريخى ولا يواجهها الإسلام وحده. وتحدث المؤلف بداية عن عصر حكم أسرة «إيدو» - وهو عصر جاء فى القرن التاسع عشر ويصنف فى التاريخ اليابانى باعتباره مهداً لعصر «ميجى»، وشهد قرب نهايته بواكير انفتاح على العالم الخارجى بما فى ذلك إرسال بعثات إلى أوروبا، خاصة بريطانيا وإلى مصر فى عامى ١٨٦٢ و١٨٦٤ للتعرف على أوجه تقدم هذه البلدان فى المجالات المختلفة وما حققته من نهضة فى ميادين الرى والتعليم والإدارة وغير ذلك. ففى عصر أسرة «إيدو» كانت البوذية هى الديانة التى تتبناها السلطة رسميا، بينما كانت المعابد تقوم بتسجيل معتنقى الديانة وتعنى بإدارة الأمور الخاصة بالأحوال الشخصية مثل إصدار أختام السفر والرحلات، وتسجيل عقود الزواج وشهادات الميلاد، أى كانت موكلة بالأعمال التى يقوم بها مكتب السجل المدنى فى هذه الأيام. وكذلك كانت المعابد تقوم ببعض أعمال الأجهزة الأمنية حاليا من المد بمعلومات وما إلى ذلك.

وبينما نعمت المعابد فى هذا العصر باستقرار وأمن أكثر من العصور السابقة، كما أنها اتصفت بالمرونة فلم تكن تطالب معتنقى الديانة بالتمسك والالتزام الحرفيين بتعاليم الديانة وبالتالى اتهمها بعض المؤمنين بالتراخى، فإنها بالمقابل كانت توصف بانتشار الفساد.

وعلى الجانب الاخر، شهد عصر حكم أسرة «إيدو» حركات كانت تظهر من وقت إلى آخر تدعو إلى إصلاح دينى داخل إطار الديانة البوذية. ومن أبرز هذه الحركات كانت حركة يسمى أصحابها أنفسهم بـ «أجداد الإصلاح»، لكن لم تحقق هذه الحركة نجاحاً يذكر لترسيخ جذورها. ولكن ذلك لم يعن أن شعلة العقيدة قد انطفأت تماماً. فهناك سجلات تاريخية عديدة عن تلك الحقبة تشير إلى أفراد من أسر ملتزمة دينيا من عامة الشعب أطلق عليهم تسمية «الصالحين»، ولكنها كانت جهوداً فردية لم تنتشر حتى تصبح ظاهرة اجتماعية أو تيارا دينيا أو عقائديا عريضاً.

واستمر هذا العصر ما يقرب من ثلاثمائة عام، فلم يسقط إلا مع سقوط حكم أسرة «إيدو»، وكانت البوذية كدين يقود اليابان جنباً إلى جنب مع السلطة التقليدية.

ثم يتعرض الكاتب لما حدث بعد ذلك من ظهور حكم أسرة «ميجى» الجديدة التى اهتمت بفكر الوحدة من أجل بناء دولة حديثة، وفى سبيل هذا الهدف كان للدين دور كبير كما أدرك السيد «إيتو هيروفومى» ومن اشتركوا معه فى إعداد دستور «ميجى»، وهنا أصبحت الشينتاوية هى ديانة الدولة، حيث أصبحت المصدر الذى يدعم أيديولوجية النظام الإمبراطورى. كما أدى هذا التغيير العقائدى المفاجئ إلى الشينتاوية إلى ظهور حركات مناهضة للبوذية تدعو إلى البعد عن البوذية وقامت بتحطيم المعابد لمحو أثرها. وانتشرت هذه الحركات فى جميع أنحاء البلاد. وللإنصاف فقد استمرت بعض التحركات للإصلاح الدينى التى قام بها بعض من شباب الرهبان البوذيين، منها نشاطات الخدمات الاجتماعية وترجمة كتاب الديانة البوذية إلى اللغة اليابانية، بالإضافة إلى الاشتراك فى اجتماعات دولية لتفعيل التبادل مع أتباع الديانات العالمية، وكذلك إجراء الأبحاث والدراسات عن أصل البوذية فى الهند وتاريخها وتطورها. وبعد توصل تلك الأبحاث إلى نتائج علمية ونتيجة التفاعل المتناغم مع الاتجاهات البحثية العالمية الجديدة أمكن إضفاء أضواء جديدة على الشكل الأصلى للبوذية.

ويعود المؤلف للحديث عن هيمنة الديانة الشينتاوية على الدولة فى اليابان باعتبارها الديانة الرسمية للدولة ويعتبر أن نهاية هذه الحقبة جاءت عبر هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية. وتسببت هذه التجربة التاريخية المريرة - برأى الكاتب - فى أن يفقد غالبية اليابانيين ثقتهم فى العقيدة الدينية، بل وانتشار مشاعر الكراهية لها لدى البعض. ويشير الكاتب إلى مقولة كان يسمعها فى شبابه انتشرت وتوغلت بين صفوف اليابانيين تعبر عن السخط الذى شعر به كثيرون تجاه الديانات الموجودة، وكانت تقول «لقد فعلنا الكثير من أجل البوذية والشينتاوية ولكنهما لم يمدا لنا يد المساعدة». وكانت تلك المقولة - بحسب رأى المؤلف - تعبر عن مشاعر ساذجة ترفض تكلف العناء ومواجهة التجارب المريرة التى يتعين على المؤمن بالعقيدة تحملها.

ولذلك حرص الدستور اليابانى الجديد الذى صيغ عقب الحرب العالمية الثانية وفى ظل الاحتلال الأمريكى على الفصل بين الدين والسياسة بشكل واضح وقاطع، وعلى نزع الطابع الدينى عن كافة المؤسسات والمصالح الحكومية والرسمية، ولم يلق ذلك التوجه الجديد معارضة تذكر من المجتمع اليابانى وبمرور الوقت ترسخت جذوره فى المجتمع أكثر وأكثر. وفى ظل هذا الانتقال الفكرى لم تتوقف رغبة غالبية المواطنين عند مجرد الفصل بين الدين والسياسة، بل يعتبر الأستاذ أمين ميزوتانى أن رغبتهم تلك امتدت إلى السعى لنزع الطابع الدينى عن كافة مناحى الواقع المعاش. فبعد هذا التغيير الفكرى الذى شهدته فترة ما بعد الهزيمة، عبر إدخال الديمقراطية الليبرالية والفصل بين الدين والسياسة، تطور التحول ليشمل تطلع مشاعر قطاعات واسعة من الشعب اليابانى إلى القضاء على كل أثر للدين فى الحياة اليومية.

وفى ظل هذه الظروف جاءت فترات كانت غالبية المجتمع تنظر فيها إلى من يتمسكون بالدين بشكل سلبى. كما ترددت أقاويل، خاصة فى بدايات تلك المرحلة، مفادها أن القوات الأمريكية التى كانت تحتل اليابان حينذاك كان لديها خطة لاستغلال هذا الموقف تجاه الديانات اليابانية التقليدية لجعل اليابان دولة مسيحية. وبغض النظر عن صحة هذه المقولة من عدمها أو إلى أى درجة كانت القوة المحتلة جادة فى هذه الخطة، فالنتيجة برأى المؤلف كانت واضحة وهى عدم تحقق هذا الهدف - فى حالة افتراض وجوده أصلاً - وهو ما يراه أمراً طبيعياً، ففى ظل مشاعر بالرغبة فى القضاء على كل وأى أثر دينى، لم تكن المسيحية لتحظى وحدها باستثناء من هذه المشاعر.

«الدين باليابان بين جبلين»:

يستخدم المؤلف هذا التعبير ليشرح للقارئ العربى طبيعة ما يعتبره الوضع الحالى للعقيدة الدينية باليابان والذى يصفه كما لو أن شيئاً قد سقط فى أعماق وادٍ محصور بين جبلين، ويدعو إلى عدم الحكم على مجريات الأمور بنظرة إلى التاريخ المعاصر الذى لا يشكل سوى جانب واحد من تاريخ اليابان. ويشير الكاتب إلى أن عامل السقوط فى ذلك «الوادى» كان هو السبب الذى أدى إلى استمرار فترة من الصعوبات التى واجهت عملية انتشار العقيدة الدينية باليابان، بحيث إن هذا لم يكن حال الدين الإسلامى فقط.

وإلى جانب الظروف التى سردها

المؤلف وعرضنا لها فيما تقدم، فإن مهمة التغلب على دوامة الحروب لمواصلة الحياة كانت من العوامل التى ساعدت على تشكيل الوضع الحالى للأديان فى اليابان، وكذلك كانت مهمة إعادة بناء الاقتصاد. كما أنه حدث تلازم زمنى بين تطورين: تزعزع الثقة فى العقيدة وتنمية الاقتصاد. ومن هنا جاء وصف «الوحش الاقتصادى» الذى أطلق على اليابان فى فترة ما، ولم يعبأ عدد كبير من اليابانيين بأن يطلق هذا المصطلح على بلادهم بل ولم ينفوا هذه الصفة عن أنفسهم، مما عكس أن قطاعا كبيراً من اليابانيين غابت عنهم - ولو لفترة - احتياجاتهم الروحية الإنسانية.

ولكن إلى أى درجة وحتى متى يمكن أن تتغير «الفطرة» لدى بعض البشر؟ ويجيب المؤلف أن هناك ثوابت لا تتبدل، مثل حقيقة أن الإنسان يولد كفرد ثم يرحل إلى العالم الآخر كفرد بعد حين، ومثل أن الإنسان فى نهاية الأمر ضعيف ولكنه بالرغم من ضعفه يتصارع مع الآخرين من أجل البقاء حتى وإن بقى وحيداً فى معركته تلك. وهناك أيضاً حقيقة أن قلب الإنسان سوف يظل يسعى وراء الحق والعدل والاستقرار والسلام الذى تدعمه عزيمة لا تتزحزح لأن هذه هى الطبيعة الإنسانية. وإلى هذه الطبيعة الإنسانية أيضاً ترجع «عودة ظاهرة التدين» التى تشهدها اليابان هذه الأيام، كما أننا نستطيع القول أنها أحد العوامل التى ساعدت على زيادة الاهتمام بالأديان عموماً، وبالإسلام خصوصاً فى اليابان مؤخرا.

صعوبات خاصة تواجه اليابانيين فى طريق فهمهم للإسلام:

يرى المؤلف أن عدد الذين ينظرون إلى الإسلام نظرة جادة ويودون أن يتعرفوا على صورته الحقيقية يتزايد فى اليابان، ولكن غالبية هؤلاء لا يستطيعون فهم الإسلام والشعور بالتجانس مع فلسفته وتعاليمه رغم كل الجهود التى يبذلونها. ويشير المؤلف إلى وجود العديد من الصعوبات والعقبات التى تقف فى طريق من يحاول فهم الإسلام فهما صحيحاً فى اليابان. ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى أنه حتى هؤلاء الذين يهتمون بالتعرف على الإسلام ينقصهم الدافع الداخلى لمحاولة فهم محورية فكرة الإيمان فى الإسلام، كما أن الكتب التى تقدم الإسلام لليابانيين وتركز على روح الإسلام وجوهر رسالته تكاد تكون غير موجودة. ويعتبر الأستاذ أمين ميزوتانى أن روح الإسلام هى الصفاء مع النفس، أو ما يمكن وصفه بـ «السلام». وفى اللغة اليابانية كلمة (nagoyakasa) هى أدق الكلمات التى تعبر عن روح الإسلام فهى تعنى «الصفاء مع النفس والعيش فى سلم وتآلف ووفاق مع الآخر»، وهذه هى الصفات التى يجب أن يكون عليها الإنسان المسلم، دائماً بحسب المؤلف، وهو ما نتفق معه بشأنه.

(١) صعوبات التغطية الإعلامية للإسلام والمسلمين:

إن أكبر العقبات التى توجد مناخاً سيئاً حول الدعوة إلى الإسلام فى اليابان هى الأخبار اليومية فى الصحافة ووسائل الإعلام، والتى تقود الناس إلى الحيرة والدهشة والاستغراب على أفضل الأحوال، فهى لا تتحدث عن الإسلام إلا باستخدام مصطلحات مثل «متطرفين» أو «أصوليين» أو «إرهابيين» وما إلى ذلك.

وللحق، فإنه لا توجد فى اليابان نية مبيتة لتصوير الإسلام فى صورة مروعة بتغيير الحقائق مثل تلك التى توجد فى بعض الدوائر فى أوروبا وأمريكا. ولكن بالرغم من ذلك، فإن نقل التغطية الإعلامية عن وسائل الإعلام الغربية يوجد تأثيراً من الإعلام الموجه من الغرب فى تناول قضايا الإسلام والشرق الأوسط على الرأى العام اليابانى يوجهه فى اتجاهات معينة قد تكون بعيدة عن الحقيقة.

(٢) الخلط بين الدين والعلم:

والعقبة الثانية التى يشير إليها الكاتب هى عقبة يرى أنه من الصعب أن يلحظها أحد، ويعنى بها فهم الإسلام على أنه علم. إذا ما نظرنا إلى هذا الفهم على أنه يصور الإسلام مجالاً للبحث والدراسة، ويعتبر المؤلف أن هذا قد يكون جيداً على المدى القصير، ولكنه يضل عن الرسالة الأساسية للإسلام كدين وعقيدة إيمانية.

ويساوى الكاتب بين الوضع فى اليابان ومثيله فى دول الغرب، حيث يزداد الاهتمام بالعلوم المتعلقة بالإسلام كموضوعات بحث ودراسة فى علم الفلسفة وعلم الديانات المقارن والتشريع وما إلى ذلك، كما يوجد اهتمامات من النواحى الأنثروبولوجية والاجتماعية لدراسة ظواهر مثل الصوفية والأصولية. كما يتم استخدام مناهج بحث تستخدم نتائج نظريات علم النفس لتحليل تعاليم الإسلام من منظور الإدراك، بل إن هناك أيضاً محاولات للتحليل باستخدام علم الأعصاب عبر إجراء أبحاث علمية طبية فى فرع المخ والأعصاب لكشف النقاب عما يعتبره البعض البعد الفسيولوجى للإيمان بعقيدة، أى أن الإسلام يتعرض لتحليل وتشريح من كافة فروع العلم الحديث، ولكن دون أن نجد فرعا يهتم بالإسلام كروحانيات وعقيدة أى ينظر إليه ويعالجه بعيداً عن العلوم المادية المحسوسة.

ويرى الأستاذ أمين ميزوتانى أن هذه العقبة لا يعانى منها الإسلام وحده، فعندما ننظر إلى التاريخ نجد عبارة من القرن الثانى عشر تركها مؤسس أحد أكبر المذاهب البوذية يقول فيها «يتحدث الكثير من العلماء والحكماء ويتناولون الهدى بالتحليل العلمى، بينما المفروض أن نستغرق فى التراتيل وليس بالظاهر كأهل العلم والمنطق»، وهكذا يخلص المؤلف أنه من قديم الأزل شرقا وغربا يوجد اتفاق على أن الإيمان ليس علما أو موضعاً لعلم، وبالمقابل يعتبر ما يسميه «تقديس العلم وتبجيله» مرضاً أصاب اليابانيين منذ انشغلوا فقط بالعلوم الحديثة ومناهج دراستها.

ويعود المؤلف هنا من جديد للتحدث عن «الوسيط الغربى» فى تعريف المجتمع اليابانى الحديث بالإسلام، ويبنى حديثه على افتراض يسلم هو بصحته مسبقا وهو أن نظرة الإجحاف المبيت من الغرب للإسلام حقيقة يصعب تجاهلها، وهى نظرة مستمرة لدى الغرب منذ الحروب الصليبية، وربما قبل ذلك. كما أنه فى العصر الحديث فإن أهم علماء الإسلاميات الغربيين من اليهود حتى وإن تلفعوا بعباءات المنطق والدليل العلمى. ويخلص المؤلف أنه بالتالى فإن علم الإسلاميات الذى ورد إلى اليابان من الغرب فى التاريخ الحديث والمعاصر، وإن لم يفصح عن عدائه للإسلام، فهو على الأقل يتعامل معه على أنه موضوع للبحث الحيادى والتشريح.

عام ١٩٦٨ تم تجديد مسجد طوكيو بمساعدة من الحكومة الكويتية، وفى العام نفسه اعترفت السلطات المسئولة لأول مرة بجمعية مسلمى اليابان وبالإسلام كأحد الأديان المتواجدة فى اليابان

فعلى سبيل المثال، ركز بعض علماء الإسلاميات فى الغرب على الشريعة فى الإسلام،(*) فى حين يدفع المؤلف أن جوهر رسالة الإسلام هو المشاعر الصافية المؤمنة والإيمان الخالص من القلب.

ويرى الكاتب أن اليابان كانت تعانى من عبء مضاعف فى هذا الصدد شكله كل من الموقف الذى فرض عليها بأن تبدأ دراسة العلوم باستيرادها من الخارج من جهة، وكذلك الموقف الذى فرض عليها التأثر بالموقف الغربى من الإسلام من جهة أخرى.

(٣) أكبر العقبات: انصراف الناس عن الاهتمام بالروح والعقائد:

وأخيراً يتحدث الكاتب فى هذا الجزء عن أكبر العقبات التى تواجه فهم المجتمع اليابانى لحقيقة الإسلام بحسب رأيه، وهى عدم وجود ما يشرح طبيعة الإحساس بالإيمان أو شعور القلب العامر بالإيمان.

ويرجع المؤلف ذلك إلى الاستبعاد الطوعى الإرادى من جانب غالبية اليابانيين لكل ما له علاقة بالدين على مدار الستين عاماً الأخيرة، وبتعبير آخر، أصبح عالم الروح بكل سحره وجاذبيته بعيدا إلى حد كبير عن غالبية اليابانيين فرادى وجماعات.

ويعود المؤلف ليؤكد على أن التعامل مع الإسلام من منطلق أنه علم ومادة بحث لا يؤدى إلى فهم روح الإسلام، ويشدد على أن الإيمان يعتمد على العامل النفسى الإلهامى والروحانى، ولذلك يرى أن الكثير من الديانات تعتبر الفنون التشكيلية والموسيقى وسائل مساعدة تؤدى للإيمان.

ويخلص الأستاذ أمين ميزوتانى إلى أن سبب تعثر اليابانيين فى فهم حقيقة الإسلام لم يكن العادات والطقوس التى لم يألفوها بل كان لأنهم لم يتعرفوا على روح الإسلام وجوهر رسالته.

ويطرح الكاتب السؤال ويحاول الإجابة عنه، والسؤال هو: ما هو هذا العالم الروحانى الذى يستشعره من يؤمن بالإسلام؟ وما الذى يشعر به من يعمر قلبه بالإسلام؟

وفى معرض محاولة الرد يذكر الكاتب أن الإجابة الموجزة تكمن فى كلمة واحدة وهى: «الصفاء» الذى هو - بحسب رأيه - روح الإسلام، ويعتبره بعيداً كل البعد عن العنف والقهر، بل هو القلب العامر بالحب والشكر المتواصل، هو أمر لا يستطيع الإنسان التوصل إلى معرفته من مئات النظريات أو الوثائق أو السجلات، بل يستطيع المرء



ان يستشعره فى مشهد إنسان يصلى فى خشوع. وربما فى الطبيعة بكل ما فيها حيث يقودنا التأمل فى الطبيعة إلى أن نشعر بنعمة الحياة ونتمنى الخير لكل من حولنا. ومن أجل المحافظة على قلب بكل هذا الصفاء، يؤمن الكاتب بأن هناك شعلة من الإيمان لا تنطفئ تظل موقدة فى قلب المؤمن. ويخلص المؤلف إلى أن «الاهتمام بالإيمان» هو أهم ما يفتقده تعريف الإسلام فى اليابان. وهو ما يحاول أن يركز عليه فى بقية كتابه.

أ. تساؤلات اليابانيين: يتناول الكاتب ما يعتبره التساؤلات الرئيسية لليابانيين بشأن الإسلام ويحاول الرد عليها، وذلك على النحو التالى:

١. جوهر العقيدة

فيما يتعلق بهذا الموضوع يذكر المؤلف أن الإسلام دين توحيد. والسؤال الذى يطرح نفسه هو: هل يستطيع اليابانيون استيعاب هذه النقطة المحورية المتصلة بوحدانية الإله؟

«التوحيد»:

ويتساءل الكاتب: كم يابانيا يستطيع ان يقتنع بفكر التوحيد هذا دون أن يناقشه ويجادله؟ ويرد بأن اليابانيين لن يتقبلوا هذا الفكر بسهولة، أو على أفضل الأحوال سوف يتساءلون: «وما الفارق بين هذا الفكر وما تقوله البوذية من أن كل شىء عدم، أى لا وجود مطلقا». وبناء على ذلك يخلص المؤلف إلى أنه لا أمل فى تحريك قلوب اليابانيين باتجاه القبول بالإسلام إذا ما تم البدء بالحديث عن أسس الإيمان الخمسة فى الإسلام (وهى الإيمان بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الاخر)، وذلك نظرا لأن الشعب اليابانى له خلفية ثقافية مختلفة، ولا تناسبه مناهج الدعوة المعهودة فى المجتمعات الإسلامية.

«روح الإيمان»:

يسرد المؤلف تعريفا تقليديا للمسلم وهو أن المسلم هو كل من يسلم الروح والجسد إلى الخالق، حيث ينسى كل ما حوله وإرادته الخاصة ويترك كل مجريات الكون ليدعو ربه ويطيع ما أمر به الله واثقا فى رحمته وقدرته.

ويتساءل: لماذا يتوكل المؤمن على الله فى كل شىء؟ ويحاول الإجابة بالقول بأن السبب فى ذلك يرجع إلى أن المسلم يرى فى الله القدرة والرحمة والعدل، حيث يشعر بكل كيانه: بقلبه وعقله، باجتماع الحق والخير والجمال فى الله سبحانه وتعالى، وهو بذلك يشعر بقيمة وجوده فى الحياة ويصبح مقتنعا بأن من شأن هذا الإيمان أن يضمن له الأمن والفوز يوم البعث. فغالبية المسلمين - طبقا لهذا التعريف - لا يعبأون كثيرا بالدنيا - أو هكذا المفترض - قدر ما تشغلهم الآخرة.

ويذكر الكاتب فى هذا المقام بعض الحركات التى يقوم بها المسلم مثل أن يرفع يديه داعيا راغبا رحمة الله ورعايته ثم يمسح وجهه بكفيه وكأنه تلقاها من ربه وشعر بها، وكذلك الارتياح والسعادة التى ترتسم على وجه المؤمن العابد بعد أن يفعل ذلك، كما يشير إلى مشهد المسلم وهو يذكر اسم الله عز وجل وهو يرفع عينيه إلى السماء بنظرات سابحة وكأنه يرى شخصا ما عن بعد.

«أسماء الله الحسنى»:

يقول المؤلف فى كتابه ان الله واحد، وأسماءه الحسنى تسعة وتسعون اسما، وهى أسماء تصف قدرة الله وعظمته. وهو يرى ان أسماء الله الحسنى ليست محدودة بتسعة وتسعين اسما فقط، ولكن هذا العدد مثال على صفات وقدرات لا حدود لها. ويعتبر أن هذه الأسماء جميعها لها واقع السحر على المؤمنين، ولكن فى بعض الأحيان يتساءل البعض أى أسماء أكثر سحرا وتأثيرا؟ ففى بعض الأحيان يقولون إنها الأسماء التى تعبر عن القوة، وأحيانا أخرى يقولون إنها الأسماء التى تعبر عن الرحمة والحب، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على وجود الله فى أذهانهم دائما يرونه: قويا حينا ورحيما حينا اخر.

ويشبه المؤلف ذلك بمقولة تذكر فى الديانة البوذية «نرى بوذا فى شمس المغيب». ويجذب الاهتمام إلى التشابه بين القلوب المؤمنة بين اتباع مختلف الديانات، وهى التى تحاول أن تتخيل خالقها وإلهها فى عدة صور ومواقف.

وجـــود الـلـــه

يواصل الأستاذ أمين ميزوتانى طرحه، حيث يذكر أنه حتى وإن أدرك اليابانيون أن جوهر العقيدة يكمن فى قيام الإنسان بطاعة وعبادة الله وما يجلبه ذلك من صفاء النفس وشعور بالسعادة، فإن الكثيرين منهم سوف يتساءلون قائلين: «هل حقا الله موجود؟» ويقر المؤلف بأن من يسأل مثل هذا السؤال لن يكون مؤمنا، ولكن هذا لا يمنع غالبية اليابانيين من غير المؤمنين من طرح هذا السؤال، وذلك كرد فعل طبيعى وإنسانى. ولكن إذا لم يبد المؤمنون بالإسلام اهتماما ولو بسيطا بالإجابة عن أسئلة هؤلاء فلن يستطيعوا مساعدتهم على إدراك روح الإيمان التى سبق وتحدثنا عن تناول المؤلف لها. ولذلك يخصص المؤلف جزءا من كتابه للحديث عن حقيقة وجود الله.

ويورد المؤلف مقولة البعض بـ «أن الله موجود لمن يؤمن به». ولكن هذه الإجابة تبدو له وكأنها مجرد تكرار للكلمات لكنها لم تأت بجواب، وبالتالى يحاول ان يجتهد لتقديم إجابته هو، والتى تتلخص فى أن اختلاف الأمور فى عالم الواقع تبدو للمؤمنين دليلا قاطعا لا مجال للشك فيه على وجود الله. فعلى سبيل المثال، بعد سماع موسيقى جميلة، أو مشاهدة فن تشكيلى راق يشعر الإنسان بسعادة وارتياح وهذه تجربة قد مر بها الكثيرون. وبعد ذلك ولفترة ما يشعر الإنسان بأن كل ما يسمعه ويراه قد أصبح جميلا. إذا، يتساءل المؤلف، لماذا لا نجد من يسأل عما إذا كان الجمال موجودا أم لا، والإجابة لديه هى ان هذا ناتج عما لمس الإنسان حقيقة وجوده بتجربة ملموسة فلم يوجد داع للاستفسار عن وجود الجمال من عدمه.

وينطلق المؤلف للتحليق فى سماء تأملاته عن جوهر الإسلام فيذكر أن من أسلم قلبه لله وحافظ على تعاليم الإسلام فقد وضع خطا فاصلا بين قبل الإسلام وبعده، وهو عندئذ يجد الأدلة والبراهين على وجود الله حوله، ومع كل دليل وبرهان يشعر بحلاوة الإيمان ويزداد إيمانه صلابة.

ويضرب الكاتب مثالا على ذلك بالصدقة، ففى بادئ الأمر يؤديها المؤمن كمساعدة لشخص فقير يحتاج إليها، ثم ترتقى مشاعره إلى أن يدرك أن هذا واجب فرضه الله عز وجل عليه ويجب أن يؤديه، وعندما يصل إلى هذه المرحلة - بحسب المؤلف - يكون قد وصل إلى المعنى الحقيقى للإيمان، وهو يمثل قيم التسامى والترفع، ويكون هذا بالنسبة له مصدر الغبطة المؤسسة على الحقيقة الأبدية، الا وهى النعمة والفوز العظيم أو كما ذكر المؤلف من قبل باللغة اليابانية «nagoyakasa». فالإيمان بوجود الله هو أساس العقيدة فى الإسلام، ويرى الكاتب أننا لا نصل إليه بالأدلة والمنطق بل يسعى الإنسان إليه ويطلبه بقلبه.

الدافع وراء البحث عن الله عز وجل:

يطرح المؤلف تساؤلا يراود اليابانيين وهو: ما الذى دفع العرب إلى البحث عن إله والتوكل عليه؟ ونوجز هنا رد المؤلف عبر ثلاث نقاط على النحو التالى:

النقطة الأولى: أن لدى المسلمين قناعة بأن الإسلام هو أفضل الديانات بالنسبة للإنسان وكذلك قناعة بأن الأمة الإسلامية أفضل أمة شهدتها البشرية. وهذه القناعة تحمل بدورها دلالة ضمنية وهى أن الدين الإسلامى والأمة الإسلامية كان يجب أن ينظروا إلى الديانات والأمم الأخرى كمنافسين للإسلام والمسلمين.

وفى العصور الأولى، كان الإسلام محاطا بديانات الشرك القبلية المتعددة فى شبه الجزيرة العربية بالإضافة إلى اليهودية والمسيحية. ولذلك كانت هناك مشكلة اختيار ديانة للاعتناق، ولكن لم يكن هناك مجال للبقاء دون عقيدة. ويرى المؤلف أن هذا المناخ الدينى ظل مستمرا حتى الوقت المعاصر. ويضرب مثالا على ذلك بأنه مع انهيار الاتحاد السوفيتى وحركة الإحياء الدينى التى تبعته فى الجمهوريات السوفيتية السابقة، شهدنا انقساما بين من يختارون المسيحية الشرقية او الإسلام. وفى أفريقيا يعتبر الكاتب أن هناك توترا بين الشمال المسلم والجنوب المسيحى. وهنا لا يبدو الكاتب ملما بالتفصيل أو الدقة اللازمة بالأوضاع الدينية لأفريقيا، حيث إن عدد أتباع الديانات الأفريقية الأصلية يفوق المسيحيين فى عدد من دول القارة، كما أن الإسلام موجود أيضا فى العديد من دول جنوب وغرب وشرق ووسط القارة وغير مقصور على الشمال.

النقطة الثانية: يذكر المؤلف أن من فهم مضمون الدين وتمكن منه يمكن تصنيفه كأحد الموهوبين بموهبة ما، وهذه الموهبة تتطلب حسا راقيا من الإدراك البديهى والإلهام. وإذا كان المناخ الدينى مساعدا فهذا يساعد على زيادة ثقل هبة الإلهام والارتقاء بها. وكذلك فإن احتياج الإنسان إلى ما يدعمه روحيا يساعد أيضا على الرقى بموهبة الإلهام وإدراك الأمور بالحس البديهى. ويقرر المؤلف أنه مر شخصيا بالعديد من المواقف التى أكدت له رقى هذه الموهبة بشكل ملحوظ لدى العرب على وجه الخصوص.

ويعطى المؤلف أمثلة على ذلك، فعندما

ينظر المرء إلى المسلم وهو يرفع يديه داعيا ربه تحت الشمس الحارقة وهو لا يعبأ بحرارتها الشديدة، يشعر المرء بطاقة وتركيز لا حدود لهما. ويقارن المؤلف هذا الوضع بمثيله لدى اليابانيين فيخلص إلى أنه يشعر بأن مثل هذا التركيز ومثل هذه الطاقات موجودة لدى اليابانيين أيضا ولكنها موجهة لأشياء أخرى غير التعبد.

النقطة الثالثة: يقول المؤلف أن العلاقة فى الإسلام بين العبد وربه تتصف بالمثالية، ويشير إلى عبارة الفيلسوف الغربى «نيتشيه» التى تقول «لقد ماتت الألهة»، كما يشير إلى نظرية الرقى عند «تشارلز داروين» ويعتبرهما وجهين لعملة واحدة، وهى التعبير عن الشعور برفض الإله بسبب تجاوزات الكنيسة الكثيرة والطويلة. أما المسيحية المعاصرة فركزت على الأخلاق، أى علاقة الإنسان بالإنسان، وليس على العلاقة بين الله والعبد المؤمن. أما بخصوص البوذية، فيقول المؤلف أنها ركزت على أهمية أن تكون هناك علاقة قريبة وودودة من «الإله» مما ساعد على تراخى ملكة الإلهام وأدت إلى إثقال القلب المؤمن عندما أقرت طقوسا للتقرب من الإله. وكذلك أفرزت نفس الأثر عندما قالت بأن جلسة «الزن (طريقة التدريب البوذى بالجلوس والتأمل)» هى نفسها جلسة الإله. كما أقرت بأن صفات الألوهية موجودة فى جميع البشر، وأن الفرد يستطيع أن يكون ربانيا بمجرد قراءة التراتيل، وأن كل من يموت يصبح إلهاً.

وعلى الجانب الآخر، ففى الإسلام لم يكن هناك تاريخ لنقد أو رفض للإله، ولم تكن هناك طقوس شكلية للتقرب من الله. وهناك أيضا توازن شديد بين الرهبة والرحمة فى العلاقة بين العبد وربه. فعندما يتجه العبد إلى ربه يظل محافظًا على علاقة تسودها الرهبة من الله والثقة فى رحمته.

ويعترف المؤلف أنه بينما يصف علاقة العبد بربه فى الإسلام على أنها علاقة سوية مقارنة بالمسيحية والبوذية، فإن هذا لا يعنى أن المسلم يفكر فى وصف أو تقييم لهذه العلاقة، بل ولا يجد داعيا على الإطلاق للتفكير فى تقييم هذه العلاقة. فالمسلم لا يفكر سوى فى تلبية الله وطاعته وهذا هو كل ما يشغله.

حماسة الإيمان لدى معتنقى الدين الإسلامى

ويتطرق المؤلف هنا إلى نقطة هامة، وهى أن الإنسان يحتاج إلى صبر ومثابرة وشغف بالإيمان وقوة تحمل للمحافظة على هذه الحالة من الصفاء والنقاء التى تحدث عنها فيما سبق، ولكنه يقر مرة أخرى بأنه من الصعب على اليابانيين تفهم شغف المؤمن بإيمانه بسهولة.

ويعود المؤلف هنا مرة أخرى إلى النقطة التى بدأ منها، وهى صعوبة بدء التحدث مع اليابانيين عن الإسلام بنظرية التوحيد. وهذا يرجع - وبحسب رأيه - إلى أنها إحدى نظريات الألوهية فى علم الديانات ومن الصعب على عامة الناس استيعابها. ولكن هناك سببًا آخر يسرده المؤلف ويعتبره الأكثر أهمية، ويتمثل فى كيفية تعريف الإله فى «نظرية التوحيد»، حيث لكى تتضح معالم الصورة كاملة يجب مراعاة وجود الشعور والحماسة للإيمان لدى المسلمين، حيث يشبه المؤلف هذه الحماسة بجريان متدفق لحمم بركانية، ويرى أن هذه الحماسة الدينية هى بمثابة قوة دافعة تجرى فى قلوب المسلمين جميعا بشكل مشترك وهو أمر لا يحتاج للجدال أو النقاش، وقد يكون هذا الشعور الدينى هو السبب فى وجود حاجة طبيعية بالنسبة لهم للتطرق إلى البحث والجدل فى التوحيد. أما بالنسبة لليابانيين، فإن المؤلف يخلص إلى القول بأنهم إذا لم يقوموا بإعادة النظر فى كيفية فهم وإدراك هذا الشعور الدينى الذى يتملك قلوب المسلمين، وأيضا إذا لم يستطيعوا الشعور بهذه القوة الإيمانية الدافعة الثابتة لدى المسلمين، تصبح عندئذ نظرة اليابانيين قاصرة تفتقد الشمولية تجاه فهم الدين الإسلامى، ومن هنا يعتبر المؤلف أن نظرية التوحيد ليست إلا جانبًا واحدًا من صورة أشمل.

ويتناول المؤلف فريضة الحج، حيث يذكر أنه فى كل عام يجتمع أكثر من مليونى حاج من جميع بقاع الأرض يرتدون الملابس البيضاء ويتكاتفون فى صلاتهم وقد وصف هذا المشهد العظيم كثير من الحجاج اليابانيين فى سجلات دونوها، يصفون فيها تساوى جميع البشر فى هذا الموقف العظيم، وهو تساوى يدعمه صفاء القلب ونقاؤه، وعظمة هذا المشهد التى تذوب له القلوب ويمثل قوة هائلة تعكس طاقة الإيمان فى الإسلام.

ويعود المؤلف للمقارنة بين الإسلام والبوذية فيشير إلى كلمة «متدين» فى اللغة العربية وهى تستخدم فى الحديث عن هؤلاء الذين لا يحيدون عن طريق الإيمان، ويقارن بينها وبين كلمة «ميوكونين (الصالحين)» فى اللغة اليابانية التى كانت تستخدم فى عصر حكم أسرة «إيدو» للإشارة إلى الذين لا ينحرفون عن طريق البوذية، وكان الذين ينتمون لهذا التصنيف من المؤمنين يتميزون بقوة إرادة شديدة فى تعبدهم.

وفى ختام كتابه، يعود المؤلف لتأكيد قناعته بأن الشغف بالإيمان وقوة الإرادة هما العاملان الأساسيان اللذان يرتكز عليهما الإيمان، وهما المجالان اللذان أغفلتهما - بحسب رأيه - العلوم العديدة التى تدرس الإسلام فى اليابان وغيرها من البلدان غير الإسلامية، وهما من مفاتيح الفهم الصحيح للإسلام فى اليابان خاصة، وإذا ما تم إغفالهما، يكون قد تحقق المثل الشعبى اليابانى الذى يقول «صنع إلهًا ولم يضع فيه روحًا». فبدون محاولة شرح هذين المجالين، يرى المؤلف أنه لن تجدى الدراسة المضنية للإسلام فى الوصول إلى شىء، ويشير المؤلف إلى أن ما يقترب من ستين دولة أصبحت أعضاءً فى منظمة المؤتمر الإسلامى، أى ما يقترب بدوره من ثلث دول العالم، كما أن المسلمين يشكلون أكثر من ٢٠٪ من نسبة سكان العالم، ولكن إذا ما أخذنا فى الاعتبار الازدياد الكبير فى عدد المسلمين وتناقص عدد معتنقى الديانات الأخرى، يخلص المؤلف إلى أن الإسلام سيصبح فى القريب أكبر الديانات فى العالم تليه المسيحية (وهى حاليا تمثل ٢٧٪ من سكان العالم)، ويعتبر المؤلف أن منبع هذه الطاقة الجبارة التى مكنت الإسلام من الانتشار لم تكن الدراسات التى قامت بها كليات العلوم الدينية أو الفلسفية أو غيرها من العلوم ولكنها كانت بسبب الإيمان الذى يملأ قلب كل مسلم وبالتالى يصنع فى مجموعه قوة الأمة الإسلامية.

اصطحب الجيش اليابانى عددًا كبيرًا من الأسرى من مسلمى وسط آسيا فى حرب اليابان وروسيا التى دارت عام ١٩٠٥، وهؤلاء الأسرى قاموا ببناء مسجد وكذلك أسسوا منطقة لمقابرهم

وهكذا نرى خصوصية منهج المؤلف فى معالجة موضوعه، فأصول الديانة البوذية للكاتب تؤثر فيه بشكل لا إرادى وتجتمع مع تأثر واضح بالمنهج الحدسى، والذى ينطلق من أرضية المطلقات والجوانب الروحية المجردة، والتركيز على المعنوى والشعورى بعيدًا عن المحسوس، ومن هنا يبرز المؤلف مفاهيم تقترب بها معنا فى بعض أجزاء الكتاب من الصوفية.

كما نرى فى بعض أجزاء الكتاب نقدًا للديانة البوذية وأساليب ممارستها من جانب أتباعها من اليابانيين، وهو أمر ليس بالغريب على كل من يتحول من دين إلى دين آخر بشكل عام، وذلك حيث إنه ما كان ليترك دينه الأصلى فى المقام الأول إلا لو كان ليس مجرد مقتنع بالدين الجديد وإنما لديه من الاعتراضات والتحفظات على دينه الأصلى ما يحمله على تركه، وهو قرار عادة ما يكون شديد الصعوبة لدى معظم البشر.

ونرى فى الكتاب تعظيمًا للذاتى على الموضوعى، وهو ما يتسق مع الملاحظتين السابقتين، كما أنه يقف فى نفس مربع الفكرة الأساسية فى التفسير الغالب للعقائد الدينية بشكل عام، ألا وهى غلبة مفهوم المسئولية الفردية والمساءلة والمحاسبة للفرد فى إطار الإيمان وما يترتب عليه.

وفى الكتاب طرح إيجابى يتعلق بأهمية إدراك أن الدعوة لأى دين - أو حتى عقيدة دينية - يجب أن تراعى خصوصية المكان والزمان الذى تتم الدعوة فى إطاره وما يتصل بذلك من سياق تاريخى وتطور ثقافى واجتماعى، بل ما قد يرتبط بذلك من أوضاع اقتصادية وسياسية، بحيث يكون على الدعوة التكيف مع هذا الواقع حتى تحقق نجاحها وانتشارها والتأقلم مع المعطيات المتوافرة فى البيئة المحيطة، وموازنة ذلك مع ضرورات الاحتفاظ بالحد الأدنى من القيم الخاصة بهذه العقيدة والتى تحفظ لها هويتها وتماسك منظومتها. ■

الهوامش

١ - (الدورية السنوية للأديان) صادر من مصلحة الثقافة بوزارة التعليم اليابانية عام ٢٠٠٤، صفحة ٣٠ - ٣١.

٢ - مقال بعنوان «الإسلام فى اليابان» مجلة «نيوزويك الطبعة اليابانية» ٢٥ فبراير عام ٢٠٠٤ (من صفحة ١٦ إلى ٢٣)، كتاب (مجتمع المسلمين فى اليابان) للكاتبة «ساكوراى كيكو» عام ٢٠٠٣ (تشيكوما شوبو للنشر).

٣ - (اليابانى فى مكة) دارة الملك عبد العزيز، الرياض عام ١٩٩٩.

٤ - كتاب (يوم الإسلام) دار النهضة، القاهرة فى ١٩٥٢، صفحة ١٣٨. يستخدم الكاتب لفظ «الوثنية» الذى يعنى «دون عقيدة» وكذلك تحمل معنى «أصحاب الديانات الأخرى (غير السماوية)».

٥ - (الحضارة الإسلامية) جيب هاميلتون، كينوكونيا ١٩٦٧، صفحة ١١٨.



هيمنة عولمية واشتباك حضارات ومازالت اليابان يابانية!

فكرى أندراوس

كيف تعلمت اليابان من الغرب؟ وكيف اختلفت فى طريقها للتقدم الحديث عن الغرب؟ لم يكن انفتاح اليابان «سداح مداح وكل شىء مباح» كما قال أحمد بهاء الدين - رحمه الله - فى وصف الانفتاح المصرى

■ اليابان بلد دمرها طموح حكومتها الاستعمارى فى منتصف القرن الماضى. قتل خلال تلك المغامرة اليابانية حوالى ثلاثة ملايين يابانى ما بين مدنيين وعسكريين وانتهت بالتدمير التام وبقنبلتى هيروشيما وناجازاكى سنة ١٩٤٥ . استسلمت اليابان للحكم العسكرى الأمريكى الذى استمر حتى سنة ١٩٥٢ وما زالت هناك قاعدة عسكرية أمريكية كبيرة فى أوكاناوا. كيف نهضت اليابان بعد هذا الدمار الشامل فى فترة وجيزة لتصبح ثالث قوة اقتصادية فى العالم؟ إنها الآن ثانى قوة اقتصادية فى العالم.

بدأ الصراع اليابانى مع الغرب فى القرن التاسع عشر كما حدث فى مصر. كان الصراع فى أساسه صراعاً حضارياً (وهنا لا أقصد صراع الحضارات من وجهة نظر صمويل هنتنجتون، بل أقصد الصراع بين دولة متقدمة تكنولوجيا وأخرى غير متقدمة أو ليست على نفس المستوى. فمثلا الصراع بين العرب وإسرائيل هو صراع حضارى فى أساسه كما ذكر المستشار محمد سعيد العشماوى، دار المعارف سنة ١٩٩٧). استوعبت اليابان حقيقة ذلك الصراع، تعلمت منه وتخطته دون أن تفقد ثقافتها المميزة ومازلنا نتعثر.

كانت مصر فى عهد محمد على أول دولة غير أوروبية تسعى للتحديث. لقد سبقت مصر اليابان فى محاولة التحديث بقرابة نصف قرن. كانت مصر فى قلب العالم وذات موقع متميز ومحل أطماع عديدة، بينما كانت اليابان على أطراف العالم ولم تكن فى أهمية مصر. ولكننا أيضا لم نستوعب الصراع الحضارى كما استوعبته اليابان. إننا نستوعب فقط قشور الحضارة الغربية دون التعمق فى أسبابها الحقيقية وهى الديمقراطية، احترام الإنسان، التعليم الجيد المبنى على تنمية القدرة على التفكير بدلاً من التلقين، وأيضا الفصل بين سياسة الدولة والدين أو بالأحرى سلطة بعض رجال الدين وتفسيرهم المحدود للدين. إننا متيمون بالغرب... نحب منتجاته ونعجب به، ولكن فى نفس الوقت نكرهه لأنه يذكرنا بضعفنا ونقف أمامه عاجزين رغم ما لدينا من تاريخ عريق ومن قوة ضعفت وتوارت وإن كانت مازالت كامنة.

فى هذا المقال سأستعرض تاريخ اليابان منذ بداية صراعها الحضارى مع الغرب، بل ومع أمريكا على الأخص. كانت هناك مرحلتان بارزتان لذلك الصراع، الأولى كانت فى منتصف القرن التاسع عشر والتى انتهت بانتهاء نظام الإقطاع اليابانى وبداية التحديث. والثانية كانت خلال الحرب العالمية الثانية والتى بدأتها اليابان كدولة استعمارية على نطاق الغرب، بل ونافسته وتوسعت أكثر من إمكانياتها، مما أدى إلى هزيمتها هزيمة ساحقة خلال الحرب العالمية الثانية.

كيف تعلمت اليابان من الغرب؟ وكيف اختلفت فى طريقها للتقدم الحديث عن الغرب؟ لم يكن انفتاح اليابان «سداح مداح وكل شىء مباح» كما قال أحمد بهاء الدين - رحمه الله - فى وصف الانفتاح المصرى. لقد رفضت اليابان الكثير من نظم أمريكا الاقتصادية ، تلك النظم التى تفرضها أمريكا على كل الدول التابعة - ومنطقتنا من ضمنها. إن النظام الرأسمالى اليابانى يعطينا نموذجاً أفضل من نظيره الغربى. فبالإضافة إلى النجاح الاقتصادى فاليابان كانت شديدة الحرص على ثقافتها، ولو لم تكن اليابان قد حافظت على ثقافتها لكانت قد وقعت فى هاوية التبعية الحضارية والاقتصادية وسأتحدث عن ذلك.

إن اليابان بلد جميل، وأهله لهم طابع متميز فى الجمال وتذوقه. ولكن مع هذا الإحساس بالجمال والقدرة على تذوقه، فاليابان يبدو للبعض أنه بلد به قدر كبير من العنف، يخشاه جيرانه ولا يثقون به كثيراً. هل حقيقة أن اليابان به قدر كبير من العنف؟ سأتعرض لبعض تلك الأسباب فى هذا المقال.

إن خصوصية اليابان بل خصوصية اى دولة قد لا تجعل خبرتها أو ثقافتها صالحة للنقل والاستعارة. ولكن وراء اليابان درساً لو استوعبناه قد يفيدنا فى تحديد بعض مفاهيمنا الاقتصادية والثقافية. هناك دول كثيرة تدرس النموذج اليابانى وتتعلم منه. إن بعض كتابات الأفغانى بها إشارة لليابان بوصفها نموذجاً للنهضة الشرقية. لقد ترجم د. نصر أبو زيد كتاب عن الساموراى وهم فرسان ونبلاء اليابان (البوشيدو، دار سعاد الصباح سنة ١٩٩٣) . اشتمل هذا الكتاب على مقدمة طويلة (٥٩ صفحة) وعميقة وشيقة، قارن فيها د. أبو زيد بين ثقافتنا وثقافة اليابان وكيف يمكننا أن نستفيد من تجربة اليابان التى حققت تقدمها مع احتفاظها بجذورها الثقافية.

كان النظام السائد فى اليابان حتى أواخر القرن السادس عشر نظاماً يحكمه عدد كبير من الإقطاعيين، كان هناك أكثر

رغم اتصالها المحدود بكل من الصين وكوريا والهند، فإنها كانت دولة تكاد تكون مغلقة على ذاتها.
فى أواخر القرن السادس عشر ابتدأ بعض المبشرين الكاثوليك
من إسبانيا والبرتغال يغزون اليابان كمرافقين للتجار

من مائة مقاطعة وكانت الحروب دائمة بين المقاطعات، القوى يلتهم الضعيف. كانت اليابان ممزقة وكان الفلاحون دائمى الثورة لتحملهم تكاليف تلك الحروب. كل إقطاعى كان تحت سيطرته بعض من المحاربين الأشداء يسمى ساموراى (نفس الكلمة مفرد وجمع). كان الساموراى يتعلم فنون الحرب منذ الصغر ولا ينام إلا وسيفه بجواره ولا يخرج من بيته إلا وسيفه معه. كانوا على درجة عالية من الشجاعة والجراة والحزم والتحكم فى أجسامهم ومصائرهم، أعطاهم كل ذلك قوة ذاتية كبيرة. كان الساموراى يدين بالولاء التام لرؤسائه، ولو طلب منه رئيسه، بل لو حتى شعر أنه خذل رئيسه لانتحر دون أى تردد وكانت لذلك طقوس معينة وتسمى هاراكيرى (Harakiri) كانت حياتهم وموتهم بشرف.

فى بداية القرن السابع عشر سيطر على اليابان أحد الإقطاعيين ويسمى لياسو توكوجاوا (Leyasu Tokugawa). وإن كان لياسو قد سيطر على اليابان بذكائه وبقوته العسكرية، إلا أن حفيده ليميتسو (Lemituse) يعود له الفضل فى استقرار اليابان وأصبح الحاكم الفعلى وإن سمى الحاكم العسكرى والذى يسمى فى اليابانية شوجان (Shogun) أضعف ليميتسو توكوجاوا باقى حكام المقاطعات وأصبح نفوذهم لا يتعدى مقاطعاتهم وإن كانوا أغلب الوقت فى العاصمة تحت نظر ومراقبة الشوجان وأعوانه. ضعفت طائفة السامراى واستخدم بعضهم كموظفين فى الحكومة واتجه بعض المقتدرين منهم لدراسة الأدب وكتابة الشعر والاهتمام بالفن. استمر حكم عائلة توكوجاوا حتى منتصف القرن التاسع عشر.

اليابان رغم اتصالها المحدود بكل من الصين وكوريا والهند، إلا أنها كانت دولة تكاد تكون مغلقة على ذاتها. فى أواخرالقرن السادس عشر ابتدأ بعض المبشرين الكاثوليك من إسبانيا والبرتغال يغزون اليابان كمرافقين للتجار، وكانوا بجوار الإنجيل يحملون معهم البنادق. كانت هذه أول مرة يرى اليابانيون البنادق وقد أعجبوا بها. كان هذا أول احتكاك يابانى بالغرب. استبدل بعض الإقطاعيين البنادق باعتناقهم المسيحية هم وأتباعهم، ولو شكلا. تغلغل المبشرون فى اليابان وفى القرن السابع عشر تحول حوالى ٣٠٠٠٠٠ يابانى للمسيحية الكاثوليكية. لكن ذلك لم يستمر طويلا حيث إن الشوجان لم يثقوا فى المبشرين لما سببوه من متاعب وقلقلة للنظام. بعد أن استقر الأمر لعائلة توكوجاوا طرد المبشرون والأجانب وعوقب المسيحيون وقتل الكثيرون ممن رفضوا إنكار مسيحيتهم أو التحول عنها.

كان اليابانيون يرون الغربيين وكأنهم همج، فملابسهم كانت غريبة وغير أنيقة، طباعهم غير مهذبة، لا يستحمون إلا نادرا، ويستخدمون أياديهم فى طعامهم. وكان اليابانيون على عكس ذلك تماما. أصبح وجود الأوروبيين مقصورا على التجارة ومحصورا فى جزيرة صغيرة بجوار ناجازاكى يربطها بالأرض جسر عليه حرس.

ابتدات الثورة الصناعية فى الغرب تؤتى ثمارها فازدادت قوة تلك الدول وازدادت شراهتها فى الثراء على حساب الدول الأخرى. ازدادت المستعمرات والاستغلال الأوروبى لفتح الأسواق ولاستيراد المواد الخام. كان مصدر الطاقة فى ذلك الزمان هو الفحم واستخدام زيت الحوت لتشحيم الآلات. استنفدت امريكا حيتان المحيط الأطلنطى واتجهت للمحيط الهادى بعد استيلائها على ولاية كاليفورنيا من المكسيك عام ١٨٤٨. زادت شراهة الاستعمار الأمريكى والذى أصبح ينافس الاستعمار الإنجليزى.

فى عام ١٨٥٣ ذهبت أربع بواخر حربية أمريكية بقيادة ماثيو بيرى إلى اليابان وطالبت بفتح اليابان للتجارة، وإلا فعلى اليابان أن تتحمل العواقب. كانت البواخر الحربية الأمريكية لا قبل لليابانيين بمواجهتها. كان طلب الأمريكان هو الفحم لتمويل المراكب وحق التجارة واستخدام الموانئ. كان ذلك بداية الصراع الحضارى مع أمريكا أو الحضارة الغربية عامة. لم يكن أمام اليابانيين سوى الموافقة على مطالب الأمريكان وامتدت تلك الموافقة لتشمل دولا أوروبية أخرى والتى عرفت باتفاقية إدو (Edo) سيطر الغرب على موانئ اليابان وحددت الضرائب على الوارد والصادر بالإضافة إلى استخدام القضاء المختلط كما حدث فى مستعمرات أخرى.

كانت السنوات التالية فى اليابان مليئة بالاضطرابات الاقتصادية والسياسية وشملت المظاهرات العديد من البلاد. كان هناك شعور بالذل وكراهية للأجانب الغربيين. كانت نتيجة تلك التطورات السريعة التى لم يستطع الحاكم العسكرى الصمود أمامها، أن انهارت دولة التوكوجاوا واضمحلت قوة الساموراى أمام الأسلحة الغربية الحديثة. تحت تأثير مجموعة صغيرة من المتمردين من مثقفى الساموراى تنازلت عائلة توكوجاوا عن منصب الشوجان وأعادت القوة للإمبراطور ميجى سنة ١٨٦٧ أى بعد ١٤ سنة من دخول البواخر الأمريكية مياه اليابان وبداية الصراع الحضارى مع الغرب.

كان إمبراطور اليابان حتى ذلك الوقت مجرد رمز وكانت مهمته رئاسة الاحتفالات الدينية كالكاهن الأكبر. ديانة اليابان الرئيسية هى «الشنتو» وهى عبارة عن عبادة لقوى الطبيعة فى صورها المختلفة. وقد امتزجت ديانة الشنتو بالبوذية وكذلك الكونفوشيوسية الواردتان إليها من الهند والصين. أهم الهة الشنتو الإله الشمس والتى تعتبرها الأساطير اليابانية الأم الأولى لإمبراطور اليابان منذ القرن السابع قبل الميلاد وحتى الآن. ولذلك فهناك تقديس لشخص الإمبراطور. إن الدين فى الصين واليابان وبعض دول جنوب شرق آسيا هو طريقة وفلسفة حياة مع اختلاطها ببعض تعاليم الأسلاف. الدين فى اليابان ليس دينا شعائريا أو دين الحدود والمحرمات والمحللات كما فى أديان التوحيد. بل لا توجد كلمة واحدة يمكن ترجمتها إلى كلمة الدين كما نفهمه.

كانت ثورة المتمردين الذين وضعوا الإمبراطور ميجى على رأس الدولة، ثورة من داخل النظام وكانت تتحسس طريقها. أقنع الحكام الجدد بعض الإقطاعيين بالتنازل عن أراضيهم للإمبراطور مع إعطائهم وظائف مهمة حتى لا يعملوا ضد النظام. وشجعوا هؤلاء الحكام الجدد أن يمنحوا الوظائف المهمة لموظفين أكفاء بصرف النظر عن مكانتهم فى المجتمع. أصبحت البيروقراطية اليابانية متميزة فى الأداء والعلم وحتى الآن. اكتسبت الحكومة تأييدا شعبيا كبيرا. شكلت حكومة على النظم الأوروبية يرأسها رئيس وزراء سنة ١٨٨٥. ثم كان دستور سنة ١٨٨٩ يشابه فى بعض مواده دساتير الغرب وإن كان قد اعتبر هبة من الإمبراطور. لم يشترك فى الانتخابات سوى قلة قليلة وهى التى كانت تدفع الضرائب. لم يكن تحديث اليابان بالأمر الهين. فقد كان هناك صراع بين أنصار العزلة الذين رفضوا كل ما هو غربى وأنصار التحديث انتصر فيها الأخيرون وحققوا تقدم اليابان فى فترة وجيزة.

اهتمت اليابان بالتعليم وأرسلت البعثات للخارج وأحضرت الخبراء من حوالى ٢٠ دولة حتى لا تقع تحت تأثير أحدها. يعتقد البعض أن اليابانيين اهتموا بدراسة محاولة تحديث مصر خلال عصر محمد على وعصر إسماعيل، حيث إن مصر سبقت محاولة اليابان بسنين عديدة. وقد توقفت البعثة اليابانية بمصر قبل ذهابها لفرنسا عام ١٨٦٢. لم تكن التجربة المصرية بعيدة عن أذهان المفكرين اليابانيين. لم تشجع اليابان الاستثمار الأجنبى لأنه غالبا ما يكون مصحوبا بنفوذ أجنبى وهو ما تجنبه أيضا محمد على.

بدأت الحكومة اليابانية بعض الصناعات والمشاريع العامة. بعضها لم يحالفه النجاح. ولكن كانت نتيجة هذا القطاع العام أنه أوجد فئة من الفنيين والإداريين لم تكن موجودة من قبل على نطاق يسمح بتقدم سريع. شجع وجود هذه الفئة فيما بعد القطاع الخاص الذى بدأ ينمو ويترعرع فى رعاية الدولة ويخضع لقوانينها وسيطرتها خلاف ما يحدث فى الغرب. بدأت الدولة فى أواخر القرن التاسع عشر تمول بعض الصناعات الثقيلة مثل صناعة الحديد والبواخر وبعض الصناعات الأخرى المهمة والتى كانت أساسا لتقدمها. تركت للقطاع الخاص حرية العمل ولكن فى إطار ما تراه الدولة صالحا لخططها. ولم تقع أسيرة بعض رجال الأعمال المستغلين.

كان الاقتصاد اليابانى سعيد الحظ خلال فترة الحرب العالمية الأولى حين عرقلت الحرب اتصال أوروبا بآسيا ووجهت الاقتصاد الأوروبى للحرب. فى تلك الفترة زادت صادرات اليابان الصناعية حوالى خمسة أضعاف. بدأت عجلة التقدم تسير وبسرعة وأصبح لليابان جيش قوى ومنضبط ومتأثر بثقافة الساموراى: النصر أو الموت. تحسن الاقتصاد كثيرا واحتاجت اليابان لفتح الأسواق ولاستيراد المواد الخام، حيث إنها فقيرة فى مواردها الطبيعية وإن كانت غنية فى مواردها البشرية. إضافة إلى كفاءة وأمانة واجتهاد الإنسان اليابانى.

بدأ النفوذ الاقتصادى ☛



اليابانى يزداد فى كوريا والصين. استولت اليابان على بعض الجزر القريبة ثم على فورموزا (تايوان) سنة ١٨٩٥ . انضمت اليابان لنادى المستعمرين الغربيين، طالبت باحتلال الفيلبين، إلا أن الأمريكيين رفضوا ذلك، وأقنعوها باحتلال كوريا وقد تم ذلك سنة ١٩١٠. اما الفيلبين فكانت من نصيب الأمريكيين. حين اصطدمت مصالح اليابان وروسيا فى منشوريا دمرت اليابان الأسطول الروسى فى بورت ارثر سنة ١٩٠٤ . ثم احتلت اليابان منشوريا. كانت اليابان حليفة مع الغرب ضد ألمانيا فى الحرب الأولى وقد كوفئت على ذلك فى مؤتمر فرساى بمنحها مستعمرات ألمانيا فى جنوب شرق آسيا.

بدأ النفوذ اليابانى يزداد فى كل من كوريا والصين. ما بين ١٩٢٠ - ١٩٣٠ قرر القادة اليابانيون التوسع فى السياسة الاستعمارية تحت حجة دواعى الأمن وحماية المصالح، ونحوا الديمقراطية جانبا حتى فى نطاقها الضيق. استوردت اليابان العمالة من كوريا فيما يشبه السخرة ومازالت لليوم بقايا جاليات كورية فى اليابان. ازدادت شراهة اليابان وقامت بغزو الصين سنة ١٩٣٧ واحتلت أجزاء كبيرة منها ومن ضمنها بكين العاصمة السياسية وشانجهاى العاصمة الاقتصادية، وكذلك شمال الصين حيث مناجم الفحم والحديد. كانت الصين فى ذلك الوقت تخوض حربا أهلية بين الشيوعيين بقيادة ماوتسى تونج وحكومة كومنتانج (Kuomintang) بقيادة شاى كاى شيك.

باحتلال الصين ابتدأت اليابان تقلص النفوذ الأمريكى والغربى فى جنوب شرق آسيا. كانت الدول الأوروبية مشغولة بما يحدث فى أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية وخاصة الأطماع الألمانية والإيطالية المنافسة لإنجلترا وفرنسا. قررت الحكومة الأمريكية أن تفرض حصارا دوليا لمنع وصول البترول لليابان، وقررت أيضا مد الصين بالأسلحة لمقاومة اليابانيين. بدون البترول لن تستطيع اليابان الاحتفاظ بقوتها العسكرية أو الاقتصادية. لم يكن لدى اليابان لرفع الحصار إلا أن تنسحب من الصين كما طلب الأمريكيون أو أن تهاجم المستعمرات الغربية فى جنوب شرق آسيا للحصول على البترول وعلى أمل أن تجرى مفاوضاتها من مركز قوى. سارت اليابان فى الطريقين معا. أجرت اليابان محادثات لانسحاب جزئى من الصين.

وفى نفس الوقت جهزت خططا عسكرية جريئة للغاية لفرض سيطرتها التامة على أغلب جنوب شرق آسيا. لم تنجح المفاوضات مع أمريكا. وفى ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ وجهت اليابان ضربة مفاجئة وقاتلة للأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى فى بيرل هاربر فى جزر هاواى قتل فيها أكثر من ٣٠٠٠ أمريكى. دخلت اليابان الحرب فى جانب دول المحور. بعد شهور قليلة استولت اليابان على الفلبين وانسحب الأمريكان منها ونقل جنرال ماكارثر القائد الأمريكى مقر قيادته لأستراليا. استولت اليابان أيضا على إندونيسيا، ماليزيا، وسنجابور وانسحبت الدول الأوروبية من أغلب مستعمراتها. كان نصرا سريعا ومذهلا ولكنه لم يدم طويلا ولم يكن ذلك ممكنا.

كان جنوب شرق آسيا بأكمله قبل الغزو اليابانى تحت النفوذ أو الاستعمار الغربى. وقد استغلت اليابان ذلك ورفعت شعار «آسيا للآسيويين»، ولكنها استبدلت بالاستعمار الغربى استعمارا يابانيا كان بشعا أحيانا. بالإضافة إلى السخرة واستخدام نساء المستعمرات - خصوصا من كوريا - للترفيه الجنسى عن العسكر، كان القتل بلا هوادة ولا رحمة حتى إن لم يقتض الأمر ذلك. يقدر الصينيون أن اليابانيين قتلوا فى مدينة نانجنج (Nanjing) وحدها فى عام ١٩٣٧ حوالى ثلاثمائة ألف صينى وإن كان تقدير اليابانيين ألفين فقط. ولكنه كان حمام دم بأى المقاييس. حاليا يجتمع ٢٠ مؤرخا من كل من الصين واليابان لكتابة تاريخ تلك الفترة وسوف يصدر تقريرهم فى يوليو القادم. كان هناك أيضا ٣٦٠٠٠ معتقل إنجليزى وأمريكى ماتوا فى الأسر اليابانى (حسب المصادر الغربية).

كان الاستعمار اليابانى استعمارا عنيفا شأنه شأن أغلب الاستعمارات، قد يكون أكثر قليلاً ليس إلا. من المسئول عن عنف الاستعمار اليابانى؟ هل الشعب اليابانى أم الحكومة الدكتاتورية التى سيطرت على أمور اليابان فى غياب الديمقراطية؟ لقد كان التدريس العسكرى مادة إجبارية فى مناهج الدراسة اليابانية وكان مصحوبا بتمويل معنوى هائل للحرب. إن الشعوب تقع ضحية سياسة ونزوات الحكومات السيئة خصوصا فى غياب الديمقراطية والتعليم المستنير. بعد الهزيمة كان هناك حوار واسع حول الهزيمة وأسبابها ولكن اليابان لم تتعامل بالقدر الكافى من المسئولية إزاء ما سببته من بلاء للدول التى احتلتها. كانت اليابان من ناحية مشغولة بمشاكلها بعد الحرب وكانت حقا مشاكل عويصة فحاولت أن تنسى أو تتناسى ما سببته للغير. ومن ناحية أخرى لو اعترفت اليابان بما سببته من بلاء فربما يقاضيها الآخرون بطلب تعويضات هائلة (هذا لم يحدث إلا فى حالة يهود ألمانيا خلال حكم النازى حتى بعد مرور أكثر من نصف قرن على المحرقة). إن الاعتراف بأخطاء الماضى أمر قد يثير الآلام ويحتاج لشجاعة أخلاقية غالبا ما تكون مفقودة لدى القادة السياسيين.

إنك الآن لو زرت اليابان أو تعرفت على شعبها فلن تجد أى أثر للعنف، بل العكس تماما، شعب فى غاية الرقى والجدية والدقة والأمانة فى العمل والإنتاج والقدرة على تذوق جمال يندر أن تراه فى أى مكان آخر فى العالم؛ سواء فى الفن المعمارى، أو الأدب، أو المسرح والسينما، أو الرسم والنحت وصناعة الفخار، فى الحدائق الرائعة، فى تصميم الأزياء، فى الفنون الرياضية، أو حتى فى الطعام الصحى وطريقة تقديمه. إن يابان اليوم الناجحة تحظى بكثير من الاحترام والتقدير وإن كان مازال عالقاً بها بعض ذكريات الحرب.

خلال الحرب العالمية الثانية، كان من المستحيل أن يستمر الاستعمار الألمانى أو اليابانى لمدة طويلة. فى ٧ مايو سنة ١٩٤٥ استسلمت ألمانيا لقوات الحلفاء. أما فى اليابان ففى يومى ٦و٩ أغسطس من نفس العام ألقت أمريكا بقنبلتيها الذريتين على هيروشيما وناجازاكى على التوالى. حاولت العسكرية اليابانية الاستمرار فى الحرب إلا أن ذلك أصبح مستحيلا. حاول الإمبراطور الاستسلام على شرط الاحتفاظ بالكيان الإمبراطورى، إلا أن الأمريكيين رفضوا ذلك وقرروا أن يترك هذا الأمر للحلفاء وللشعب اليابانى ليقرروه. فى ١٤ أغسطس أعلنت اليابان الاستسلام غير المشروط، وفى ٢ سبتمبر على متن البارجة الأمريكية ميسورى فى خليج طوكيو وقعت وثيقة الاستسلام غير المشروط.

هناك سؤال ما زال محل نقاش بل وأسف الكثيرين: هل كانت القنابل الذرية ضد اليابان ضرورية وخصوصا القنبلة الثانية؟ هل كان من الممكن استخدام قنبلة ذرية فى ألمانيا؟ لقد قرر روزفلت وتشرشل عام ١٩٤٤ . كانت الحرب على وشك الانتهاء . أن تستمر أبحاث القنابل الذرية وأن تجرب فى اليابان. لم تعلن أمريكا عن وجود قنابل ذرية ولم تعلن أنها قد تستخدم القنبلة الثانية إن لم تستسلم اليابان. لقد أرادت أمريكا أن تجرب أسلحة الدمار الشامل «وما زالت» وأن ترسل رسالة قوية للاتحاد السوفيتى فى بداية الحرب الباردة بين المعسكرين. ولكن لماذا تجرب القنابل الذرية فى اليابان؟ لقد كانت ومازالت العنصرية تتحكم فى الجنس البشرى، لقد وضعت أمريكا كثيراً من اليابانيين الأمريكيين خلال الحرب فى معسكرات لتجنب عدم انحيازهم لليابان، ولم يحدث مثل ذلك مع الألمان الأمريكيين. هناك جذور أمريكية لكراهية ولسوء معاملة الصينيين واليابانيين أو من اعتبروهم «جنساً أصفر». عام ١٩٢٢ منعت المحكمة الدستورية العليا منح الجنسية الأمريكية للجنس الأصفر، وأيضا لم يسمح لهم بملكية الأرض أو بتأجيرها لمدة طويلة، بل ومنع دخولهم إلى أمريكا.

كان اليابانيون يرون الغربيين وكأنهم همج، فملابسهم كانت غريبة وغير أنيقة، طباعهم غير مهذبة، لا يستحمون إلا نادراً، ويستخدمون أياديهم فى طعامهم، وكان اليابانيون على عكس ذلك تماماً



لقد أثار كل ذلك غضب قادة اليابان فى ذلك الوقت. بعد الحرب العالمية الثانية تغيرت تلك الأوضاع. اعتذرت أمريكا عن ذلك التصرف العنصرى خلال حكومة كلينتون، بعد حوالى نصف قرن من الزمان.

لم تدمر أمريكا الإدارة اليابانية وإن كانت قد حاكمت مجرمى الحرب والمسئولين عنها فى محكمة دولية شكلت فى أكتوبر ١٩٤٥، اشترك فى تلك المحكمة ٢٧٧ محامياً وباحثاً من الحلفاء و٢٣٢ من اليابان. حوكم فقط ٢٥، من ضمنهم رئيس الوزراء توجو هايديكى. استغرقت تلك المحاكمات ٨١٨ جلسة خلال مدة تقرب من الخمس سنوات. صدر الحكم بالإعدام على سبعة أشخاص فقط وسجن ١٨ آخرون لمدد مختلفة ووجهت لهم جميعا تهم بارتكاب جرائم ضد السلام. (قارن بين تلك المحاكمات ومهزلة محاكمة صدام حسين). لم يحاكم الإمبراطور هيروهوتو رغم أنه كان شريكاً فى اتخاذ القرارات المهمة. قرر الجنرال ماكارثر المحافظة عليه حرصاً على الكيان اليابانى، وإن كان قد قرر خلال مناقشات الدستور ألا يكون للامبراطور قوة اتخاذ القرارات، بل أن يصبح مجرد رمز.

حتى قبل نهاية الحرب العالمية كانت الحرب الباردة بين روسيا والغرب قد بدأت. كان لليابان موقع استراتيجى لقربها من روسيا وكذلك الصين - التى كانت فى طريقها للشيوعية. لذلك كانت الإدارة الأمريكية العسكرية جادة فى مساعدة وتحديث اليابان، وكان لدى قوات الاحتلال خبراء متخصصون فى الاقتصاد والقانون والإصلاح السياسى والدستور والحقوق المدنية والتعليم وشئون العمال. كان بعض هؤلاء من أساتذة الجامعات المتخصصين فى شئون اليابان. هكذا كانت الحكومة العسكرية الأمريكية مؤهلة للنجاح فى مهمتها وفى أن تصبح اليابان حليفة فى الحرب الباردة. لقد أدار جنرال ماكارثر الحكومة العسكرية بكفاءة يشهد بها اليابانيون أنفسهم (مرة أخرى قارن بين ذلك وما حدث فى العراق - كان لدى الأمريكان خبراء وأكاديميون فى شئون العراق، ولكن يبدو أن الحكومة الأمريكية كانت إما فى منتهى الجهل للاستفادة بخبراتهم، أو أن النية كانت مبيتة لتدمير العراق!!).

كان من أهم الإصلاحات الدستور الجديد، والذى كان فى الواقع صياغة أمريكية عليها غشاء يابانى، حتى إن البعض أطلق عليه «دستور ماكارثر». كان دستورا ليبرالياً أوروبياً يكفل الحقوق المدنية والسياسية وحرية الإعلام ويفصل ما بين الدين والدولة. الحقيقة أن الدين فى اليابان عبارة عن مجموعة من القواعد للسلوك الأخلاقى: المدارس اليابانية يمنع فيها تدريس الديانات وتنص المادة العشرون من الدستور أنه لا ينبغى أن تحصل أى هيئة دينية على امتيازات أو مساعدات مادية من الدولة كما هو الحال فى دساتير الغرب. اليابان دولة علمانية متدينة ومتعددة الأديان. المواليد الجدد يحتفل بهم فى معابد الشنتو، بينما الوفاة والذكرى السنوية تتم فى المعابد البوذية. هناك الآن حوالى ٤٠٠ دين مسجل رسمياً فى وزارة التعليم وإن كان أغلبها مشتقاً من ديانة الشنتو ومن البوذية.

هناك عاملان آخران مهمان فى دستور اليابان بالإضافة لعامل الدين، الأول هو زوال سلطة الإمبراطور مع بقائه كرمز، والثانى (المادة التاسعة فى الدستور) أن تظل اليابان منزوعة السلاح - وإن كان ذلك قد عدل ليسمح بإنشاء قوات أمن للدفاع فقط. بعد استقلال اليابان عام ١٩٥١ ضمنت الأمم المتحدة حدود اليابان فى معاهدة السلام فى سان فرانسسكو. لقد حاولت أمريكا فيما بعد أن تحث اليابان لإنشاء جيش قوى لمساندتها فى حرب كوريا والآن فى حرب العراق إلا أن المعارضة اليابانية كانت - ولا تزال رافضة. تساهم اليابان ببعض قواتها المسلحة ليس فى الحرب ولكن فى نطاق الخدمات. اليابان بلد متعدد الأحزاب وإن كان أهمها الحزب الليبرالى الديمقراطى، الحزب الديمقراطى، حزب الأحرار، الحزب الشيوعى، الحزب الاشتراكى الديمقراطى، الحزب الأخضر، وأحزاب أخرى صغيرة وغالبا ما يحكم اليابان ائتلاف وزارى.

أنهت أمريكا احتلالها لليابان عام ١٩٥٢ مع بقاء قاعدة كبيرة فى اوكوناوا. بعد حوالى ٢٠ سنة فقط أصبحت اليابان ثالث قوة اقتصادية فى العالم بعد أمريكا وروسيا وأصبح حجم اقتصادها أكبر من اقتصاديات كل من إنجلترا، فرنسا وألمانيا. لم يكن معدل النمو الاقتصادى له مثيل من قبل، الأمر الذى دعا مجلة الإيكونوميست أن تصفه بالمعجزة. كيف حدث ذلك وكيف اختلفت رأسمالية اليابان عن رأسمالية الغرب؟ كانت جذور التقدم الصناعى فى اليابان هى الصناعات الثقيلة وصناعة الكيماويات والتى دمرتها الحرب ولكن بقيت الخبرة الفنية. نالت اليابان بعضاً من القروض وخصوصاً من أمريكا وكان الاقتصاد اليابانى سعيد الحظ بحرب كوريا التى بدأت خلال سنة ١٩٥٠ وحتى سنة ١٩٥٤ . دخلت أمريكا الحرب فى صف حكومة الجنوب. أصبحت الحرب الكورية سوقاً كبيرة للصناعة اليابانية ولتمويل القوات الأمريكية. ابتدأت الحياة تدب من جديد فى الاقتصاد اليابانى الذى ابتدأ يتحسن كثيراً. لقد كان انفجاراً اقتصادياً. أصبحت اليابان حليفاً اقتصادياً وفنياً لأمريكا فى حربها حيث إنها كانت على دراية جيدة بكوريا.

كان للحكومة اليابانية دور مهم فى توجية الصناعة دون إلزام أو فرض بل تفهم قادة الصناعة والمال موقف الحكومة وساندوها. لقد وفرت الدولة حمايتها للصناعات المحلية من المنافسة الخارجية، كانت الدولة توفر العملة الصعبة والإعفاءات الضريبية والقروض ذات الفائدة البسيطة طويلة المدى لصناعات تعتمد على التكنولوجيا الحديثة. بعض الشركات التى لم تستطع الحصول على قروض من الحكومة حصلت عليها من بنوك أجنبية ولم تعترض الحكومة. كانت رأسمالية تقودها الدولة التى تمثل الشعب بأجمعه ولا يقودها رجال المال والصناعة كما يحدث فى أمريكا. كان حجم الاقتصاد اليابانى سنة ١٩٥١ حوالى ٤٪ من الاقتصاد الأمريكى ولكنه أصبح ٤٠٪ سنة ١٩٨٠. أما الآن فحجم الاقتصاد اليابانى يعد ثانى اقتصاد فى العالم بعد الاقتصاد الأمريكى. استمر الاقتصاد اليابانى فى التقدم وأصبحت اليابان رائدة فى صناعات عديدة أهمها صناعة السيارات والإلكترونيات التى غزت العالم أجمع.

ما زالت هناك مشاكل بين اليابان وأمريكا فيما يتعلق بالقاعدة الأمريكية فى اوكوناوا والتى احتفظت بها أمريكا منذ احتلال اليابان سنة ١٩٤٥ وحتى الآن. اشترك العسكريون الأمريكان فى اوكاناوا فى ٢٠٢٤ حادثاً أو جريمة من ضمنها حوادث اغتصاب، الأمر الذى يسىء لكثير من اليابانيين ويذكرهم بالاحتلال (مرجع رقم ٤). أمريكا لها ٨٦٠ قاعدة وتسهيلات عسكرية فى أنحاء عديدة فى العالم (مرجع رقم ٤ ص ١٣٧ والمصدر من وزارة الدفاع الأمريكية). يدعونا هذا للتساؤل هل ستخرج أمريكا من العراق دون أن تترك وراءها قواعد عسكرية كبيرة لحماية مصالحها الاستعمارية؟

كان النجاح الاقتصادى اليابانى على مستوى شعبى وليس لقلة تتمتع بغنى فاحش - مصدر تساؤل الكثيرين.. ليس فقط عن سبب التقدم، بل أيضا عن اختلاف النظام اليابانى الرأسمالى عن نظيره الغربى وخصوصاً الأمريكى؟ قد يكون أحد أسباب هذا الخلاف هو الاختلاف الثقافى والدينى.

إن المسيحية الغربية فى أغلبها بروتستانتية ابتدأت فى القرن السادس عشر وتحض على العمل الجاد والإخلاص والأمانة وقد ساعد ذلك ومهد للثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر. أنتجت الثورة الصناعية جيلاً من الأغنياء لم ير العالم له مثيلاً من قبل. أحد تعاليم المسيحية يقول: «إن دخول غنى إلى

الدين فى اليابان ليس ديناً شعائرياً أو دين الحدود والمحرمات والمحللات كما فى أديان التوحيد، بل لا توجد كلمة واحدة يمكن ترجمتها إلى كلمة الدين كما نفهمه



الجنة أصعب من دخول جمل من ثقب الإبرة». كيف أفتت بعض المذاهب المسيحية أن يكون الإنسان متدينًا وتقيًا وفى نفس الوقت يتمتع بثراء قد يكون فاحشًا؟ ماكس فيبر (Max Weber) أصدر سنة ١٩٠٤ كتابًا عن الأخلاق البروتستانتية وروح الراسمالية. يتحدث هذا الكتاب عن مذهب مشتق من البروتستانتية يسمى الكالفينيزية (Calvenism) نسبة إلى كالفن الذى ظهر فى القرن السادس عشر. انتشر هذا المذهب فى بعض بلاد أوروبا ومنها لأمريكا. أحد تفسيرات هذا المذهب يدعى أن مصير الإنسان محدد منذ القدم. هذا المبدأ له جذور فى أوروبا المسيحية فى القرون الوسطى. بهذا المذهب يكون مصير الإنسان للخلاص محدداً حتى قبل أن يولد. وإذا كان الأمر كذلك فلا يوجد تناقض بين الثراء (الفاحش) وخلاص الإنسان أو دخول الجنة!! بل يعتقد البعض أن توفيق الإنسان وحتى النجاح المادى يدل على رضاء من عند الله. يعتقد البعض أن هذا المذهب والثورة الصناعية بالإضافة لجشع الإنسان قد هيأ الظروف لما نراه فى الغرب وخصوصًا فى أمريكا من ثراء يصعب تصديقه مع وجود الفقر جنبًا إلى جنب، وفى نفس الوقت قد يضفى على هؤلاء الأغنياء ورع وتقوى المسيحية التى تتناقض فى أساسها مع الأغنياء.

أما رأسمالية اليابان فهى رأسمالية متأثرة بالكونفوشيوسية المنسوبة إلى كونفوشيوس الذى عاش فى الصين فى القرن الخامس قبل الميلاد (وهو نفس وقت ظهور بوذا فى الهند وسقراط فى اليونان). انتقلت الكونفوشيوسية من الصين لكوريا، وفيتنام ثم لليابان فى القرن السادس. إن الكونفوشيوسية هى دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع تعتمد على الفضيلة والعمل والشهامة أو كما عرفها واضعها الأول هى «حب الإنسان». هذا الحب موجود فى الإنسان كبذرة. بالتعليم الرشيد الذى يبدأ فى المنزل من الممكن أن تنمى هذه الفضائل. الإنسان الذى يعيش بالفضيلة لا يعيش على حساب أو إيذاء الآخرين. لقد تطورت الكونفوشيوسية وأصبحت علمًا يدرس وامتزجت ببعض تعاليم بوذا السامية. لقد تأثر النظام الاقتصادى فى اليابان ببعض تعاليم الكونفوشيوسية وأهمها:

١- الإنسان الذى يعيش بالفضيلة لا يعيش على حساب الآخرين أو بإيذائهم.

٢- الطاعة المبنية على الحب والثقة، حيث إن الكونفوشيوسية تعتمد على الصفوة المستنيرة التى تعمل لصالح الجماعة. إن رأسمالية اليابان رأسمالية مهذبة تقودها الدولة لصالح الشعب، بل قد يغالى البعض فيقول: «إن اليابان هى دولة العائلة» . هذا يختلف أساسًا عن النظام الأمريكى الذى يتحكم فيه رجال المال والصناعة.

إن الإنسان اليابانى يعمل فى جهة عمل واحدة منذ بداية حياته العملية وحتى يتقاعد، له ولاء لجهة عمله وجهة العمل ولاؤها للعاملين ونادراً ما يغير العامل جهة عمله. من النادر أن يفصل أى عامل إلا فى ظروف غير مألوفة مثل السرقة أو الإهمال وهذا نادر الحدوث فى اليابان. بالإضافة إلى أن العمالة مضمونة ولمدى الحياة فإن علاقة العمال بالإدارة علاقة قوية ومتفاهمة ولا تتأثر كثيراً بتذبذب أسعار البورصة، فالعاملون بالشركة لهم وزن مهم فى قرارات الشركة إنهم رأس المال الحقيقى للشركة. النموذج اليابانى يؤدى إلى الاستقرار والرضا وكفاءة الإنتاج. أما فى أمريكا فلا يوجد أى وفاء بين العامل وجهة العمل ولا يوجد أمان لأى وظيفة، رئيس الشركة قد يفصل مئات بل ألوفًا من العاملين، بينما ينال هو مكافآت فلكية. هذا نموذج لا يؤدى إلى الاستقرار والإنتاج. فى أمريكا أيضًا من المفضل أن يغير الموظف الأمريكى مكان عمله عدة مرات حتى يتقدم فى مهنته ويزيد دخله. فمثلا اياكوكا الرئيس السابق لشركة السيارات (كرايزلر) عمل أيضا فى شركة (فورد) وفى شركة (جنرال موتورز) وجميعها شركات متنافسة. من وجهة النظر اليابانية إنسان مثل اياكوكا لا يجب أن يوثق به.

أما من حيث دخل رؤساء الشركات بالنسبة لدخل العاملين فهذا الفرق شاسع فى أمريكا أما فى اليابان فتلك الفروق متواضعة. شركة وول مارت (Wal-Mart) الأمريكية يحصل رئيسها على ٩٠٠ ضعف متوسط ما يحصل عليه العاملون بشركته. عائلة وول مارت تقدر إيراداتها بحوالى ٩٠ بليون دولار أو ما يحصل عليه ٤٠٪ من فقراء الأمريكيين، أى حوالى ١٢٠ مليون أمريكى (مرجع رقم ٥ ص ٢٢). متوسط دخل رؤساء ٥٠٠ شركة أمريكية حوالى ١٠ ملايين دولار سنويا (BusinessWeek ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٦). بينما متوسط دخل رؤساء ٥٩٩ شركة يابانية حوالى٢٥٠٠٠٠ دولار، (مرجع رقم ٦). أغنى ١٪ من اليابانيين يحصلون على ٦,٥٪ من الدخل اليابانى (مرجع رقم٧) ، بينما يحصل أغنى ١٪ من الأمريكان على حوالى ٣٥٪ من الدخل الأمريكى (مرجع رقم٨). وحتى إذا نظرنا إلى بعض الدول الغربية نجد أن ما يحصل عليه رؤساء الشركات الأمريكية هو تقريبا ضعف ما يحصل عليه الكنديون، ثلاثة أضعاف ما يحصل عليه البريطانيون، وأربعة أضعاف ما يحصل عليه الألمان. فى عام ١٩٧٠ كان متوسط نصيب رؤساء الشركات الأمريكية بالنسبة لمتوسط نصيب العاملين بالشركة هو ٢٥ ضعفًا، فى عام ١٩٨٠ أصبح ٤٢ ضعفًا. لقد قفز هذا الرقم الآن إلى ٣٧٥ ضعفًا. هذا بينما متوسط الدخل الحقيقى للمواطن الأمريكى كان يتناقص فى الثلاثين سنة الماضية.

ربما كان لفشل النظام الاشتراكى فى دول شرق أوروبا أن توحشت الرأسمالية الغربية وخصوصا الأمريكية وأصبح لها مشاكل كثيرة وتحتاج لإعادة تقييم. إن الإنتاجية الأمريكية تضعف بينما يزداد غنى قلة تسيطر على المال والسياسة والإعلام، أما الراسمالية اليابانية فمازالت مزدهرة رغم المصاعب التى تواجهها فى عالم سريع التغير وخصوصا على ضوء المنافسة الآتية من دول جنوب شرق آسيا وخصوصا من الصين والهند. من الواضح أن رسوخ التكوين الحضارى، الجذور الأخلاقية، الارتباط بفكرة الانتماء.. كلها عوامل ساهمت فى تفوق النموذج اليابانى على الغربى (أو على الأقل منافسته له).

هل سيؤثر النظام اليابانى على النظام الغربى أم أن النظام الغربى سوف يفسد النظام اليابانى؟ لا أعتقد أن الأخير سوف يحدث حتى وإن كانت الشركات اليابانية مرتبطة بالسوق العالمية وبالبورصة بل وحديثا أصبح رئيس شركة سونى اليابانية بريطانى الجنسية وهو هاوارد سترنجر. والسؤال الذى يهمنا هو أى نظام رأسمالى يسود منطقتنا العربية؟ أعتقد أن نظامنا أقرب بكثير للنظام الأمريكى!! ■

رأسمالية اليابان هى رأسمالية متأثرة بالكونفوشيوسية المنسوبة إلى كونفوشيوس الذى عاش فى الصين فى القرن الخامس قبل الميلاد (وهو نفس وقت ظهور بوذا فى الهند وسقراط فى اليونان)

المراجع

(1) Modern History of Japan from A Tokugawa Times to the Present, Andrew ٢٠٠٣ Gordon, Oxford University Press.

(2) The Allied Occupation of Japan, Takemae Eiji, Continum, New York , London, 2003.

(3) Embracing Defeat, John W. Dower, W.W. Norton & Company, The New Press, 1999.

(4) Nemesis, The last days of the American Republic, Chalmers Johnson, Metropolitan Books, Henry Holt and Company, New York, 2006.

(5) The New York Review of Books, volume LIV, November 19, 2007.

(6) CEO Compensation and Firm Performance in Japan, Tako Kato and Katsuyuki Kupo, Journal of Japanese and International Economics, Elsevier, 2006.

(7) The Evolution of Income Concentration in Japan, 1885-2002, Chiaki Moriguchi and Emmanuel, Review of Economics and Statistics, Harvard University Press, 2007.

(8) Who Rules America? Power, Politics, and Social Changes, G. William Domhoff, McGraw-Hill, 2005.

جهاد فاضل

احتضار الفكر العربى !!!

قال لى مستعرب فرنسى محب للعرب ومطلع اطلاعاً جيداً على ثقافتهم، ومشهور بدفاعه عنهم فى منابر بلاده الأكاديمية والإعلامية، إن العرب غائبون غياباً تاماً عن حركة الفكر العالمى، غير مؤثرين فيها، أو مضيفين إليها، أو حتى مطلعين عليها الاطلاع الكافى.

وأضاف ساخراً أو شبه ساخر: إذا كنتم تظنون أن ترجمة روايات نجيب محفوظ وسواه من الروائيين العرب إلى بعض اللغات الأجنبية أو ترجمة أشعار لأدونيس ومحمود درويش قد ضمن لأدبكم العالمية، فأنتم مخطئون.. فالعالمية لا تُضمن بمثل هذه الترجمات، وإنما بمساهمات جدية تدخل فى صلب الثقافة العالمية، وتتحول مع الوقت إلى إضافات حقيقية.

وقدم هذا المستعرب أمثلة عديدة على صحة ما يقول. قال لنأخذ الماركسية فى القرن العشرين وقد كانت لها جلبة واسعة عندكم لدرجة أن الشيوعيين استولوا على السلطة فى بلد عربى، وكادوا يستولون على السلطة فى سواه من بلادكم. فهل إذا اطلع المرء على تاريخ الفكر الماركسى فى القرن العشرين يلمح فكرة ماركسية ذات شأن لمفكر ماركسى عربى؟ لقد صدر ما لا يحصى من الكتب والنشرات الماركسية فى بلادكم على مدى أكثر من خمسين أو ستين عاماً، فهل بقى كتاب ماركسى عربى واحد أضاف شيئاً إلى الماركسية العالمية؟ وقبل كل شىء، هل يعثر المرء على ترجمة واحدة دقيقة «للبيان الشيوعى» نفسه؟ وهل تداول مثقف واحد فى العالم كتاباً أو نظرية ذُكر أنها لمفكر ماركسى عربى؟

وانتقل هذا المستعرب بعد ذلك إلى أنماط أخرى من الفكر ليؤكد لا على انعدام الأثر العربى فى الفكر العالمى، بل على ضحالة ما قدمه المفكرون العرب فى كتبهم التى كتبوها بالعربية. قال: إن المتفلسفة العرب الذين حاولوا تقديم فلسفات خاصة بهم، مثل عبدالرحمن بدوى فى كتابه «الزمان الوجودى»، وعثمان أمين فى كتابه «الجوانية»، ومحمد عزيز الحبابى فيما كتبه عن «الغدية» أو عن «الشخصانية»، وتوفيق الحكيم فى «التعادلية»، لم يقدموا سوى محاولات بائسة لم تصمد واحدة منها مع الزمن، ولم يتجاوز التداول بها سوق المكتبات العربية التقليدية. كما أن هذه المحاولات العربية للتفلسف كانت فى الواقع عالة على الفكر العالمى ومستندة إليه، أو مأخوذة منه أحياناً كثيرة أخذاً حرفياً أو شبه حرفى. «فالزمان الوجودى» عند عبدالرحمن بدوى، هو الزمان الوجودى للفيلسوف الألمانى هايدغر، مضافة إليه «أزمنة وجودية» أخرى لفلاسفة أوروبيين.. وللتدليل على عدم أصالة بدوى الفلسفية أنه ترك بعدما أنجز كتابه هذا (الذى كان عبارة عن أطروحته لنيل الدكتوراه من جامعة فؤاد الأول) كل تفلسف لينصرف إلى الأبحاث والدراسات، وما هكذا يكون الفلاسفة عادة. أما محاولات زملائه الآخرين، سواء فى «الغدية» أو «الشخصانية» و«الجوانية» و«التعادلية»، فما هى سوى أشتات غير مؤتلفات لا يشار إليها الآن إلا فى دراسة أكاديمية فى هذا البلد العربى أو ذاك، ولم تتسرب أبداً إلى السوق الثقافية العالمية.



وتساءل هذا المستعرب عما بقى من «الوجودية العربية» التى كان الدكتور سهيل إدريس صاحب «الآداب» وكيلها فى بيروت، وفلان وكيلاً لها فى القاهرة، وما الذى يمكن ذكره فى دراسة رصينة عن خصائص الوجودية العربية، هذا إذا صح أن هناك وجودية عربية.

فالواقع أنه لم تكن هناك وجودية عربية، وإنما كان هناك انبهار بضجة ثقافية أو بهيصة ثقافية فى باريس وصلتنا بعض أصدائها فشاركنا فيها متطفلين لا نملك سوى إعجاب ساذج يسىء إلينا أكثر مما يحسن، بل يسىء ولا يحسن أبداً. فالكتب الوجودية التى ترجمتها وأصدرتها «دار الآداب»، وسواها من دور النشر العربية قد طواها الزمن ولا يذكرها أحد اليوم.

وأخذ هذا المستعرب يتحدث بعد ذلك عن النظريات البنيوية والألسنية السائدة فى الساحة الثقافية العربية منذ أكثر من ربع قرن، وعن إبداعات أو إضافات الباحثين العرب إليها، قال: إن نقاداً وباحثين كثيرين فى العالم تبنوا هذه النظريات وأضافوا إليها، فهل بينهم ناقد أو باحث عربى واحد؟ لقد اندفع نقادكم للتعامل مع «صندوق» النقد الدولى، ومقره باريس هذه المرة، فهل أودعوا فى هذا الصندوق إضافة عربية واحدة، أم كانوا على الدوام من المدينين؟

وتجرأتُ فقلتُ لهذا المستعرب: ولكنك تنسى ما أضافه إيهاب حسن المصرى الأصل، وإدوارد سعيد الفلسطينى الأصل.. فهذان الناقدان أو الباحثان لهما - على ما نسمع - إضافات جليلة فى هذا المضمار، وهما كما تعرف عربيان!

وبسرعة البرق أجابنى هذا المستعرب: أية صلة لإيهاب حسن أو لإدوارد سعيد بثقافتكم؟ إذا كان إدوارد سعيد يتحدث العربية

هل هناك كتاب ماركسى عربى أضاف شيئًا إلى الماركسية؟ وهل هناك ترجمة دقيقة للبيان الشيوعى؟ وهل تداول مثقف فى العالم نظرية ذُكر أنها لماركسى عربى؟

الدارجة، فلم يكن يعرف العربية إلا معرفة بسيطة. ولكنه على التأكيد ابن الثقافة الغربية: ابن جامعة هارفارد، وابن جامعة كاليفورنيا بنيويورك، وابن الحضارة الغربية أولاً وأخيراً.

وهذا ما يمكن قوله عن إيهاب حسن المصرى الأصل، ولكن الأكاديمى الأمريكى المدين للثقافة الغربية فى كل شىء. إن إيهاب حسن أمريكى كأى أمريكى آخر. وإدوارد سعيد مثله. ولولا لحظة تاريخية معينة فيها اكتشف إدوارد سعيد أصوله الفلسطينية، واستجاب لنداء فلسطين الكامن فى أعماقه، لربما كان مثل زميله الروسى الأصل نعوم تشومسكى الذى مهما اعترض على سياسات أمريكا فى الخارج، إلا أنه يبقى الابن الشقى للحضارة الأمريكية.

وعاد هذا المستعرب ليقول إن أحداً لا يحتج على طلب رواد نهضتكم العلم فى الخارج، ولكن أين وثائق نهضتكم، وأين قممها الكبرى، وأين إشعاع حضارتكم فى العالم؟ هل يمكن لكتب طه حسين - على سبيل المثال - إذا تُرجمت إلى الأجنبية، أن تلقى اهتماماً يذكر بها فى العالم؟ وحتى كتابه «الأيام» الذى يمكن مع الكثير من التعسف اعتباره سيرته الذاتية، هل يمكن أن يقرأه قارئ غربى من الدفة إلى الدفة، أم أنه سيكف عن قراءته بعد صفحة أو صفحتين، نظراً للتكلف الأسلوبى للكاتب ولكونه ليس سيرة ذاتية بالمعنى المعروف للكلمة؟

وما الذى بقى من نظريات العقاد فى «العبقريات» وغير «العبقريات»؟

طبعاً أنا أستثنى - والكلام للمستعرب الفرنسى - أدب توفيق الحكيم فى بعض ما كتب مثل «عودة الروح» و«عصفور من الشرق» و«زهرة العمر» و«سجن العمر». فلهذا الأدب نكهته وريادته وإبداعه، ونقله إلى الأجنبية لا ينقص قيمته، فهو نموذج لتفاعل الشرق والغرب، ونموذج لدفء العاطفة والمشاعر الإنسانية الصادقة. ولكن أى أثر لتوفيق الحكيم اليوم فى حركة الفكر العالمى؟

ولا أثر للعرب فى العلوم والتكنولوجيا العالمية المعاصرة. وأحمد زويل ونوبل الكيمياء مسألة ينطبق عليها ما انطبق على إيهاب حسن وإدوارد سعيد. فلولا المعامل والمختبرات ومراكز الأبحاث الأمريكية لما كان أحد سمع بأحمد زويل، ولما كان أحمد زويل، فى الأعم الأغلب، سوى مدرس كيمياء فى كلية العلوم بجامعة عين شمس، أو جامعة الزقازيق.

وحتى الشعر - قال هذا المستعرب - لم تقدموا منه للعالم النماذج الشعرية العربية السوية الخالدة، بل أعدتم إليه - أى إلى هذا العالم - البضاعة التى أخذتموها منه. فبدلاً من أن تقدموا من أشعار العرب القديمة والحديثة باقات حية خالدة قابلة لأن تلفت نظر المثقفين فى العالم، وتؤثر فيهم، ألححتم على قصيدة النثر، وعلى أشعار وصفتموها بالحداثية، ولا حداثة فيها. لقد ظننتم أن الحداثة تسلم «بالنثرية» أو «بالتفعيلة»، وتنعدم بالشعرية العربية التقليدية، فى حين أن الحداثة ليست مجرد شكل، أو أنها تسلم بالشكل وحده. وفى خضم ما لا يقل عن نصف قرن من نضال عاثر فى سبيل إرساء شعر عربى يتصف بالحداثة، فقد الشعر العربى ألَقهُ وأريجه كواحد من أعظم تراثات الشعر فى العالم. وفى خضم كل ذلك، فقد الشعر العربى أبرز خاصية من خصائصه، وهو أن يتضمن معنى». فى تعريفاتكم القديمة المشهورة للشعر «أن الشعر هو الكلام الذى يدل على معنى». وهذا التعريف مازال صالحاً إلى اليوم، وسيظل صالحاً على الدوام. فلا عشوائية ولا فوضى ولا تجريد فى الشعر. وإذا صح الغموض فى الشعر، وهو صحيح طبعاً، فلا يصح الإبهام المطلق.

على أن ما لم يقله هذا المستعرب، يمكن سماعه هنا أو هناك، من نُخب عربية مثقفة تراقب حركة الفكر العربى المعاصر، ولا تجد فى سوق النشر العربى أية أدلة على ولادة جديدة لهذا الفكر، أو على أن هذا الفكر يتمتع بالصحة والعافية.

فقد ذكر لى أحد كبار الناشرين اللبنانيين أن نخبة من أدباء بيروت قد التقت فى مكتبه، وتداولت أمر ما يصدر من كتب جديدة فى العواصم العربية. قال هذا الناشر إن البحث دار حول سؤال مركزى يتصل بأهم ما صدر من كتب فى العالم العربى خلال الأشهر الأخيرة، أى بتلك الكتب التى إذا قرأها المثقف شعر بأنه كان فقيراً فاغتنى، أو بأنه كان حائراً فزالت حيرته، وتغير مجرى عقله أو فكره. وعندما ساد الصمت فى المجلس، بدأ الحديث عن بعض الكتب الأجنبية التى تُرجمت مؤخراً إلى العربية، والتى لا علاقة لها بالإبداع العربى من قريب أو بعيد. فهى كتب أجنبية لا كتب عربية. وينبغى بالطبع تشجيع النقل إلى العربية. ولكن هل لدينا نقل سليم، أو ترجمات دقيقة إلى العربية؟ وما هو عدد الكتب التى تُنقل إلى العربية بتلك الأمانة التى تتطلبها عملية الترجمة؟

قد يقول قائل: إن كفاءة الكاتب العربى يمكن أن تُلتَمس اليوم أكثر ما تُلتمَس فى السرد والقص، أى فى القصة والرواية. أنجز العرب فى هذا الفن ما تعذر عليهم إنجازه فى ميادين أخرى. ولكن ما يؤخَذ على هذا القول أنه لم يمتحن عمليا بما فيه الكفاية، أى بقيمة ما صدر من روايات وقصص على ضوء دراسات جادة، موضوعية فعلاً، ومحصنة ضد الفساد. فأية قيمة لدراسة حول رواية لروائى عربى ماركسى، على سبيل المثال، كتبها ناقد ماركسى انبرى لنصرة «رفيق» له، مدفوعاً بنخوة أخوة السلاح الأيديولوجى؟ وكيف أثق فى أهمية رواية ثانية استناداً إلى نقد مارسه عليها صديق حميم لمؤلفها؟ وبالتالى، ما هو حجم النقد العادل، أو العلمى، الذى يصدر سنويا لا حول القصة والرواية وحدها، بل حول حقول وفنون أدبية وفكرية أخرى؟ وما هى كفاءة هؤلاء النقاد الذين يكتبون؟ وما هى حظوظهم فى الاتصال الحقيقى بمظان الفكر والثقافة والمناهج والأساليب فى بلدان الحضارة؟



لم تكن هناك وجودية عربية، وإنما كان هناك انبهار بضجة أو بهيصة ثقافية في باريس وصلتنا بعض أصدائها فشاركنا فيها متطفلين

لقد نهضت الثقافة العربية فى القرن العشرين على أكتاف رواد ومنورين كبار درس أكثرهم فى الغرب، ثم عادوا إلى بلدانهم ليقوموا بعملية التلقيح والتفاعل المطلوبة. وكان قسم كبير من هؤلاء الرواد والمنورين أعضاء فى بعثات علمية كانت ترسلهم الجامعات أو وزارات المعارف أو الحكومات العربية للدراسة فى باريس أو لندن أو مدريد أو روما أو سواها، بعدها كانوا يلتحقون بالجامعات العربية أو بمنابر الأدب والفكر والثقافة، ويمارسون تأثيرهم فى الأجيال الجديدة. من هؤلاء كان طه حسين ومحمد مندور وعبدالقادر القط ولويس عوض وعشرات من مثل هؤلاء المعلمين الخالدين، ولكن هذا الجسر بيننا وبين العالم الخارجى انقطع تقريباً. ومن يذهب، ومن يعود، لا يتمتع - لسبب ما - بالكفاءة التى كانت تتمتع بها الأجيال السابقة، بل إن من هؤلاء من يعود دون أن يملك اللغة الأجنبية على النحو المطلوب. وعندما يستقر فى جامعته الوطنية، يكتشف هو، أو يكتشف من يتابع مسيرته الأكاديمية، أنه لا يستطيع الإبحار أيضاً فى لغته الوطنية وفى تراثها الماضى والحاضر.

شىء ما من عدم الجدية والرصانة والمتانة يحوم فى أفق جامعاتنا كما فى أفق منابرنا الثقافية. وشىء ما فى انعدام البوصلة يجعل التواصل بيننا وبين العالم الخارجى صعباً، بل متعذراً مع الوقت.

إن العالم الخارجى لا يفهم - على سبيل المثال - لماذا يضيع أكثر وقت مثقفينا فى مطاردة الماضى، وفى البحث عن مقولاته البائدة التى عفى عليها الزمن ولا صلة تصلها بزماننا الراهن، ومحاولة التأسيس عليها، أو التنويع عليها، فى الوقت الذى يرحل فيه هذا العالم نحو آفاق جديدة،

لم يكن ادوارد سعيد يعرف العربية إلا معرفة بسيطة وكان بالتأكيد ابن الثقافة الغربية

ويسجل كل يوم من الفتوح، وفى كل مجال من مجالات العلم والفكر والفن، ما لم يحلم به إنس أو جن.

الماضى يلهم طبعاً ولا يمكن الاستغناء عنه أبداً، ولكن المشكلة هى فى تحوله إلى معتقل، نعتقل فيه أنفسنا، ولا نتمكن من الخروج من أسره فيما بعد.

إن جولة يمكن أن نقوم بها على أى معرض من معارض الكتب العربية السنوية، كفيلة بأن تعزز لدينا فكرة المعتقل هذه، إن ما لا يقل عن سبعين بالمائة من الكتب المعروضة تتصل بطريقة من الطرق بالتراث، أو بالماضى، وهى كتب لا تُحسن عرض هذا الماضى، ولا تنقده، ولا تقدم إليه فائدة ما. وكثيراً ما حملت الجوانب السلبية فى هذا الماضى لا الجوانب الإيجابية. وكثيراً ما صال العقل الخرافى وجال فى هذه الكتب، وافتقد العقل العلمى. فليس ابن رشد، أو ابن خلدون، على سبيل المثال، هو من نعود إليه فى ماضينا، وإنما «أبناء» آخرون للرجعية والتخلف والخرافة.

وكأن الوضع برمته كان بحاجة إلى أن يعلن وفاة المريض أكثر مما كان بحاجة إلى من يقدم أدلة إضافية على أنه لم يفارق هذه الدنيا بعد، فسيان فارق المريض الذى هو فى حالة نزاع، أو فى حالة صراع مع الموت، هذه الدنيا، أو لم يفارقها بعد، فلا ينبغى أن يعقد أمل كبير على الشفاء. وقد شخص الفقه الإسلامى أحسن تشخيص حالة المريض فى مرض الموت عندما قال إن هذا المرض سينتهى حتماً بموت صاحبه، وأنه لا يجوز أن يكثر الجدل حول حالة المريض هذا، بقدر ما ينبغى أن ينصب البحث على ترتيبات الدفن وتوزيع التركة..

ولكن المشكلة تنشأ عندما يتصور بعضنا أن الورم هو شحم لا مؤشر على مرض، فيتعامل بالتالى مع هذا الورم على أنه دليل صحة وعافية. فإذا انتقلنا من التعميم إلى التخصيص، ومن النظرى إلى العملى، قلنا إن ما ذكره المفكر التونسى هشام جعيط مرة فى إحدى الدوريات العربية حول وضع الفكر العربى المعاصر، لم يفاجئ الكثيرين. ذلك أنه فى إطار ما ينشر من دراسات وأبحاث أكاديمية، يعتبر هذا الجانب أحد أضعف جوانب الحركة الثقافية العربية المعاصرة. فى حين أنه كان ينبغى أن يكون من أكثرها نجاحاً وحيوية لا لشىء إلا لأنه يفترض فى الباحث الأكاديمى أن يكون مستكملاً لعدة البحث، متقفاً ثقافة عميقة، مهتماً بالمصادر والمراجع والمناهج. ولكن الاطلاع على ما يكتبه هذا الباحث فى أكثر الأحيان كفيل بأن يقنعنا بأن ابحاث هذا الباحث، بالنسبة إلى الأبحاث الجادة، لا تختلف عن قصائد النثر بالنسبة لقمم الشعر العربى!

ذكر هشام جعيط أن الوضع العام فى الدولة العربية وفى المجتمع العربى لا يشجع إطلاقاً على المعرفة والبحث والتفكير. وقال جعيط: «وأذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فأقول إنه لا وجود لمثقف عربى باستثناء قلة قليلة جداً. كما لا وجود لمفكرين، وذلك لأن هم هؤلاء هو ادعاء التفكير فيما هو سياسى، وليس بصفة نظرية، بل بشكل آنى يتخذ موقفاً دفاعياً. وهذا ليس فكراً. فلا يمكن أن يوجد فكر فى بلدان متخلفة اقتصادياً، وفى ظل أوهام سياسية كالقومية والعروبة، أو أمور أخرى تندرج ضمن ما هو أيديولوجى دون أن تؤسس لفكر. ومن ناحية أخرى، لا ننسى غياب الحريات. فكيف يمكن أن يشع فكر معين فى مجتمعات تسيطر الحكومات فيها على وسائل الإعلام بغباوة شديدة؟

وعندما سئل هشام جعيط عما إذا كانت رؤيته السوداوية هذه تنسحب على تجارب معروفة كتجارب الطيب تيزينى وعبدالله العروى ومحمد جابر الأنصارى ومحمد عابد الجابرى، كان أكثر صراحة عندما أجاب: «أولاً هذه التجارب قليلة جداً بالنسبة إلى عالم عربى ينتمى إليه ٢٨٠ مليون نسمة. أغلب هذه التجارب ليست اصيلة لأنها تأخذ عن الأوروبيين مناهجهم: فواحد ينهل من فوكو، والآخر من ديريدا.. وبالتالى فهم لا يمتلكون فكراً أصيلاً حقيقيا. وإذا صح أن كثيراً من هؤلاء له صدى فى العالم العربى، فذلك ليس لأنهم يستحقون هذا الصدى، بل لأن العالم العربى منحط إلى درجة أن لهؤلاء صدى. طبعاً باستثناء شخص واحد هو عبدالله العروى»!

لا يوجد فكر فى بلدان متخلفة إقتصاديا، وفى ظل أوهام سياسية كالتى يذكرها هشام جعيط. وفى اعتقادنا أنه لا يوجد فكر فى ظل سيادة فكر خرافى يشرح الماضى، وينوع عليه، ولا يجرؤ على نقده. وقد علمتنا تجارب النهضات عند الشعوب المتقدمة أن نقد الماضى، بكل صوره وأشكاله، مقدمة لابد منها لتحقيق نهضة جديدة مرجوة. وكيف يتم نقد الماضى، لا بسبب شرطة الدولة وأجهزتها القمعية الأخرى وحسب، بل أيضاً بسبب رقيب آخر أشد قسوة وهمجية هو ما يمكن تسميته «بالرقيب العام» أو «بالنظام العام» السائد فى المجتمع والذى يحول دون المساس بكل ما هو ثابت أو مستقر فى فكر الجماعة. فهل يمكن فى ظل سطوة الماضى وسلطانه أن ينمو فكر حر وأن تزدهر حركة فكرية تعمل للتغيير؟



لم يكن هشام جعيط فى حالة جنون عندما أصدر مثل هذه الأحكام الجريئة القاطعة، بدليل أنه استثنى المفكر المغربى عبدالله العروى، فعبد الله العروى هو بين قلة قليلة من المفكرين العرب ينعقد إجماع على أصالتهم ورصانتهم. أما الأخرون فيفتقرون إلى هذا الإجماع رغم أنهم من كبار الباحثين. فالدكتور محمد عابد الجابرى أصدر فى ربع القرن الماضى عدداً وافراً من الدراسات التى تناولت تراثنا الفكرى والمعرفى القديم، وأغنته فى آن. ولكن عدداً من الباحثين، منهم جورج طرابيشى، نقد الجابرى ومشروعه معتبراً أنه نزل بالبحث إلى أضعف درجاته عندما أجرى مسحاً شاملاً لفكرنا القديم مصدراً حوله الكثير من «الفتاوى» التى لم تصمد مع الوقت.

ولم يكن الطيب تيزينى أفضل حالاً من الجابرى، فقد بدأ ولديه مشروع طموح لدراسة الماضى الفكرى العربى على ضوء المنهج المادى التاريخى الذى جلبه معه من ألمانيا الشرقية، زمن الشيوعية، حيث درس، ثم تراجع تيزينى لاحقاً عن الخطوط العامة لمشروعه هذا، موجهاً إليه، قبل أن يوجه إليه الآخرون، ملاحظات قاتلة.

وعلى الرغم من سلامة بوصلة محمد جابر الأنصارى، كمفكر حديث ومستنير، فإن بعض نظرياته الأساسية، بنظر الكثيرين، تعوزها المتانة والتماسك.

وقد يكون فى بعض الذى قاله الدكتور هشام جعيط ظلم بحق هؤلاء الأساتذة الأعلام. وقد لا يكون. المهم أن يتوفر نقد، لا يحابى ولا يجامل، يراجع نتاجهم مراجعة علمية نزيهة. ذلك أن أكثر ما جنى على مجمل النتاج الفكرى العربى المعاصر والحديث هو مناخ «التصفيق الحاد»، أو «العداء المسبق أو المطلق». وقد آن الأوان للخروج من «أخلاقيات القرية» إلى عالم المدينة والحاضرة الحديثة.

لقد سعدتُ قبل سنوات قليلة بولادة دار نشر عربية تُعنى بالأبحاث والدراسات، وحرصت على الاطلاع على الأبحاث الاجتماعية والتاريخية التى أصدرتها هذه الدار والتى وضعها أساتذة جامعيون متخصصون. ولكننى فى كل مرة كنت أقرأ بحثاً من أبحاثها، كنت أصاب بالخيبة. فالباحثون كأنهم مبتدئون أو متمرنون، فهم لا يجيدون إعمال المناهج، ولا يجيدون لغتهم العربية. ويتبين بجلاء أن معرفتهم بالعربية أفضل بما لا يقاس من معرفتهم باللغة الأجنبية. وكثيراً ما كنت أحمد الله على أن هؤلاء الباحثين قد تمكنوا من إنجاز أبحاثهم أو كتبهم، نظراً لقلة محصولهم من البحث والتأليف. وعندما يكون الباحثون الأكاديميون الجدد على هذه الصورة، فيعنى ذلك أن النهضة الفكرية والأدبية المرجوة، علينا أن نبحث عنها فى عصر طه حسين وعباس محمود العقاد وأحمد أمين لا فى عصرنا الراهن ولا فى المستقبل. ■

رجـــــاء وأدونيــــس

حلمى محمد القاعود

■■ عقب رحيل «رجاء النقاش» (١٩٣٤ - ٢٠٠٨م)، استعاد بعض الكتاب خبر الخصومة الفكرية بينه وبين الشاعر السورى المعروف «أدونيس» (واسمه الأصلى على أحمد سعيد أسبر)، وذلك للكشف عن نبل «رجاء» وتسامحه حين كان مديراً لمجلة «المصور»، وكلف «أحمد أبوكف» لإجراء حوار مع «أدونيس» وحين تردد الأخير فى الموافقة على إجراء الحوار، خشية أن يكون طلب الحوار بدافع من المحرر، قد يحجبه رجاء عن النشر، أقسم أبوكف لأدونيس أن «رجاء» هو الذى وجهه لإجراء الحوار.

وبدا أن كثيراً من القراء، وخاصة من الأجيال الجديدة، لا يعلمون شيئاً عن هذه الخصومة. وهى على كل حال، ليست خصومة شخصية تخص الرجلين أو واحداً منهما، ولكنها خصومة فى سياق عام وقومى، يتعلق بالأمة كلها، وقد استثمر «رجاء» ما أثير فى مجلة «الرسالة» - الإصدار الثانى - عام ١٩٦٤، وراح بحسه الصحفى والفكرى يناقش قضية «الشعوبية» فى صراعها مع العروبة، وكأن من أثاروا المسألة آنئذ، كانوا يستشعرون ما حدث للأمة بعدئذ من متاعب وآلام مازالت قائمة حتى اليوم.

ويأتى سياق القضية فى إطار وعى «رجاء النقاش» بالقضايا العامة، منذ شبابه الباكر، وارتباطه بأستاذه الناقد الراحل «محمد مندور» (١٩٠٨ - ١٩٦٥)، فقد تأثر به إلى حد أن سجل عنه رسالة ماجستير فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، وقد اطلعت على السجل بنفسى حين ذهبت إلى هناك كى أسجل رسالتى للماجستير فى دار العلوم، وأحصل من آداب القاهرة على شهادة تفيد بأن أحداً فيها لم يسجل موضوعى من قبل.

المفارقة أن «رجاء النقاش» لم يكمل رسالته عن مندور، فقد شغلته الصحافة تماماً عن العمل فيها، وأظن أنه لولا كتابته فى الصحف والمجلات، ما ظهر له كتاب، حيث جاء معظمها تجميعاً لمقالاته التى كانت تفرضها طبيعة الإصدار الصحفى، وارتباطه بأوقات محددة.

كان رجاء مشغولاً بالأدب منذ بداياته، فتعرف على الحياة الأدبية، ووعى تياراتها ونشاطاتها، ولعل أبرز نشاطاته بعد أن عمل فى «روز اليوسف» عام ١٩٥٩، كان تحريره لركن الأدب أو أخبار الأدب الذى كان يظهر أسبوعيا فى جريدة «الأخبار»، عقب أن تخلى عنه «أنيس منصور»، وكان يشارك بتناول الكتب فى بعض المجلات الأخرى، ثم كان عمله رئيساً لتحرير «الهلال» فى الفترة من ١٩٦٩ إلى ١٩٧١، فرصة نادرة لشاب مثله فى الثلاثينيات، كى يقود هذه المجلة العريقة، ويستوعب على صفحاتها إنتاج معظم الأدباء والتيارات الأدبية الموجودة فى الساحة، ويثير من القضايا الثقافية ما يشد القراء والأدباء إلى المتابعة والمشاركة، وقد كرر تجربة «الهلال» فى مجلة «الإذاعة والتليفزيون» حيث تحولت من مجلة تعنى بأخبار الفن وأهله بالدرجة الأولى إلى مجلة ثقافية عامة تستقطب الأدباء والمفكرين فى مصر وخارجها، وتقدم ما يمكن وصفه بالثقافة الثقيلة.

لقد كان الأدب والفكر الجاد، هاجسه فى كل موقع حل به صحفيا أو أديبا، فقد أسس جريدة «الراية» أواخر السبعينيات فى قطر، وجعل الأدب والثقافة جزءاً أساسيا من مادتها، وتفرغ بعد «الراية» لتحويل مجلة «الدوحة» إلى الأدب والثقافة واستكتاب كبار الكتاب فى العالم العربى، فحققت وجوداً ملموساً فى الشارع الثقافى - إن صح التعبير - وظلت «الدوحة» تشد الوجدان العربى، حتى توقفت مع مجلة «الأمة» وكانتا تصدران عن حكومة قطر، فى عام ١٩٨٦، وعاد بعدها رجاء النقاش إلى مصر ليتولى مناصب مهمة فى تحرير صحف دار الهلال، حتى صار كاتباً متفرغاً فى جريدة «الأهرام» يطالع القراء بمقال أسبوعى يتناول قضية أدبية أو عامة، وظل يكتب فى «الأهرام» حتى رحيله.

وكانت ميزة «رجاء النقاش» أنه قرأ الثقافة التراثية إلى جانب الثقافة الوافدة، وتأثر بأعلام العصر فى مصر والعالم العربى، وتابع الحركة الأدبية فى أركان البلاد العربية الأربعة، وعرف كثيراً

بحسه الصحفى والفكرى ناقش رجاء قضية الشعوبية فى صراعها مع العروبة ودور أدونيس فى ذلك



رجـــاء

جدلية "العروبة" و"الشعوبية"

من الكتاب الرواد وكتاب جيله، ومن جاء بعدهم، وكانت لديه قابلية التعرف على الآخرين، وإقامة العلاقات الإنسانية مع المخالفين فكريا وثقافيا، والتعبير عن وجهة نظره فى أسلوب راق، بعيد عن الترخص والابتذال والإساءة.. ولعل معركته مع «العقاد» الجبار، على صفحات الأخبار، مع شدتها وضراوتها، كانت نموذجاً لذلك، فلم يسف أو يهبط، ولكنه وهو الشاب المتيم بأستاذه محمد مندور - المختلف مع العقاد سلفاً - كان حريصاً على الاعتراف بقيمة العقاد وتاريخه الفكرى، وخرج من المعركة، وخرج معه الناس، بفوائد ملموسة، لعلها شجعته فيما بعد على إصدار كتابه عن العقاد بين اليمين واليسار.

ثمة ميزة مهمة لدى «رجاء النقاش» وهى وضوح أفكاره، وبساطة أسلوبه التى اكتسبها من العمل الصحفى، وقد كان ذلك مسوغاً كى يتقبل القراء ما يريد قوله حول الأعمال الأدبية والفكرية، التى يتناولها، بعيداً عن التقعر والركاكة والضعف والغموض، مما نطالعه لدى عديد من النقاد، الذين يفترض فيهم أن يضيئوا النصوص، ويحكموا عليها، فإذا بهم يطفئونها ويعتمون عليها مع أنهم كانوا يسعون لتقريظها والإشادة بها.

لم تتح لى الفرصة للتفاعل مع «رجاء النقاش»، فقد قابلته مرة واحدة، لعلها فى أوائل السبعينيات بغرفة «فكرى أباظة» المستطيلة أقصى الطبقة الثانية من «دار الهلال». ولسوء الحظ كان مكتبه يومها فى هذه الغرفة التاريخية مكتظاً بأصدقائه وأصحابه، ووجدتنى - وأنا الفلاح البسيط الذى ينفر من الزحام والضجيج - أستأذن لفرصة أخرى لم تأت أبداً، ولكن الرجل كان يتابع ما أكتب - على تواضعه - ويهتم به بصورة ما..

ومن العجيب أننى كنت أتناول بعض ما يتناوله دون أن أدرى به، وخاصة فى مرحلة التجنيد الإجبارى التى طالت بالنسبة إلى عقب الهزيمة فى عام ١٩٦٧ حتى الانتصار فى حرب رمضان، حيث ودعت الجيش فى مايو ١٩٧٤، باستثناء فترات احتياط قصيرة. فى مرحلة التجنيد هذه، كتبت فى مجلة «سنابل» التى أصدرها «عقيل مظهر» سكرتير عام محافظة كفر الشيخ، وكان يرأس تحريرها «محمد عفيفى مطر» الشاعر المعروف، عن «الطيب صالح» و«عبدالوهاب الأسوانى» وتناولت الرواية الأولى لكل منهما «موسم الهجرة إلى الشمال» و«سلمى الأسوانية». وفى الوقت ذاته كنت أعد كتابى عن شعراء الأرض المحتلة، الذى فزت به فى جائزة «يوم الأرض» التى نظمها المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية (المجلس الأعلى للثقافة الآن) عام ١٩٧٤، وكنت قد نشرت بعض فصوله فى مجلة «البيان» الكويتية وأنا مجند.

وفى كل الأحوال، فإن ما جعل «رجاء النقاش» أكثر حضوراً فى الواقع الأدبى إلى جانب علاقاته ومواهبه، هو قراءته الدائمة، واطلاعه المستمر على ما يظهر من إنتاج أدبى، من خلال حس قومى عال، موال للعروبة ومعطياتها، على العكس من بعض أقرانه، الذين شطحت بهم انتماءاتهم - وخاصة اليسار المتطرف - إلى آفاق بعيدة وغريبة.. أما ولاؤه للعروبة، فقد كان حافزه لمواجهة «أدونيس» والتصدى لمضمون شعره دون أن ينكر موهبته الفنية، ويعود بعد ربع قرن تقريباً، ليجدد المواجهة، ويستدعى المآخذ التى يأخذها على «أدونيس» وفكره واتجاهه.

كان الحس المهنى (الصحفى) لدى «رجاء النقاش» عاليا، وكان تقديمه للموضوعات التى ينشرها يجذب القراء دون أن يقع فى شرك الإثارة أو المبالغة، ولهذا كان تعامله مع موضوع «أدونيس» حافلاً بالمهنية، والذكاء، خاصة أنه تناول الأمر فى حينه بصحيفة «أخبار اليوم» عام ١٩٦٤، ونشر مقالاته مجموعة ضمن كتاب له بعنوان «أدب وعروبة وحرية»، صدر بدون تاريخ فى العام التالى تقريباً.

وقد طرح موضوع «أدونيس وآخرين» على صفحات مجلة «الرسالة» تحت عنوان «شعراء الرفض»، ولم يكن المقصود رفض النظام السياسى أو الاقتصادى أو احتلال فلسطين وجنوب اليمن مثلاً،

يجادل رجاء بأن العرب حصيلة امتزاج عميق التقت فيه حضارات ذابت وانصهرت لتتكون منها الحضارة العربية



أدونيس

من اللافت أن رجاء لم يمت، إلا بعد مشاهدة كيانات انفصالية يمولها الغرب علنًا!

ولكنه كان رفضاً للعروبة، وكل ما ترمز إليه، واستدعاء لفكر شعوبى قديم، يقوم على التمايز العنصرى والحضارى، وقد وظف «أدونيس» بصورة خاصة، شعره للتعبير عن رؤيته الشعوبية، والزراية بالفكرة العربية والانتماء العربى.. تنبه إلى المسألة كتّاب «الرسالة» آنئذ، فى الأعداد التى ظهرت فى صيف ١٩٤٦ وما بعده، وكان الشاعر «عبده بدوى» أول من لاحظ اهتمام «أدونيس» بالشاعر القديم «مهيار الديلمى»، وهو من أصل فارسى، وظهرت لديه نزعة عنصرية يفاخر بها من خلال الفرس وتميزهم على العرب وغيرهم، لذا سمى «أدونيس» نفسه أو ديوانه باسم «مهيار الدمشقى»، ليكون قناعه أو لسانه الذى ينطق به تعبيراً عما فى نفسه، وعما يأمله، ومنه التذكر التالى شعراً حيث ينهال على وطنه:

- تزينى بالرمل والذئاب
يا امرأة الريح الدمشقية
- كلنا فى بلادى نصلى، كلنا نمسح الأحذية
- يا امرأة الآلام والصوان
يا أخت قاسيون
- يا وطنا مصمغاً مكسور
يسير مشلول الخطى قربى
- هربت مدينتنا
والرفض لؤلؤة مكسرة
ترسو بقاياها على سفنى
والرفض حطاب يعيش على
وجهى - يلملمنى ويشعلنى
والرفض أبعاد تشتتنى
فأرى دمى وأرى وراء دمى
- إنهم أسلموا لحمهم للصخور..

ويرصد «عبده بدوى» ما يكتبه «أدونيس» استنجاداً ببعض الشعراء الشعوبيين من أمثال «أبى نواس» و«بشار» ورثاء للأيام الحاضرة (الستينيات والوحدة العربية)، حيث يراها تغص بعربات النفى، وبالتاريخ العربى المضمخ بمسك العوانس والأرامل والعائدات من الحج، ويرى سورية صارت امرأة محمومة وجسراً للملذات يعبره (الفراعنة!) وتصفق لهم حشود الرمل (يقصد العرب المتحمسين للوحدة)، ويقول: «حيث يبدأ الفراعنة يأكل الناس بعضهم بعضاً وتنتهى الكلمة، وحيث يبدأ الفراعنة أحمل كتبى وأمضى.. أترك ورائى أصدقائى قضبان الحديد والسجون، وأترك بلادى لأولئك الرواقيين المجانين، ودائماً يا عصر الذهاب فى بلادى»، ثم يكتب رسالة البيع للعروبة قائلاً: «لفيل أعمى كتبنا رسالة البيع..» رجل يتبرك بخف الوالى، رجل يسقط شقين مقطوعاً بالصراط، رجل يمشى بساقين خيطين..» رجل يرسم وجهه بحليب ناقته، رجل يعرف أمه فى ولائم الملك، رجل يرقد مع زوجته تحت عباءة الأمير فى حرير التسرى والرعب..» (الرمل) يمحو مناراتنا، والشمس تهترئ فى تجاعيد أيدينا، آه يا بلادى يا جلد الحرباء.. هوذا سيدك يا خادمة، هاتى له قهوة عدن، هيئى سريره.. وأين أنت يا رعد.. يا رسول الطوفان..؟».

لقد احتفظ «مهيار الديلمى» بنار المجوسية الفارسية فى صدره وبكراهيته للعرب، ورفع «مهيار الدمشقى» راية



رفضه لكل ما هو عربى، وكل ما هو حتمى وضرورى فى حياتنا المعاصرة، كما يقول عبده بدوى، ومن خلال «النار المضرمة» من أول عهد الخوارج والتى أكلت قلب مهيار القديم ومهيار الجديد.. تسير العروبة دون أن تقتص من كل منهما، بل إنها تبتسم فى وجهيهما الحاقدين، ولا تصادر حتى متعة «لعبهما بالنار المشبوهة»، فالتاريخ الأدبى هو الكفيل بالحساب، وإظهار الدوافع، وإسقاط الأقنعة..

ويعالج «رجاء النقاش» المسألة بالاقتراب من التاريخ أكثر من الشعر، فيستعيد تاريخ القوميين السوريين الذين انتسب إليهم «أدونيس» سياسيا، للتعبير عن طائفته. ويشير «النقاش» إلى أن الاستعمار لعب على وتر الأقليات والطوائف، ليشن حرباً ضارية يسميها «حرب إبادة أدبية وفكرية ضد الأدب العربى والفكر العربى..»، ولذا يرى النقاش أن حركة القوميين السوريين لم تكن سياسية فقط، بل كانت منذ البداية حركة واسعة تهدف إلى السيطرة على العقول بأوسع صورة ممكنة. وقد قدر لهذه الحركة أن تبدأ على يد زعيم مندفع، يملك قدراً كبيراً من الذكاء والكراهية المتأصلة للقومية العربية والوحدة العربية، ذلك هو «أنطون سعادة».

كانت أهداف «أنطون سعادة» تتركز فى ثلاث نقاط، تعمل حركته على تحقيقها، وهى:

١ - خلق «الفردوس المفقود» الذى يحبه ويعشقه القوميون - السوريون، ويعملون على إعادته وتحقيقه فى الواقع وهو «سورية الكبرى» التى عدها امتدادا للحضارة الفينيقية التى ظهرت فى سورية، ثم فى شمال أفريقيا قبل الميلاد بثلاثمائة سنة تقريباً. وسورية الكبرى فى نظر «سعادة» تعنى إعادة مجد الفينيقيين وحضارتهم، وبعث العظمة الفينيقية والسيادة الفينيقية على البحر المتوسط. إذاً سورية الكبرى أو «فينيقيا» الجديدة، هى الفردوس المفقود، وهى الحلم الضائع، وهى الأمل بالنسبة للقوميين السوريين.

٢ - خلق رمز تاريخى للحركة يتمثل فى القائد الفينيقى السورى القديم «هانيبال» الذى ولد فى شمال أفريقيا ومات فى سورية، بعد أن دخل فى حروب طويلة مع الرومان فى الفترة بين ٢٦٤ و٢٠٢ ق. م، وقد وصلت جيوشه إلى أبواب روما، واستولت على كل شمال إيطاليا.. وإن كانت الحرب انتهت بسحق «هانيبال» وهزيمته.

٣ - إحياء أساطير قديمة تساعد الحركة وترمز إليها وتدل على لونها وشخصيتها الخاصة، وقد بعث أساطير بابلية وآشورية، ودعا إلى استخدامها فى الأدب القومى السورى، وفى مقدمتها: تموز، وعشتار، وأدونيس، وكل منها يرمز إلى جانب فى الحياة، وكان سعادة يهدف من وراء هذه الأساطير إلى تقديم أدب خاص يميز القوميين السوريين.

وقد اختار سعادة لأدونيس اسم الأسطورة التى تقول إنه ثمرة لعلاقة آثمة بين الملك القديم «ثياس» وابنته «ميرها»، وقد تحولت «ميرها» عقاباً لها على خطيئتها إلى شجرة، خرج من جوفها «أدونيس»، رمزاً للحياة الجديدة الخالية من الإثم والرذيلة..

ويرى «رجاء النقاش» أن هذه الأفكار هى نفسها التى يقوم عليها أدب القوميين السوريين الذين يتركزون فى لبنان، ويحاولون أن يجعلوا من الأدب خادماً لـ «الخيانة السياسية» التى يمارسونها ضد العرب والوطن العربى.. وأدبهم فى جوهره يقوم على الحنين إلى الفردوس المفقود والجنة الضائعة «فينيقيا»، وهو أدب ملىء بالدموع، والتشاؤم والحزن، والفوضى، لأنهم يعيشون فى «الأرض الخراب»!

ويجتهد «رجاء» فى دحض فكرة القوميين السوريين، على أساس أن العرب حصيلة امتزاج حضارى عميق التقت فيه حضارات قديمة كانت موجودة فى المنطقة، ثم ذابت وانصهرت ليتكون منها ما يسمى بالحضارة العربية، وانتهى هذا الانصهار الذى جرى للفينيقيين والفراعنة والبابليين والآشوريين والعرب القدماء إلى خلق شعب عربى «واحد» تحكمه صفات أساسية مشتركة. ولو اتجهت الشعوب المعاصرة إلى وضعها منذ ألفى سنة، لما أصبح هناك شعب واحد من شعوب العالم المعاصر مستحقاً للبقاء إلى اليوم.

ولكن القوميين السوريين يمجدون الحضارة الفينيقية التى انبثقت من سورية، ثم يرفضون الاعتراف بالحضارة العربية وقيمة الحضارة العربية.

والتاريخ يقول: إن العرب الأمويين الذين خرجوا من سورية بالذات، هم الذين أقاموا فى شمال أفريقيا وإسبانيا حضارة تفوق حضارة الفينيقيين الروحية والمادية.. (يقصد الحضارة الإسلامية).

ويقف «رجاء النقاش» من الأساطير القديمة موقفاً متسامحاً شريطة ألا تستخدم لدعم أفكار شعوبية تقف فى وجه الفكرة العربية، وأى عربى مخلص لعروبته لا يجد ما يجرحه، فى استخدام الأساطير «الفرعونية» مثل إيزيس وأوزيريس، فذلك حق للعرب قبل أن يكون

رجـاء يـقــرر بـأن خـلافــه مــع أدونـيــس لا يمـنـعــه مــن الـقــول بـأنــه شـاعــر مــوهــوب

حقاً لغيرهم، والبابليون والآشوريون عاشوا في العراق، والعراق جزء من صميم الوطن العربي اليوم(؟)، والفراعنة عاشوا في مصر، ومصر من صميم الوطن العربي اليوم.

ويستخدم القوميون السوريون المغالطات المقصودة التي تهدف إلى خلق فكرة مغرية يمكن لصغار النفوس وصغار العقول أن يلتفوا حولها بحماسة وقوة لتخريج عناصر تحارب الفكرة العربية من داخل الوطن العربي، وتبعث الأقليات الفكرية والدينية العنصرية الأخرى في الوطن العربي (الفرعونية في مصر، الكردية في العراق، البربرية في المغرب، قبائل الجنوب في السودان): لتضعف الوطن العربي وتمزقه.. ومن اللافت أن «رجاء النقاش» لم يمت، إلا بعد مشاهدة كيانات انفصالية على أرض الواقع، تملك قوة عسكرية وسياسية واقتصادية، ويمولها الغرب الاستعماري علناً، ويدافع عنها!

«أمير شعراء القوميين السوريين» هكذا يسمي «رجاء النقاش» الشاعر أدونيس، ويشير إلى هروبه من سورية، واستقراره في لبنان، بعد فترات قضاها في باريس، ليكون مديراً لمجلة «شعر» التي كانت تمولها المنظمة العالمية لحرية الثقافة، وهي منظمة أثير حولها كثير من اللغط، بسبب دور المخابرات الأمريكية المركزية في إنشائها، وقيامها بإصدار بعض المجلات المعادية للثقافة العربية، ومنها مجلة «حوار» التي كانت تدفع مكافآت طائلة، وانصرف عنها كثير من الكتاب بعد انكشاف علاقتها المريبة بالمخابرات الأمريكية المركزية، كما رفض «يوسف إدريس» جائزتها الممنوحة له، وقد عوضه عنها في حينه الرئيس عبدالناصر، بمثل قيمتها، وحقق له الرفض شهرة عريضة.

لم يكن «أدونيس» قد أصدر مجلته المعروفة «مواقف» بعد، فقد أصدرها عقب الهزيمة لتتبنى موقفاً معادياً للإسلام والعروبة والتاريخ العربي جميعاً، وكانت ملتقى القوميين السوريين، واليساريين على اختلاف توجهاتهم.. ولكن «رجاء» يشير إلى أول قصيدة لأدونيس نشرت في مجلة «الرسالة الجديدة» التي صدرت في الخمسينيات من القرن الماضي، وكان يرأس تحريرها «يوسف السباعي»، ويشيد «رجاء» بهذه القصيدة لأنها تكشف عن «شاعر موهوب له طعم ولون وشخصية خاصة»، ثم يشير إلى أنه تتبع إنتاجه، فوجد أن الاتهام الموجه إليه بأنه قومي سوري صحيح، لأنه شاعر القوميين السوريين الكبير، وقد قربه «انطون سعادة» زعيم الحركة القومية السورية، بعد أن وجده شاباً ذكياً وشاعراً موهوباً، لأن سعادة كان يعلم تمام العلم أن الفن عموماً، والشعر خصوصاً من أهم أسلحة الدعاية السياسية، وأنه سند كبير لنشر أية فكرة من الأفكار، وكان شعر أدونيس تطبيقاً لآراء سعادة وأفكاره.

ومع ذلك، فإن رجاء النقاش يقرر بأن خلافه الكامل مع أدونيس القومي السوري لا يمنعه من القول بأنه من الناحية الفنية شاعر موهوب، ولكنه للأسف اختار أن يسير في طريق مسدود،



يؤدي به إلى كراهية بلاده والتآمر عليها، طريق كل أحزانه زائفة، وكل أفراحه وأحلامه زائفة أيضاً.

بيد أن رجاء لم يشر إلى الهاجس الطائفي لدى أدونيس، وهو الهاجس الذي يفسر شعره، وكل مواقفه تقريباً، فأدونيس، ينتسب إلى الطائفة العلوية، واسمها الصحيح أو الأصلي هو «النصيرية»، ويصنفها البعض من القدامى، ضمن غلاة الشيعة، وقد ادعى مؤسس الطائفة النبوة والرسالة، ويدعى أبوشعيب محمد بن نصير البصري النميري (ت ٢٧٠هـ)، وعاصر ثلاثة من أئمة الشيعة (١٠-١٢)، وقد أقامت فرنسا دولة للعلويين عام ١٩٢٠، واستمرت إلى عام ١٩٣٦م، ويعيش معظم أفراد الطائفة في منطقة جبال النصيريين باللاذقية، وانتشروا مؤخراً في المدن السورية المجاورة، ويوجد عدد كبير منهم في تركيا، غربي الأناضول خاصة، ويعرفون باسم «التختجية والحطابين والبكتاشية»، وهناك أعداد منهم في لبنان وفلسطين وألبانيا وفارس وتركستان.. وأفكار الطائفة فيها كثير من الغلو، واستحلال المحرمات، وصلاتهم مختلفة عن صلاة المسلمين، ويستمدون عقائدهم من الوثنيات القديمة والفلاسفة المجوس والأفلاطونية الحديثة التي نقلوا عنها نظرية الفيض النوراني على الأشياء.

والكلام حول الطائفة يطول، لا يتسع له المجال، ولكن انتماء «أدونيس» إليها كان هو الهاجس، كما سبقت الإشارة، الذي يحكم فكره وتصوراته، وقد تلاقى مع «انطون سعادة» - غير المسلم - حول فكرة القوميين السوريين لتمثل له مجالاً رحباً يعبر فيه بطريقة غير مباشرة عن هاجسه الطائفي، وهذا الهاجس له صلة أو علاقة بمواقف الطائفة في فترة الحروب الصليبية الأولى، وفترة الاستعمار الحديث وإقامة فرنسا دولة علوية لأفرادها، وهذه المواقف للطائفة النصيرية أو العلوية جاءت في سياق المواجهة مع الأعداء، حيث عُدت خذلاناً للأمة، وهروباً من الميدان، مما حدا بابن تيمية إلى محاربتهم في عهد الصليبيين وكتابة رسالتين عنهم، وبالإضافة إلى ذلك، فإن مواقف الطائفة المتخاذلة انعكست على الشعور الشعبي في بلاد الشام، وترسبت مع التاريخ، مما ترتبت عليه آثار سلبية في العلاقة الاجتماعية بين الطائفة العلوية وبقية المجتمع..

«أدونيس» يتحرك بهذا الميراث التاريخي فيعظم «قرطاجة» أو قرطاجنة، ويشيد بدورها التاريخي الذي صنعه الفينيقيون:

(أحلم أن شفتي جمرة
أخالها قرطاجة العصور
كل حجر شرارة
والطفل فيها حطب - ذبيحة المصير).

ويحلم أدونيس بعودة «فينيقيا» عودة سعيدة، ولكن الواقع يشعره بالحزن الذي يدفعه إلى الندب والعويل:

(فينيق إذ يحضنك اللهيب
أي قلم تمسكه؟
وحينما يغمرك الرماد، أي عالم تحسه؟..
وما هو الثوب الذي تريده - اللون الذي تحبه؟).

الحنين إلى فينيقيا، والرغبة في إعادتها إلى الحياة وبعثها وإنقاذها من الموت.. تلك هي الثورة التي يحلم بها أدونيس.. وقد أدرك الاستعمار قيمة هذه الفكرة فوقف وراءها وساندها، وهي في حقيقتها كما يقول «النقاش» جزء من «الثورة المضادة» للعروبة، والتشكيك في سلامتها.. ولعل هذا كان دافعاً إلى قيام الحزب القومي السوري بعمليات إرهابية في سورية ولبنان، من بينها الاغتيال والنسف والحرق، وهو ما أدى إلى إعدام زعيم الحزب «انطون سعادة» في لبنان. لقد وصفه «النقاش» بأنه - أي سعادة - قائد عصابات حقيقية كانت تهدد أمن الناس، وتقوم بدور قطاع الطرق. ويضيف: إنه كان طامعاً للزعامة ومجنوناً بها، وأوصله هذا الجنون إلى أن يجعل الإيمان به شخصياً مبدأ من المبادئ الأساسية في دستور الحزب، وأصبح الاحتفال بعيد ميلاده في فروع الحزب، مثل الاحتفال بميلاد الأنبياء، ومن أجل هذا يبكي عليه «أدونيس» بوصفه شهيداً كبيراً، ويا له من شهيد مغامر ليس فيه شيء مما يوحي بالشعر الحقيقي الأصيل!

لقد استمر أدونيس في انزلاقه، كما يقول النقاش، حتى وصل آخر الأمر إلى الحقد على العرب ومصر وكراهيتها بعنف لأنها أصبحت - يومئذ - مركزاً للثورة العربية، واقتربت كثيراً من تحقيق الوحدة العربية، بعد أن كان الأمر مجرد احتمال بعيد المنال، وهو في شعره لا يكف عن ترديد النغمة القائلة بأن المصريين فراعنة، ويقول في بعض نثرياته:

(بلادي امرأة من الحمى، جسر من الملذات، يعبره الفراعنة، وتصفق لهم حشود الرمل - يقصد العرب).

ولا يفتأ يردد هذا المعنى في كل مناسبة بصورة أو أخرى.

ويرى «النقاش» أن القوميين السوريين وقعوا في أزمة كبيرة حين وقعوا في تناقض كبير بين ما يريدونه، وما يعلنونه، ويلخص أدونيس الأزمة في البيتين التاليين:

«أيها الشاعر الكبير إنى أرفضك»!!.. كانت هذه صيحة رجاء فى وجه أدونيس

(يا شمعة المستقبل البعيدة
ما لى أخاف الطرق القصيرة)

والبيتان تصوير بارع لنفسية الشاعر ونفسية الأدباء الذين ينتمون إلى اتجاه القوميين السوريين، إن عقدتهم الكبرى هى أنهم يكرهون الطرق القصيرة الواضحة إلى الحقيقة، ويبحثون عن الطرق الملتوية المنحرفة، فقد أصبحت لذتهم الكبرى هى المغامرة، هى لذة الاختفاء عند المجرم القاتل الذى يطارده القانون.

وأدونيس يستخدم أسطورة «الفينيق» ليؤكد بها معنيين، هما:

أولاً: الموت والاحتراق، فقد مات فينيق واحترق.

ثانيا: البعث والتجدد، فقد بعث فينيق وتجدد، وهو يقف طويلاً عند المعنى الأول فيملأ قصيدته بالعويل والدموع، ويدعو أخيراً إلى التجدد والبعث من رماد الحريق، حيث تعود الحضارة الفينيقية إلى سورية، وهى فكرة سياسية، غير فكرة الحياة والتجدد التى تشير إليها الأسطورة.

(فينيق تلك لحظة انبعاثك الجديد،
صار شبه الرماد، صار شرراً ولهيباً كواكبيا.
والربيع دب فى الجذور، فى الثرى،
أزاح رمل أمسنا العجوز والثلاثة:
الركام والفراغ والدجى).

وقد تبع «أدونيس» فى أفكاره الشعوبية عدد من الأدباء، منهم زوجه «خالدة سعيد»، وصديقه «أنسى الحاج»، والأديب «سعيد تقى الدين» الذى كان يبشر بمستقبل كبير فى الأدب، ولكن انضمامه إلى القوميين السوريين، جعله يتحول إلى مخلوق آخر، يترك الأدب، ويحصن بيته بالمدافع، متوهماً أنه مهدد بالقتل، ووقف على حافة الجنون، حتى مات على طريق القوميين السوريين فى الأدب.

ويرى «النقاش» أن هناك بعض المخدوعين الذين انساقوا وراء أدونيس وأفكاره، ولم يدركوا غاياته الحقيقية، وهى الحقد على العرب ومصر، والوحدة العربية.

«أيها الشاعر الكبير إنى أرفضك»!!

كانت هذه هى الصيحة التى أطلقها رجاء النقاش بعد ربع قرن تقريباً فى وجه «أدونيس» عندما زار مصر عام ١٩٨٨، واستقبل بحفاوة كبيرة من أجهزتها الثقافية ومؤسساتها الفكرية، ويقول «رجاء»: إنه لم يشأ أن يفسد «العرس» الذى أقامته مصر للشاعر «أدونيس» فى كل مكان، ويرى أن الطبيعة العربية المصرية فى معاملة الضيوف شىء ثمين يجب الحرص عليه وعدم التفريط فيه، خاصة إذا كان هؤلاء الضيوف عرباً، لكنه مع ذلك لا يحب أن تقترن رحابة الصدر وسماحة النفس وكرم الضيافة بأى نقص فى المعرفة بحقيقة الأمور، وهو ما يمكن أن ينتهى إلى شىء من الغفلة وقلة الإدراك.



ويعيد «رجاء» التأكيد على إيمانه الشديد بموهبة أدونيس الفنية والفكرية، وتقديره لها وإعجابه بها، ولكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع أن يتجاهل مواقف أدونيس المبدئية وآراءه المختلفة، وإخفاءه لتاريخه الذى مازال يؤثر عليه، وسوء ظنه بالقضايا الأساسية التى تهم مصر والوطن العربى كله.

ويكشف «رجاء النقاش» فى موضوعه عن تناقض أدونيس وتصرفاته الصغيرة حيال الدعوة المصرية التى وجهت إليه للمشاركة فى معرض القاهرة الدولى للكتاب، حيث رفضها متعللاً باتفاقية «كامب ديفيد» التى وقعتها مصر مع العدو الصهيونى عام ١٩٧٨، والغريب أن أدونيس حضر على نفقته بعد معرض الكتاب بخمسة شهور، ليكون فى ضيافة أحد أصدقائه، ويدلى بأحاديث عديدة لمجموعة من الصحف والمجلات المصرية.. ويصف «رجاء» هذا الموقف بأنه «رخيص وتمثيلية ضعيفة مهلهلة ونفاق لا يليق بشاعر كبير».. ثم يناقش موضوع «كامب ديفيد» ويراه مرتبطاً بموقف الأمة العربية التى مازالت ترفض قبول التطبيع، وتملك الموقف الحاسم فى هذا الأمر. ويستعيد «رجاء» موجزاً لتاريخ أدونيس وانتمائه للحزب القومى السورى، ويشير إلى إخفائه أول دواوينه (قالت الأرض ـ ١٩٥٤) الذى أهداه إلى أنطون سعادة، رئيس الحزب، بعد أن ضمنه قصيدة طويلة فى رثائه بعد إعدامه عام ٩٤٩١، توحد بينه وبين الوطن:

(قيل: كون بينى فقلت: بلاد
جمعت كلها فكانت: سعادة).

ثم يشير «رجاء» إلى محاربة أدونيس للوحدة المصرية السورية، وإصداره لكتابه «الثابت والمتحول» الذى يطعن فى الثقافة العربية حيث يتهمها بأنها لم تعرف التجديد والتطور والنهضة إلا على يد أصحاب المذاهب الباطنية(!) أما أصحاب «المذهب السنى» الإسلامى بفروعه المختلفة فهم الذين كانوا ومازالوا يمثلون الجمود فى الفكر والثقافة والفن، حيث يقول بالنص: «إن التحول، أو التجديد أو الثورة فى الثقافة العربية قد ارتبطت فى الدور الحاسم منها بظهور نظرية «الإمامة» عند بعض الفرق الإسلامية الباطنية». ويقدم «رجاء» نماذج من المجددين لا تنتمى إلى الباطنية من أمثال أبى تمام والمعرى وابن الرومى وابن خلدون، لدحض ما يقوله أدونيس، فهؤلاء وغيرهم ممن ينتسبون إلى الخط العام فى الثقافة العربية، ويشير «رجاء» إلى الفوضى الفكرية التى يريد أدونيس أن ينشرها فى ثقافتنا المعاصرة، وتمتد إلى أمور لا يجوز الاقتراب منها بغير معرفة واسعة دقيقة، وميزان فكرى شديد الحساسية والأمانة. وها هى بعض النماذج التى جاءت فى الجزء الأول من كتاب «الثابت والمتحول»، يقول فيها أدونيس:

١ ـ «لم يغير الإسلام طبيعة النظرة إلى المرأة كما كانت فى الجاهلية، أو طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة واكتفى بأن نظم هذه العلاقة وجعل لها قانوناً، وجعلها تتم وفقاً لطقوس معينة، فالحب فى الإسلام بقى كما كان فى الجاهلية حسيا، ولذلك من الأفضل الاقتصار على استخدام لفظة الجنس دون الحب، فالحب فى الإسلام جنس فى الدرجة الأولى» ص.٢٢٦

٢ ـ «الإنسان مجزأ فى الإسلام إلى جسد وروح وعقل، ومن هنا يصعب فهم وحدته، وفهم الوحدة بعامة» ص ٢٢٧.

٣ ـ «العربى المسلم لا تهمه المرأة بل تهمه النساء، وهو لا يهمه أن يحبهن، بل يهمه أن يمتلكهن» ص ٢٢٧.

٤ ـ «القرآن يعتبر النفس كتلة من الغرائز والأهواء، وهو يضع لها قانوناً يسمو بها ويصعدها، ولهذا أبقى عليها كما كانت فى الجاهلية، لم يحاربها ولم يقتلها، وإنما هذبها وصفاها، فليست هناك حبيبة فى القرآن، بل زوجة، وليس فيه حب بل جنس، وصورة المرأة فيه هى صورة الزوجة، والزواج متعة جسدية من جهة، وإنجاب من جهة، ومن هنا تقترن صورة الزوجة بصورة الأم» ص ٢٢٧.

٥ ـ «ينسجم الحب القرآنى مع الحب اليونانى الوثنى، ويمكن أن نصف الحب القرآنى بأنه امتلاك جسدى من أجل القضاء على الشهوة التى هى رمز للشيطان، فالمهم هو إشباع الشهوة، وتسهيل هذا الإشباع» ص ٢٢٨.

٦ ـ «الحب فى القرآن قرار أو علاقة يقررها الرجل وعلى المرأة أن تخضع، فليست الغاية الحب، بل التيه الجنسى، وهذا مما فصل الحب عن العمل واللغة» ص ٢٢٧.

ويمتلئ الكتاب بكثير من هذه الأخطاء العلمية الفاحشة، وينطوى فى داخله على دعوة صريحة إلى التمزق والطائفية ومحاربة وحدة العرب شعباً، ووحدة المسلمين ديناً، مع الدعوة إلى الإعلاء من شأن المذاهب الباطنية بوصفها مصدراً للقوة الفكرية والتجديد والأسس الصحيحة للعلاقات الإنسانية المفقودة تماماً عند الأغلبية العربية والمسلمة فى نظر أدونيس.

ويتهم رجاء الكتاب وما جاء فيه بالخطأ والدجل من الناحية العلمية، وتفسير النصوص بنية سيئة وضمير شديد الالتواء، وللدين رب يحميه، ثم علماء أصلاء يستطيعون الدفاع عنه بالعقل والحجة والبرهان. ويؤكد «رجاء» فى نهاية موضوعه صيحته التى جعلها عنواناً له: «أيها الشاعر الكبير إنى أرفضك»!.

هناك من يتبنى «أدونيس» ويرسخ أقدامه، ويجعل له نفوذاً كبيراً فى الساحة الأدبية الثقافية

وإذا كان هناك من تبنى الحزب القومى السورى، وغذاه، وأمده بمقومات الحياة، فكان طبيعيا أن يكون هناك من يتبنى «أدونيس» ويرسخ أقدامه، ويجعل له نفوذاً كبيراً فى الساحة الأدبية الثقافية لدرجة جعلت «رجاء النقاش» يعلن أن يواجه رجلاً يملك أسلحة كثيرة وغزيرة ومتنوعة وسهلة الاستعمال بإشارة منه، وأنه يملك محاربة «رجاء» والوقوف ضده فى الصحف والمجلات والمؤسسات الثقافية التى له صلة بها وتأثير عليها، ولكن هذا لا قيمة له عند «رجاء»، فيكفيه أن يجد فى مصر ورقاً يكتب عليه، وقلماً يكتب به، وصحيفة ينشر فيها آراءه بحرية واستقلال.

وعندما يعلن «أدونيس» عداءه لمصر، ويسجل ذلك فى أدبه وكتاباته الفكرية، ويسمى المصريين «غربان أفريقيا الجائعة» محذراً منهم، ومن دورهم العربى، فهنا ينبغى التصدى له، ليس من أجل مصر وحدها، ولكن من أجل الأمة العربية كلها، والتاريخ القديم والتاريخ الحديث يؤكدان ارتباط مصر بأمتها فى السراء والضراء؛ والحوادث خير شاهد على ذلك.

إن «أدونيس» يصر على أن «السنة» تضطهد «الشيعة»، وأنه يتعرض للهجوم لأنه شيعى علوى، وهذا تزوير وضلال ومحاولة غير بريئة لمواصلة العمل الذى احترفه، منذ أن احتضنه ورباه زعيم القوميين السوريين الأول: أنطون سعادة، الذى اختار له اسم «أدونيس».ـــــ ومنذ أن أصدر كتابه «الثابت والمتحول» الذى نال به الدكتوراة من الجامعة اليسوعية فى لبنان، فى نقد الإسلام والفكر الإسلامى! وهى جامعة لا يطمئن إليها المسيحيون الشرفاء الذين يعرفون علاقاتها التاريخية ببعض أجهزة المخابرات الأوروبية، ودورها فى تخريج العناصر البشرية التى تساعد على تطبيق الأفكار المعادية للعروبة والفكر الإسلامى الصحيح، وإبعاد لبنان عن محيطه العربى.

ولو كان «أدونيس» قد التزم فى رسالته بالأصول العلمية الموضوعية الصحيحة، لقلنا إنه عقل حر يجتهد، وإن أخطأ فله أجر وله قيمته وكرامته، أما الواقع فإن «أدونيس» فى كتابه «الثابت والمتحول» قد لجأ إلى أساليب غير أمينة، وغير علمية لتشويه الفكر الإسلامى.

ويؤكد «رجاء النقاش» أنه ليس من هواة المعارك والحروب، وليس أقرب إلى قلبه من حياة السلام والهدوء، ولكنه فى الوقت نفسه لا يطيق صبراً على هؤلاء الذين يشعلون نار الفتنة فى الأرض العربية، ويقدموننا جميعاً ضحايا على مذابح الأعداء، ويريدون بالغرور وسوء النية، ووفرة الإمكانات والمساعدات التى يملكونها أن يضعوا أحذيتهم فوق رءوسنا، دون أن يعلموا أننا نستطيع أن نقف فى وجوههم. لا نريد بهم شراً، ولكن نريد أن نبعد شرورهم عنا، ولا أدرى ماذا يبقى لنا إذا استسلمنا لهؤلاء الذين يعملون على تمزيق الوطن إلى أوطان عديدة متصارعة؟

كان «رجاء» يأمل أن يصدر كتاباً



يعمل فيه منذ فترة تحت عنوان «جناية أدونيس على الثقافة العربية»، ولكنه لم يجد وقتاً ليتمه، فقد شغلته الصحافة وقضايا أخرى، بيد أنه أصدر كتاباً مهماً اسمه «الانعزاليون فى مصر»، ردَّ فيه على نفر من الكتاب المصريين الكبار، الذين رأوا أن مصر ينبغى أن تعيش لنفسها وشعبها دون أن تلقى بالاً إلى ما وراء الحدود، وأن تعلن الحياد مثل «سويسرا» حتى تنعم بالرخاء والسلام.. ويأتى هذا الكتاب استكمالاً لفكرته التى عارض من خلالها «أدونيس» والشعوبيين فى العالم العربى، فقد كان «رجاء» يؤمن أن الوحدة العربية الحقيقية هى الطريق الحقيقى لبناء الأمة العربية ونهضتها واستقلالها.

وفى كل الأحوال، يبدو أن الأحداث كانت فى صف «أدونيس»، وعلى عكس ما تمنى «رجاء النقاش»، فقد أثمرت جهود التمزيق والتفتيت، ونشأت كيانات جديدة لها صفة الأمر الواقع داخل الأوطان العربية، وبدلاً من توحيد الأوطان العربية، صارت هذه الأوطان نفسها عرضة للضياع، بحكم النزعات العرقية والطائفية والمذهبية، وما يجرى فى السودان والعراق ولبنان والمغرب وغيرها خير شاهد..

أما على المستوى الذاتى بالنسبة لأدونيس، فقد حقق هو، والأدباء الذين ينتسبون إلى طائفته كثيراً من القوة والنفوذ، فقد صار لهم حواريون على امتداد العالم العربى، يؤمنون بما يقوله كأنه وحى، ويسيرون على خطاه فى الكتابة الشعرية والنثرية، ويرددون آراءه ومصطلحاته من المحيط إلى الخليج، بل إن قيادات بعض الدول العربية صارت تتفاخر باستضافته، ومنحه جوائزها واهتماماتها به، فضلاً عن ضيافاتها له، وأضحت الإشارة إلى «أدونيس» من قريب أو بعيد، بالمراجعة أو التصحيح نوعاً من التجديف وكسر التابو والخروج على النص الذى يستحق فاعله العقاب الأدبى!

لقد كان «أدونيس» الأقدر على مخاطبة نقاط الضعف، لدى العديد من النخب والشباب، واستطاع أن يستثمرها جيداً بذكائه الحاد، وتمكن فى نهاية الأمر من فرض إرادته فى الواقع الثقافى تحت مسميات براقة خادعة مضللة، ومن منا لا يوافق مثلاً على مصطلحات مثل: الرفض والثورة والحداثة؟ إنها مصطلحات تجذب كل قلم يسعى إلى الإصلاح والتقدم، ولكن أى رفض وأية ثورة وأية حداثة؟.. لقد كانت هذه المصطلحات كلها تصب فى خانة رفض العروبة والثورة على الدين، والحداثة بالمعنى الأوروبى الذى يعنى القطيعة مع الماضى بكل ما فيه ومن فيه، وقد تجلت معطيات ومقولات «أدونيس» بصورة أكثر وضوحاً فى مجلته «مواقف» التى صدرت عام ١٩٦٨، عقب الهزيمة السوداء.

ويوم عاب «رجاء النقاش» على «أدونيس» رفضه لزيارة القاهرة عام ١٩٨٨ بدعوة من الحكومة المصرية، أو وزارة الثقافة فيها، ثم حضوره إليها بعد خمسة شهور على حسابه الخاص، متعللاً بموقفه من اتفاقية «كامب ديفيد»، لم يكن يعلم أنه سيغير موقفه من هذه الاتفاقية بزاوية مقدارها ١٨٠ درجة، ويصير من كبار أنصار الاستسلام للعدو، ويشارك فى اجتماعات دولية (برشلونة مثلاً)، لوضع صيغ محتملة لما يسمى بالسلام بين العرب والغزاة.. وقيل إنه كان مدفوعاً برغبته فى الحصول على جائزة «نوبل» فى الأدب، حيث يتردد اسمه كل عام فى الصحافة العربية ضمن المرشحين لها، ولكنه حتى هذه اللحظة لم يظفر بها.. وإن كان من المؤكد أن ما يكتبه أسبوعيا أو دوريا يقف فى صف الغزاة الذين يحتلون فلسطين، فهو مثلاً يرفض عمليات المقاومة، ويراها أعمالاً وحشية بربرية، ويرى أننا نظلم الغزاة حين نضعهم جميعاً فى سلة واحدة، ويطالب أن نفتش فى أعمالهم عن الكتابات الإنسانية، وأن ننظر إليهم بموضوعية، فلا نعاديهم، ولا نبتعد عنهم!

هل كان «رجاء النقاش» يغرد خارج السرب حين وقف ضد أدونيس بوصفه ممثلاً لاتجاه معاد للأمة وفكرها وأدبها، فضلاً عن دينها؟

وهل تعنى هزيمة الأمة وانتصار «أدونيس» أن العرب لن ينهضوا من جديد؟

من المؤكد أن الدنيا لا تدوم على حال، ورحم الله رجاء النقاش. ■

مـــــراجـــــع:

- رجاء النقاش، أدب وعروبة وحرية، سلسلة كتب ثقافية، المؤسسة المصرية العامة للأنباء والنشر، القاهرة.
- رجاء النقاش، ثلاثون عاماً من الشعر والشعراء، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٢.
- رجاء النقاش، الانعزاليون فى مصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٤١٠هـ = ١٩٨١م.
- الندوة العالمية للشباب الإسلامى، الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، الرياض، ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م.
- مجلة الرسالة، الإصدار الثانى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٥.
- الصحف اليومية والدوريات الأسبوعية والشهرية، فبراير ومارس ٢٠٠٨.

"عطالة"

■■ من منا لا يعجب من عجز الناطقين باسم المجتمع المدني بمعناه الحديث عجزهم عن إخراج الجماهير من لامبالاتها العجيبة بانتهاك أبسط حقوق الإنسان رغم قرنين من النهضة؟ ومن منا لا يعجب نفس الإعجاب أو أكثر من قدرة الناطقين باسم المجتمع المدني التقليدي على حصر تحريك الجماهير في ما يلهيها عن حقوقها الفعلية رغم قرنين من الصحوة؟ ألا يدعونا ذلك إلى الحيرة أمام الأمرين خاصة إذا ربطناهما بالحل الفعلي الذي لجأت إليه النخبتان. الحل الذي أفسد بطبيعته وبما يترتب عليه كل إمكانية لتحقيق الإصلاح بالفعل المدني تحقيقا سليما: فالحرب الأهلية بين التحديثيين المنحازين للمافيات الحاكمة وحماتهم والتأصيليين المنحازين للمافيات المعارضة ونفس الحماة وثمرتها استعانة الأولين بالقوى الأجنبية واستعانة الأخيرين بالجماهير لا يمكن أن تنميا فاعلية المجتمع المدني إلا في وهم أصحاب هذا الحل السائد حاليا.

ذلك أن مثل هذا الحل يؤول إلى القضاء المبرم على كل إمكانية لجعل التنافس القيمي الذي هو جوهر كل حيوية عمرانية يجري بصورة صحية وسلمية لتكون تعبيرا عن المجتمع المدني تعبيره الأساسي وأداة تحققه المبدع. فالاستعانة بالأجنبي لن يقوي قوى التحديث ولا قوى التأصيل بل هو سيسمها بسمة الخيانة خاصة والقوى الأجنبية لا يقتصر إفسادها للقيم الحديثة أو الأصيلة على استعمالها الخفي أداة لأجندتها بل هي مضطرة بمقتضى الظرف الخاص في علاقتها بنا إلى اللعب بالمكشوف الذي يحول كل النخب التحديثية والتأصيلية إلى عملاء لفرط ما تتميز به الأجندة من أهداف مباشرة تجعل القيم الحديثة والأصيلة تتحول إلى معاول تخريب لقيم الأمة المطابقة للقيم الكونية وليست مساعدة على تطورها الذاتي. وتزييف الوعي باللجوء إلى الماضي في ما يلهي عن المهمات التنويرية للقيم الدينية يؤدي حتما إلى ما نراه من غرق في قشور الهوية والغيبوبة عن شروط تنميتها وتطويرها تحقيقا للتطابق بين قيم حقوق الإنسان العاقل وقيم واجبات الإنسان المؤمن.

وحتى لا يعد كلامي هذا تحليقا في سماء النظريات التي تعتبر من الترف الفكري في مثل هذه الندوات فإني سأحاول فهم علل هذه العطالة أو علل تعويق المجتمع المدني. عللهما التي نستشفها من عمل مجتمعنا المدني ودور الناطقين باسمه بنوعيهما الحديث والتقليدي. ونحن نفترض أن هذه العلل لا تخلو من أن تعود إلى: ١- مقومات المجتمع المدني نفسه ٢- أو إلى الظرف المحدد لكيفية عمل الناطقين باسم هذه المقومات ولنطلق عليها اسم النخب القيادية لفعاليات المجتمع المدني.

قد تتهم هذه المحاولة بعيب مهني ينسب إلى صاحبها الميل إلى الإغراق في النظر الفلسفي المجرد. لكن المحاولة تعتمد بقصد على النظر الفلسفي لتخليص فكرنا من التلهف على العمل المباشر العمل الخالي من فهم الشروط التي توقفه إلى العلاج القويم فيبقى في ما يسميه أرسطو بتعجب العامي الأول جهلا بطبائع الأمور المقابل تمام المقابلة لتعجب العالم المدرك للحقائق. وسيكون هذا النهج قاعدتنا على الأقل في المسألة الأولى لان مفهوم المجتمع المدني ينتسب إلى تاريخ التصورات الأساسية في فكر الإنسان العملي من حيث الموضوع ولأن تعريفه ينتسب إلى تاريخ المناهج المنطقية الأساسية في فكر الإنسان النظري من حيث العلاج. فمسألة تحديد مفهوم المجتمع المدني من مسائل الفلسفة العملية موضوعا ومن مسائل الفلسفة النظرية منهجا بدءا بأفلاطون وارسطو وختما بهيجل وماركس ومرورا بالفارابي وابن خلدون مرورا تجاوز الأولين بنقدهما وأعد لنقد الثانيين بما تضمنه مما كان لا بد أن يغفلاه من أبعاد الثورة الكونية الإسلامية. ومن ثم فالفارابي وابن خلدون يعدان دليلينا في هذه المحاولة.

يمكن أن نحدد الظرف الذي تبرز بمقتضاه نخب المجتمع المدني العربي خاصة والإسلامي عامة بخطين متعامدين يحددان أربع خانات ممثلة لأصناف الفصام الذي أصاب نخب الأمة الناطقة باسم التعبير عن رهانات التنافس في العمران البشري.

فالخط الأول منهما يقسم النخب العربية (ومثلها كل النخب الإسلامية من غير العرب) عموديا إلى نحلتين لا تتعايشان إلا بمفهوم الحرب الدينية إيجابا من منظور إحداهما وسلبا من منظور الأخرى. ذلك أن العلمانيين هم أيضا فكرهم ديني بالسلب تماما مثل الدينيين الذين يمكن اعتبار فكرهم فلسفيا بالسلب. فما يثبته أحدهما لما يدعي الاستناد إليه يكتفي الثاني بنفيه فيكون كلاهما قابلا للتعريف بسلب الثاني. ومن ثم فكلاهما يتناسى أن الفكر البشري لا يمكن أن يخلو من البعدين الديني والفلسفي ليس فحسب بالمعنى الهيجلي للعلاقة التي تجعلهما متحدين بالمضمون ومختلفين بالشكل بل بمعنى اكثر عمقا. فالشكل الفلسفي لم يبق جدليا كما يدعي هيجل بل بات أصحابه يفضلون الشكل التأويلي والمضمون الديني لم يبق عقائد ذات صيغة عاطفية كما يدعي هيجل بل بات أهله يفضلون المضمون ذا النسق العقلي كما هو شأن كل الثيولوجيات. وبذلك فهما قد اتحدا شكلا ومضمونا ولم يبق مختلفا إلا الأسلوب.

أما الخط الثاني فيشق كلتا النحلتين أفقيا في العمق. فكلتاهما تنقسم بحسب تصور مقومات الفعل التاريخي حصرا إياها في بعدها المتعين في أعراض حصوله الأول أو فتحها على الممكن اللامتناهي في الحيز الفاصل بين الحاصل والمثال الأعلى من الوجود الفعلي. لذلك كان الأصلانيون صنفين: أحدهما يتصور أحد تعينات الإسلام أو ما تحقق منه في الماضي الإسلامي التعين الوحيد الممكن والثاني يراه قابلا لأن يتخذ أشكالا جديدة بحسب التدرج في الوصل بين مثله العليا وتاريخ تعيناتها. وينقسم العلمانيون مثلهم إلى صنفين: أحدهما يتصور أحد تعينات التحديث أو ما تحقق منه في قرون الغرب الأخيرة. التعين الوحيد الممكن والثاني يراه قابلا لأن يتخذ أشكالا أخرى بحسب التجارب اللامتناهية في المستقبل. والغالب على الساحة حاليا هو الصنف الأول من كلا الفريقين: وهما مصدر الحرب الأهلية العربية والحرب الأهلية الإسلامية.

أما الصنف الثاني منهما فهو لا يزال جنينيا في كلا فرعيه. والمفروض أن يكون فرعاه متحدين على الأقل بمقتضى الانفتاح على المستقبل مشروعا وعلى الماضي تأويلا. لكن المحدد الفعلي للحظتنا التاريخية لا يزال متمثلا في الصنفين الغالبين اللذين يعتبران



أبو يعرب المرزوقي

النخبة!

التاريخ محاكاة لأمر حاصل في ماضينا البعيد أو في ماضي الغرب القريب. وليس إبداعا لأمر لا يقبل التحديد النهائي مسبقا. فأصبح عمل التاريخ مستحيلا في مستوى التصور الرمزي ناهيك عن مستوى التحقيق الفعلي بما أصبح المثال ماضيا حاصلا والممثول تكرارا له وليس إبداعا لتصورة الرمزي أولا ولتحقيقه الفعلي ثانيا مع ما بين التصور الرمزي والتحقيق الفعلي من جدل متواصل جيئة وذهابا من أحدهما إلى الآخر، حتى يتطابق بعدا الحضارة الرمزي والمادي. وبذلك فإن النخب العربية من كل مجالات التقويم الخمسة تبرز على أرضية الشعب بوصفه منبع الجميع وأصل التقويم والتنخيب فتنقسم بحسب الخطين المتعامدين إلى الأحزاب الخمسة التالية بحسبان المجموعة مع أقسامها حتى وإن لم تكن من رتبتها:

حزب المحافظين الديني: تكرار أعراض التجربة الماضية من التاريخ الإسلامي.

حزب التحرريين الديني: المشاركة في فتح آفاق جديدة للفكر الديني..

حزب المحافظين العلماني: تكرار أعراض تجربة التحديث الغربية.

حزب التحرريين العلماني: المشاركة في فتح آفاق جديدة للفكر الفلسفي.

أما الحزب الخامس فهو حزب الأغلبية الصامتة التي تنبع منها النخب.

فكل الأحزاب السابقة تنسل من الحزب الخامس أو القسم التام من التصنيف بمجرد أن ينتقل البعض من الصمت إلى التعبير عن أحد أنواع القيم وما يتصل بها من تعارض المصالح بين المتنافسين عليها. لذلك كان الحزب الصامت الحزب الشامل الذي يغازله الجميع لاستمداد شرعية دعواه منه. أعني الرأي العام الذي له وجهان داخلي وخارجي مع تعاكس في تغليب الاستناد إلى الخارجي أو إلى الداخلي منه من حيث الإيجاب أو السلب. فالحزبان الدينيان يستندان إلى الرأي العام الداخلي إيجابا وإلى الرأي العام الخارجي سلبا. والحزبان العلمانيان يعكسان فيكون سندهما الموجب الرأي العام الخارجي وسندهما السالب الرأي العام الداخلي. وتلك هي آلية التنجيم (= اعتبره أو جعله نجما وللمعنى صلة بالمعنى الأصلي أعني الدجل التنبوئي عند المنجمين). فجعل أي مبدع أو مفكر نجما يكون إيجابا بمدح منتوجه أو سلبا بذمه. وهو عند النخب الدينية أهلي في المدح وأجنبي في الذم. أي إن من يمدحه المسلمون ومن يذمه الغرب من النخب الدينية يصبح نجما عند المنتسبين إلى الحزب الديني. والعكس بالنسبة إلى النخب العلمانية: يصبح العلماني نجما بمجرد أن يذمه المسلمون أو يمدحه الغربيون أو بحصول الأمرين.

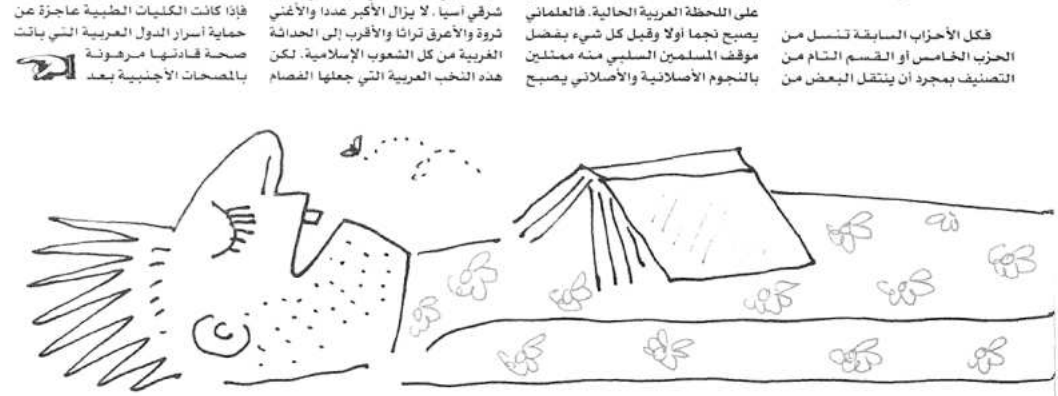
إن الفصام الثاني الذي يشق كلا الفريقين الأصلاني والعلماني هو الفصام الأصلي. إنه الفصام الذي يعنينا في محاولتنا فهم عقم المجتمع المدني العربي الحالي لكونه يفسر الفصام الفرعي الذي يقابل بين الأصلاني والعلماني فيغوص إلى أعماق آليات التنخيب المستلب الغالب على اللحظة العربية الحالية. فالعلماني يصبح نجما أولا وقبل كل شيء بفضل موقف المسلمين السلبي منه ممثلين بالنجوم الأصلانية والأصلاني يصبح نجما أولا وقبل كل شيء بفضل موقف غير المسلمين منه ممثلين بالنجوم العلمانية. لذلك فهما نخبتان متضامنتان جدا في هذه اللعبة التنجيمية التي برعوا فيها بالدجل على الرأيين العامين الأهلي والأجنبي. فصارت هذه اللعبة جوهر الأزمة الحضارية التي يعيشها المسلمون والعرب منذ قرنين: نخب زائفة تدعي ما ليس لها وخاصة منذ ذهاب الأجيال الأولى التي كانت محاولاتها واعدة والتي قتلها طاغوت الثورات المزعومة قومية الثورات التي وزعت السلطات بين النحل المذموسة والشلل الخدومة بشعار الطبقات المحرومة وبهار الشعوب المظلومة.

إن النوع الأول من الفصام هو النوع الأيسر على الفهم. فنحن نراه بالعين المجردة. ويمكن أن نعتبره الوجه الظاهر من أزمة الأمة الإسلامية كلها. أزمتها التي يعد النوع الثاني من الفصام عرضها الأهم. وقد تعين هذا العرض أتم تعين في النخب العربية لما لمقومي الثقافة العربية (الدين واللسان بمقتضى نصي الدين الإسلامي) من منزلة في تاريخ الأمة الإسلامية. وطبعا فهذه المنزلة يمكن أن تتبخر إذا لم نتداركها فنستفيد من الصحوة لاسترداد منزلتها الأصلية. فالنخب العربية تستمد منزلتها الكونية من دور العروبة في الإسلام ودور الإسلام في العالم. ولذلك فالعروبة، ولله الحمد، لا تزال هي مصدر أهم الرموز والمقومات الإسلامية في كل دار الإسلام. والشعب العربي، بخلاف كل ما يزعم في الإسلام غير العربي سواء كان في آسيا أو في جنوب شرقي آسيا، لا يزال الأكبر عددا والأغنى ثروة والأعرق تراثا والأقرب إلى الحداثة الغربية من كل الشعوب الإسلامية. لكن هذه النخب العربية التي جعلها الفصام العميق الذي نحاول توصيفه قبل الكشف عن دائه ووصف علاجه مترددة بين الأصولية الدينية والأصولية العلمانية انفصمت في العمق بحسب النوع الثاني الذي هو الفصام الأكثر تأثيرا على دور النخب لكونه يصيبها بالعقم الإبداعي في كل مجالات التقويم البشري.

في مجال القيم الذوقية: فكل الفنون العربية صارت نسخا مضحكة من الإبداع الغربي رغم أن من تأثر بآدابنا من ذوي الثقافة الإسبانية مثلا باتوا نماذج على الأقل في الرسم وأساليب القص.

في مجال القيم الرزقية: وكل الاقتصاديات العربية توابع هزيلة رغم أن الإمكانيات العربية كان يمكن أن تجعل الوطن قطبا عالميا لو وجهت الثروات السائلة التي تشجع العطالة والفساد إلى استثمارات منتجة تقضي على الجهالة والكساد. إذا كانت أغنى الأقطار العربية يمكن أن تفلس بين عشية وضحاها لأن رئيسا أمريكيا مهووسا يمكن أن يجمد رصيدها فهل نحتاج إلى دليل آخر؟

في مجال القيم النظرية: وكل الجامعات ومعاهد البحوث العربية لا تعدو أن تكون أضحوكات العصر، ما ورثناه منها عن الماضي التليد بالتقليد أو ما حاكته محاولات التجديد بالتوريد. ويكفي دليلا أهم تطبيقات العلوم في حكم كل إنسان سوي حتى الأمي: الطب. فإذا كانت الكليات الطبية عاجزة عن حماية أسرار الدول العربية التي باتت صحة قادتها مرهونة بالمصحات الأجنبية بعد





قرنين كاملين من التحديث فهل نحتاج إلى دليل آخر ؟

في مجال القيم العملية : وكل المؤسسات السياسية العربية لا تعدو أن تكون مهازل الدهر: إذا كانت أكثر الدول العربية شروعا في العلمنة، أعني الدول التي حكمتها الأحزاب القومية قد تبين من أكبرها أنه قد عاد بشعبه إلى العشائرية والقبلية المتقدمة حتى على الإسلام فهل تبقى حاجة لدليل؟

وفي مجال القيم الوجودية : وكل الفكر الديني والفلسفي العربي الحالي لا يحرك أي عمق من أعماق النفس البشرية الحائرة أمام أسرار الوجود لفرط تحوله إلى مضغ أيديولوجي ثقيل عششت فيه طحالب الفكر الكليل لخلو أصحابه من عميق الحدس وصحيح الدليل.

أمثلة من انحراف آلية

انتخاب النخب

إذا كنا قد أحجمنا عن ضرب مثال من الحالة الأولى (القيم الذوقية) ومن الحالة الأخيرة (القيم الوجودية) لتعين القصد في المجالين الأول والثاني. فالعلة هي كون فصام النخب فيهما بالذات بيانه هو مطلوب المحاولة بالقصد الأول لوضوح الضحالة التي آل إليها دور هذين النوعين من النخب في مسائل المجتمع المدني والرأي العام. ففيهما بالذات تعينت أزمة النخب العربية التي من المفروض أن تكون المحرك الفعلي للفعالية العميقة في العمران البشري، قصدت فعالية التحقق الوجودي والتلذذ به. فهي عرض المرض الذي ينخر المجالات الثلاثة الأخرى: الرزقي والعملي والمعرفي. ذلك أن هذه المجالات توابع المجال الأول (الذوقي) تبعية المدفوع للدافع. وهي كذلك توابع المجال الأخير تبعية القيمة المؤسسة للقيمة المؤسسة (الوجودي).

ولن تتبين هذه العلاقة المضاعفة إلا بعد أن نكتشف ما في الفكر المسيطر على هذين الميدانين من دجل وعجل أفقد الثقافة العربية أكبر ثرواتها إفقادا يعد ما حصل من نكبات في المجالات الثلاثة الأخرى (نكبات القيم الرزقية والقيم النظرية والقيم العملية) لعب أطفال بالقياس إلى ما حل بالقيم الذوقية والقيم الوجودية. ذلك أن المعادلة التي تحكم تراتب النخب بفرعيه السوي وغير السوي هي عينها المعادلة التي تحكم تراتب القيم في كل الحضارات وفي كل مراحل التاريخ. وهذا أحد القوانين الكلية التي نبحث عنها في كل محاولاتنا لمواصلة جهد ابن خلدون في فهم الثورة المحمدية بتغيير نظرية المعرفة والوجود الموروثة عن اليونان وبمحاولة تأسيس علوم الإنسان بصورة تدعم الثورة الميتافيزيقية الناتجة عن هذا التغيير.

ففي الترتيب العقيم تكون القيم الذوقية (المجال الأول) لعبة في يد نخب القيم الرزقية (المجال الثاني) خاصة وتكون نخب القيم الوجودية (المجال الخامس) لعبة في يد نخب القيم العملية خاصة (المجال الرابع) بسبب فشل نخب القيم النظرية (المجال الأوسط) في إبداع المؤسسات العلمية والمؤسسات العملية لبناء الوجود الرمزي والفعلي للعمران بالمنظومتين التربوية والسياسية (مقوما صورة العمران أو الدولة) بناءً يصور مقومي مادته أعني الإبداع الذوقي والإبداع الرزقي (مقوما مادة العمران أو المجتمع المدني). أما الترتيب السوي فهو في الوضعية المقابلة أعني في وضعية إبداع المؤسسات التي تحول دون هذين الاستتباعين. وقد اعتبر ابن خلدون النقلة من الترتيب السوي إلى الترتيب غير السوي بداية هرم الدولة وانحطاطها.

ورغم ما أشرنا إليه من غياب المنظور الموجب للماضي والمستقبل ومن ترتيب غير سوي للقيم، غيابين كلاهما يقتضي ضرورة عدم وجود نخب مبدعة ومؤثرة حقا، فإن لنا مع ذلك من النجوم الذوقية والرزقية والنظرية والعملية والوجودية ما لا يكاد يحصيه عد! فما السر يا ترى وكيف نفهم هذه المفارقة التي لا يكاد المرء يجد لها تفسيرا ؟ لذلك فقد اعتبرنا التعريف بمصدر تحديد النجومية في البلاد العربية منطلقا لتحديد بدايات الجواب عن هذا السؤال المحير. ويقتضي ذلك أن نميز بين وضعيتين جزئيتين كلتاهما مضاعفة بحسب المقابلة بين الظاهر والباطن ثم وضعية ذات صيغة جامعة:

١و٢- الوضعية في البلاد التي يكون فيها النفوذ الحقيقي للقوة المباشرة في الظاهر أو في الباطن (أي القوة العسكرية والبوليسية وهي الوضعية الغالبة في البلدان المتخلفة).

٣و٤- والوضعية التي يكون فيها النفوذ الحقيقي للقوة غير المباشرة في الظاهر أو في الباطن (أي القوة الاقتصادية والتقنية وهي الوضعية الغالبة في البلدان المتقدمة)

٥- والوضعية ذات الصيغة الجامعة أعني منطق النخب في العالم كله بسبب خضوع الوضعية الأولى للوضعية الثانية التي يستخدم فيها أصحاب القوة غير المباشرة الجميع:

١و٢- ظاهر وضعية البلدان المتخلفة وباطنها.

٣و٤- ظاهر وضعية البلدان المتقدمة وباطنها.

٥- الوضعية الصيغة الجامعة.

فقد ذكرنا أن النخب الذوقية أصبحت تابعة للنخب الرزقية. لكن ذلك ليس كذلك لأن المنتج الفني قد صار بضاعة سوقية (بمعنى الكلمة) فحسب بل لأن منتج العمل الفني أصبح مضطرا لبيع نفسه. فهو قد صار يعيش على غذاء صناعي يحقق له القطيعة مع الإدراك العادي للجمال ويضطره إلى تعويضها بتجارب إدراكية لا تحصل من دون مؤثرات كيماوية ثمنها تخلي المدمن عن حريته بالتدريج: أهمها الخمر والمخدرات والجنس والمآدب الباهظة. وطبعا فليس كلامي في هذا الأمر من باب إخضاع القيم الذوقية للقيم الخلقية. فعندما يكون المبدع الذوقي قادرا على ذلك بحيث يكون غنيا عن التنازل عن القيم الفنية ثمنا لإرضاء من يوفر له أدوات اللذة فلن يكون عندي مانع أصلا لاستمتاع الفنان بهذه المتع.

فكيف يستطيع السائلون وأبناء السبيل الحصول على مشروباتهم ومأكولاتهم في أفخر الفنادق إذا لم يدفعوا من حريتهم للأحزاب التي أفسدت من كان يمكن أن يصبح مبدعا ففرضت عليه منزلة الكدائين ؟ وفي الحالتين- سواء كان من الأثرياء أو من الكدائين- فإن محفزات الإبداع المزعوم التي لا يحيا المبدع الموهوم من دونها دليل قريحة تعمل بالمنبهات كعجوز العضلات أو بالدفع الوارد كالمحرك البارد. فكيف يكون ما انحط إلى منزلة البضاعة الكاسدة ثمرة لتجربة فنية صادقة؟ إن مثل هذه التجارب حتى إذا صدقت، فإنها لا تكون حقيقية إلا في حصولها الأول ومرة واحدة. أما إذا تكررت إدمانا فإنها لن تضيف للتجربة الشعورية إلا ثرثرة شعارية فيكون صاحبها بلسان أفلاطون كالأجرب يستمتع بحك بشرته الجرباء وليس مبدعا يرتفع بوجدانه إلى السماء.

وذكرنا كذلك أن النخب الوجودية (أي القيمين على الفكر الديني والفلسفي) أصبحت خاضعة للنخب العملية (من بيدهم السلطان السياسي) ليس فحسب لأن منتج العمل الوجودي صار بضاعة سوقية (بمعنى الكلمة) بل لأن منتج العمل الوجودي أصبح مضطرا لبيع نفسه لأنه صار يعيش على سلطان صناعي يحقق له القطيعة مع الإدراك العادي للجلال ليعوضه بتجارب إدراكية لا تحصل من دون مؤثرات دعائية باهظة الثمن: أهمها علامات الجاه والشهرة ومغالطة الجماهير الغارقة بالرموز المنافقة. وطبعا فليس كلامي في الأمر من باب إخضاع التجربة الوجودية للقيم الخلقية. فعندما يكون المبدع الوجودي غنيا عن التنازل عن القيم الوجودية ثمنا لإرضاء من يوفر له أدوات الشهرة هذه، فلن يكون عندي مانع أصلا لاستمتاع الفيلسوف أو رجل الدين بهذه المتع التي هي من جنس حكاك الأجرب. لكن كل سلطان رمزي ليس غنيا عن الاستناد إلى السلطان المادي ليس سلطانا أصلا فضلا عن أن يكون رمزيا. لذلك فبمجرد أن يفقد المثقفون متكأهم تراهم أذل الخلق وأكثرهم تذمرا بعد أن كانوا أشد الناس كبرا وأمشاهم تبخترا.

والمعلوم أن النخب الرزقية (المستحوذة على الاقتصاد) والنخب العملية (المستحوذة على السلطة السياسية)

أكثر الدول العربية شروعا في العلمنة، أعني الدول التي حكمتها الأحزاب القومية قد تبين من أكبرها أنه قد عاد بشعبه إلى العشائرية والقبلية المتقدمة حتى على الإسلام



الداخلية متداخلتان ومتناجيتان، فكلتاهما تابعة للأخرى مع غلبة تبعية الأولى للثانية في الظاهر خلال بداية العهود التي تحتاج إلى القوة المباشرة (قوة السلاح) وغلبة تبعية الثانية للأولى في الباطن خلال غايتها التي تحتاج إلى القوة غير المباشرة (قوة المال). ففي بداية العهد تكون القيم الرزقية تابعة للقيم العملية في الظاهر لأن برجوازيتنا إن صحت التسمية والنسبة وصلت إلى الثروة عن طريق السلطة بخلاف البرجوازية الغربية التي وصلت إلى السلطة عن طريق الثروة. والأمر كذلك لغياب الدور المؤثر للملطفات القوتين. فالملطف المدني (المجتمع المدني من حيث هو مصدر القيم: دور التنظيمات غير السياسية لحماية الحقوق المادية والمعنوية مثل النقابات والجمعيات) والملطف السياسي (والمجتمع السياسي من حيث هو مصدر الشرعية: دور الأحزاب أو العشائر أو الطوائف بحسب المجتمعات) كلاهما شبه معدوم. وفي غاية العهد تكون القيم العملية تابعة للقيم الرزقية في الباطن عندما يصبح للملطفات دور مهم وبعد أن تكون النخب السياسية قد استحوذت على الثروة الوطنية فتسعى للحفاظ على راهن الوضع (الستاتيكو) بلعبة دولة القانون والديموقراطية شرط النأي عن سؤال من انتقل من مد اليد للسؤال إلى ملء الجيب بالمال من غير مواريث أو أعمال.

وبذلك فالنخب الذوقية تكون في البداية تابعة بصورة غير مباشرة للنخب العملية بتوسط النخب الوجودية التي تعلل سلوكها والنخب الوجودية تكون تابعة بصورة غير مباشرة للنخب الرزقية بتوسط النخب الذوقية التي تعارض النخب الوجودية. ثم ينعكس الأمر في الغاية. لكن التداخل المحدد لتبعية القيم بعضها للبعض لا يقتصر على علاقات نخب الداخل بعضها بالبعض. لذلك فالمعادلة تحتاج إلى تدقيق التحليل. ففي البلدان المتقدمة التي تستتبع البلاد المتخلفة تكون القوة غير المباشرة هي الأساس مباشرة بشراء النخب السياسية وبصورة غير مباشرة بتوجيه الرأي العام تحكما في الآلية الديموقراطية بشراء النخب الذوقية والنخب الوجودية المتواطئتين معها من خلال إضفاء المشروعية على سلوكها. لذلك فينبغي أن نعكس في وضعية البلاد المتقدمة. إذ تكون النخب العملية هنا تابعة للنخب الرزقية مباشرة أو بتوسط دور النخب الذوقية والنخب الوجودية التي تعيش على ما ترميه لها من فتات لتؤثرا في الرأي العام وتسيطرا من ثم على المجتمع المدني في بعده الرمزي.

أما السيطرة على البعد المادي من المجتمع المدني فهي جزء من سلطان النخب الرزقية سواء كانت من أصحاب رأس المال ونوابهم أو من أصحاب القوة العاملة ونوابهم أو من النخب المتكلمة باسم هؤلاء أو أولئك من طحالب المثقفين والإعلاميين. ومن ثم فنخبنا تستمد نجوميتها من سلسلة نفوذية معقدة ومركبة يمكن وصفها على النحو التالي. فهي لا تستمد دورها من كونها مبدعة لما تتحدث باسمه فتسمى بالنسبة إليه. وليس ذلك لضآلة الإبداع فحسب بل لأن الإبداع لم يصبح مصدرا لمنزلة فاعلة في المجتمع فتمكن صاحبها من أن يكون ذا تأثير رمزي يحرك وذلك بسبب ما حل بالذائقة العامة من تبليد لعل أهم أسبابه النسخ المسيخة من الإبداع الحقيقي في الغرب وخاصة نسخ الأدب المسرح أو المسينم. ما تزال الذائقة العربية محكومة بالمفارقة التالية. فالنخب القديمة المؤثرة فقدت تأثيرها لزوال التأثير الرمزي الذي يعد أساس الدور الذي يؤديه فقهاء الشرع والمتصوفة ومتكلمو اللاهوت وشعراء البلاط. والنخب البديلة لم تصبح بعد مؤثرة لعدم شروع التأثير الرمزي للدور الذي يمكن أن يؤديه فقهاء الوضع والفنانون ومتكلمو الناسوت وشعراء المخاط. لذلك فإنه يمكن لإعلامي كذوب أو لمغنية طروب أو لراقصة لعوب أن يكونوا أكبر تأثيرا من كلا الصنفين. صنف النخب التي تدعي دورها فات أو صنف بدائلها التي تزعم أن دورها آت.

وإذن فليس من المصادفة أن احتاجت النخب التي تدعي أداء دور المثقف إلى الاتكاء على سلطان براني يكون سلطان النخب الرزقية أو النخب العملية الأهليتين أو الأجنبيتين. وذلك هو مفهوم الجاه بمعناه الخلدوني. بل إن النخب الذوقية والنخب الرزقية والنخب النظرية والنخب العملية والنخب الوجودية نخب يحددها ذوق ورزق ونظر وعمل. ووجود خمستها سلبي مصدرها لاستنادها إما إلى الماضي الأهلي المعارض لما بدأ ينبت من الماضي الغربي في مجتمعاتنا أو إلى الماضي الغربي المعارض لما بدأ يستعاد من الماضي الأهلي.

ومن ثم فالرأي العام المحدد تحديدا إيجابيا ليس هو الرأي العام الأهلي ولا حتى الرأي العام الغربي مصدر القيم في وطنه، بل هو المافيات الغربية التي تقاسم المافيات المحلية ثمرات الاستعمار الباطن (وهو استعمار بالنخب التي نوبها الاستعمار في إدارة مستعمراته السابقة) الذي ولى الاستعمار الظاهر. ولعل الشكل الظاهر من الاستعمار سيعود من جديد لأن أمريكا بدأت تخشى من التدخلات الخفية للقوى المنافسة. لم يعد التسيير عن بعد يكفي لانفتاح لعب القوى المحلية قريبا انفتاحه على الأقطاب الأربعة في ما تعتبره مجالاتها الحيوية من منطلق الاستعداد للعماليق الأربعة التالية: الصين وتوابعها والهند وتوابعها وروسيا وتوابعها وأوروبا وتوابعها. ولم يبق للرأي العام الأهلي إلا التحديد السلبي فضلا عن امتناع الوصول للرأي العام الغربي المبدع حقا للقيم في بلده.

ويكون هذا التحديد السلبي إما برفض ما بدأ ينبت من الماضي الغربي في مجتمعاتنا (قيم الحداثة وهي ماض لأن الحاضر الغربي محكوم بقيم أخرى فضلا عن كون الحاضر لا يحاكى لعدم استقراره وعدم تحدد خطوط قواه) رفضا يتأسس على تجميد قيم الدين في الشكل الذي حصل لها في ماضي المسلمين أو برفض ما بدأ يستعاد من الماضي العربي فيها (قيم الأصالة لأن القيم التي تحكم الحاضر مجهولة ومن ثم فتأثيرها مغيب فلا نعلم على وجه التحديد طبيعة القيم المؤثرة في حياتنا الخلقية لغلبة التكاذب الجمعي والنفاق في كل مجالات القيم الخمسة) رفضا يتأسس على تجميد قيم العقل في شكل التحقق الذي حصل لها في ماضي الغرب. ومعنى ذلك أن كلا الموقفين يجمد واقعا قد حصل (صورة عن الماضي الأهلي أو الأجنبي) فيحوله إلى مثال أعلى قاتلا بذلك الحاضر وحائلا دون أي تحقيق لمستقبل حر يتحدد عادة بالعلاقة بين واقع حي ومثال أعلى لم يتحقق سابقا حتى يكون الوصل بين الواقع الحي والمثال المطلق مغامرة وجودية فعلية وليس محاكاة لأعراض مجردة من تصورات ميتة لواقعين كلاهما شبع موتا.

قدمنا في هذه المحاولة أمثلة آليات تكون النخب ومنطق علاقتها بالرأي العام المحلي والدولي، أعني جوهر فعلها المدني. وكانت الأمثلة ذات بعدين تصوري وتاريخي يبينان التعامد بين خط الفصام العمودي (بين الأصولية الدينية والأصولية العلمانية) وخط الفصام الأفقي (بين العمل على علم بطبيعة الفعل التاريخي والتخبط للجهل بها). ولا أظن أحدا يناقش في ما زعمناه توصيفا لنخب المجالات القيمية الخمسة بحسب التحديد النظري والتمثيل التطبيقي. ويكفي أن نذكر بأن نخب القيم الرزقية (نخب الاقتصاد) ونخب القيم العملية (نخب السياسة) أمرهما بين للعيان ومن ثم فهو غني عن التمثيل. لا أحد يشكك في تبعيتهما أو في كونهما يستمدان النجومية سلبا (من لا ترضى عنه نخب مجاله في الغرب) أو إيجابا (من ترضى عنه نخب مجاله في الغرب) من القوى الاستعمارية. لا أحد يمكن أن يزعم أن رجال الأعمال في الوطن العربي يمثلون نخبة ذات إبداع قيمي في المجال الاقتصادي: ويكفي دليل واحد لبيان شرطي نفي كل إبداع في الحالتين.

فلو كانت نخب الرزق نخبا ذات قوة غير مباشرة مستقلة عن أصحاب القوة المباشرة (المافيات الحاكمة) لكانوا أول الساعين للتوحيد العربي على الأقل ليكون لهم قاعدة كافية لخوض صراع الحيتان في السوق العالمية في أي مادة للأعمال. لكنهم في الحقيقة إما ظل لأصحاب القوة المباشرة أو هم هم. فالفصل المحقق لشروط تقابل المصالح بين النخبتين لم يحصل بعد حصولا كافيا يمكن من العمل المستقل. لو كانوا نخبا ذات أفق يتجاوز الأعمال الحقيرة لكانت عيونهم بصيرة ولما بقيت أيديهم قصيرة! لو كانوا حقا نخبا مبدعة لأصبحت القوة

ليس من المصادفة أن احتاجت النخب التي تدعي أداء دور المثقف إلى الاتكاء على سلطان براني يكون سلطان النخب الرزقية أو النخب العملية

المباشرة تابعة لهم بدل أن يكونوا هم تابعين لها ومن ثم لخلقوا قوى سياسية تحقق الوحدة كما حصل في أمريكا سابقا وكما نراه يحصل في أوروبا حاليا وكما هو منطق كل الوحدات في التاريخ الإنساني. ولا نستثني من هذا المنطق الوحدات التي حققتها العقيدة الدينية. فالدين عندما يكون دينا صادقا وليس مجرد نفاق كما هو شأن الأديان المحرفة ومنها إسلامنا الرسمي، عندها يكون سعيا لإرث الأرض ومن ثم فلعامل القوة غير المباشرة دور الدافع الأساسي في تحقيق الوجود السياسي والحضاري للأديان. ولعل أهم مضامين الرسالة القرآنية في قصص الأنبياء بيان هذه الحقيقة التي لا جدال فيها: لا معنى للآخرة من دون مطيتها التي هي الدنيا إرثا لها وحماية من الفساد في الأرض ومن ظلم المستضعفين.

ولو كانت نخب العمل نخبا ذات قوة ذاتية وليست تابعة للمافيات الاستعمارية التي تستتبعهم للنخب الرزقية في بلادها (على الأقل بجعلها في خدمة الصفقات التي هي نهب مشترك ومنظم لثروات بلادنا) لكانوا أول الباحثين عن شروط استقلال القرار السياسي أعني الحجم الفعلي للإرادة، تماما كما فعلت نخب أوروبا التي تنازلت عن العقيدة القومية رغم وجود القوميات وجودا فعليا (تعدد اللغات والثقافات الأوروبية أكثر من عشرين لغة) في حين أن نخبنا السياسية هي أكثر النخب الساعية إلى خلق قوميات من عدم بإحياء ماض متقدم على الإسلام لم يعد إلا سلعة سياحية وبالنفخ في بقايا الاستعمار إلى حد تقسيم الوطن إلى جهات مناظرة لمناطق الاستعمار السابقة والتبعية اللاحقة.

ولتكن مسكة الختام الكلام على النخبة التي أنتسب إليها وأزعم الدراية بها أكثر من درايتي بالنخب الأخرى: النخبة النظرية التي ينبغي أن تكون قدر المستطاع محايدة في علاجها للمسائل حتى نتمكن من معرفة الأدواء وطلب الدواء. والداء في هذه الحالة هو عطالة فعالية المجتمع المدني في الحضارة العربية الإسلامية. لكن أعضاء هذه النخبة يتصورون أنفسهم باحثين أو علماء أو أساتذة جامعيين لمجرد كونهم لهم هذا الموقع في أشباه الجامعات وأشباه الدول التي تحكم أقطار الوطن رغم غياب الشروط الدنيا لهذه المهام الأساسية في العمران البشري. فأكثر هؤلاء تزعما للتنوير أكثرهم نفيا لشروط القيام الحضاري والتاريخي للأمم عامة وللأمة العربية خاصة ومن ثم لكل معنى يمكن أن ينسب إليه مشروع التنوير: تجاوز الحدود القومية بل والثقافية إلى الكونية المتوالية في الزمان والمتساوقة في المكان بخلاف ما يسعى إليه أشباه مفكرينا ممن يريدون العودة إلى قوميات شبعت موتا لمجرد أن ذلك يمدهم بمقفاز النجومية. إنهم يريدون أن يحققوا تحديثا فوقيا بحسب أيديولوجيات لم يستوعبوا لوازمها ومن ثم فهي غير مفهومة لهم لمجرد جهلهم بشروط تحقيقها في الواقع التاريخي الفعلي بحيث إن كل ما حصلوه من علم جعلوه وصفات معيارية للتحويل بديلا من التأويل بحسب الزعم الماركسي.

وفي حين يكون البحث العلمي عادة عملية صياغة متصلة التعديل لنماذج رمزية هدفها تحليل الموجود وتحقيق المنشود تجد المزعوم علماء في جامعاتنا ومعاهد البحث أكثر طوباوية من أكثر الناس جهلا بشرطي العمل على علم. فالعمل على علم يقتضي أن يعلم المرء الواقع الموجود وأن يخترع الطرائق والجسور الواصلة بينه وبين المثال المنشود بشرط أن يكون سلوكه من البداية منطلقا إلى الغاية، سلوكا مرتب المراحل ومصحوبا بالرؤية السابقة استعدادا للإنجاز وبالرؤية المصاحبة تجويدا له وبالرؤية اللاحقة نقدا تجاوزيا للتطوير حتى يتطابق النظر والعمل تطابقا، مهمة التقدم العلمي تضييق المسافة بين وجهيه.

أما أن يكون الواقع مجهولا تمام الجهل وأن يكون المنشود مجرد محاكاة لأمر هو بدوره معلوما علما سطحيا فهذا ليس عملا على علم لخلوه من شروط العلم النظري الممتحن والرؤية العملية المراقبة. لذلك فالأولى له أن يعتبر عين الفساد في الأرض. وما أوصى به ابن خلدون من ضرورة استبعاد المتصدرين للتنظير الذين هم من هذا النوع يبقى حسب رأيي أكبر حكمة قالها هذا العملاق الذي لخص في جملة واحدة عاهة المنظرين المقدمين على العمل السياسي من غير تجربة ولا علم حقيقيين. فيكون إدلاؤهم بدلوهم في الحياة أضغاث أحلام تقضي على الحقائق بالأوهام وذلك هو عين السقام الذي نعتبر نخبنا الجامعية التي لا تميز بين ترديد الشعارات والكلام دون خبرة ومعاناة للاجتهاد المبدع لتصورات الموجود وتوقعات المنشـود أعني لما لا يمكن للحضارات أن تقوم من دونه. ■

كتـــاب الـزاويــة

الكاتب المصرى

طه حسين

فى افتتاحية العدد الأول من مجلة «الكاتب المصرى» قال محررها طه حسين: ولكل أدب حى مقومان أساسيان، يكفل أحدهما له الثبات والاستقرار، ويكفل ثانيهما له النمو والتطور والارتقاء.

فهذه المجلة ستحرص أشد الحرص على العناية بهذين المقومين للأدب العربى، فتعنى بقديم هذا الأدب، تدرس تاريخه وتكشف أسراره وتحيى آثاره، وتعنى بالأدب الحديث الذى ينتجه الممتازون من كتاب الشرق العربى تذيعه وتدرسه وتنقده وتشجعه وتجعله غذاء لعقول العرب وقلوبهم وأذواقهم، وتهيئه لعقول غير العرب من أبناء الأمم الأخرى المتحضرة، بحيث يمكن أن ينتقل إلى اللغات الأوروبية المختلفة.

وستأخذ هذه المجلة نفسها بقانونين لن تحيد عنهما مهما تكن الظروف، أحدهما الشدة على نفسها وعلى كتابها وقرائها فيما تنشر وما تنقل من الفصول، فلن تقدم إلى قرائها إلا هذا الأدب الذى ينفق صاحبه فى إنتاجه الجهد العنيف والوقت الطويل.

القانون الثانى هو الحرية الواسعة الكاملة السمحة فيما تنشر وفيما تختار من آثار القدماء والمحدثين ومن آثار الشرقيين والغربيين، لا تنظر فى ذلك إلا إلى الفن الخالص وإلى قيم الثقافة العليا وما يحقق التعارف والتواصل بين الذين يمثلون هذه الثقافة من رجال الأدب والعلم والفن.

لقد رأس طه حسين تحرير مجلة «الكاتب المصرى» منذ صدورها فى أكتوبر ١٩٤٥ عن دار الكاتب المصرى للطباعة والنشر، وطوال صدورها فترة استمرت ثلاث سنوات حدد خلالها مفهوم الصحافة الأدبية فى محورين يستقطبان كل أبحاثها هما: العرض والنقد، عرض الفكرة الجديدة أو الكتاب أو الأثر القديم، ومن خلال هذا الاحتكاك بين العرض والنقد يرسم طه حسين مفهومه للصحيفة الأدبية أو الفكرية العامة، لإغناء الفكر العربى وتأصيله من خلال التعريف والتصحيح والتقويم فى النطاق الفكرى أو الخلقى على السواء.

وقد أعادت مكتبة الأسرة نشر مجلدات «الكاتب المصرى» عام ٢٠٠٣ بدراسة ومقدمة للدكتور عبدالعزيز شرف، واختارت «وجهات نظر» مقتطفات من المجلد الثامن.

هل ارتفع سعر النفط (؟!!)

138 $

حسين عبدالله

■■ تعالى الصياح فى العالم الصناعى الغربى وهو يرى السعر الاسمى Nominal price للنفط الأمريكى يتخطى حد الـ ١٠٥ دولارات للبرميل، بينما لم يتجاوز متوسط سعر برميل من سلة أوبك ORB، وهى مجموعة من النفوط ذات مواصفات فنية أدنى من النفط الأمريكى ٩٠ دولارًا على امتداد الربع الأول من العام الحالى ٢٠٠٨ . وسوف نبين فى هذه الدراسة الموجزة أن السعر الاسمى لنفط أوبك يمكن أن يصل الأن إلى ١٣٨ دولارا دون أن تلام عليه الدول المصدرة للنفط، لأنه حقها المشروع فى ضوء المبادئ التى تحدد العلاقة بين السعر الاسمى والسعر الحقيقى Price in real terms.

هذه هى الأسعار الاسمية التى يتركز الاهتمام حولها فيما يثار من حوار بالنسبة لأسعار النفط، بينما الأجدى أن يدور النقاش حول السعر الحقيقى، أى السعر بدولارات ثابتة القيمة بعد استبعاد ما طرأ عليه من عوامل التضخم النقدى والتغير فى سعر صرف الدولار الذى يتخذ أساسا لتسعير النفط، وأيضا بعد إضافة ما يستحقه النفط من علاوة خاصة اعترفت بها الصناعة وتضمنتها اتفاقيات دولية أبرمت بين الدول المصدرة للنفط وبين شركات النفط العالمية فى مستهل السبعينيات من القرن الماضى كما سنوضح فيما بعد.

وكان ربع القرن السابق على حرب اكتوبر ١٩٧٣ قد شهد صورة من صور التباين بين السعر الاسمى والسعر الحقيقى، إذ كان نصيب الدول المصدرة للنفط فى الشرق الأوسط من عائداته يتحدد قبل عام ١٩٥٠ بعائد مقطوع يدفع كإتاوة ويتراوح بين ١٠ و٣٠ سنتًا لكل برميل، فلما قبلت الشركات ـ تحت الضغوط المتزايدة. مبدأ مناصفة الأرباح، وصار سعر النفط الخام يتخذ أساساً لحساب تلك الأرباح منذ ١٩٥٠، اتجهت الشركات بحكم سيطرتها المطلقة على الإنتاج والتصدير والتسعير إلى تخفيض ذلك السعر خدمة لاقتصادات الدول الصناعية الغربية المستوردة للنفط ومساندة لها فى إعادة التعمير بعد الحرب العالمية الثانية. وفى ظل تلك السياسة انخفض سعر النفط العربى الخفيف من ١٨,٢ دولار للبرميل عام ١٩٤٧ إلى ١,٨٠ دولار عام ١٩٦٠ حيث بقى ثابتًا عند ذلك المستوى حتى مطلع السبعينيات من القرن الماضى.

وقد أفلحت أوبك خلال عقد الستينيات من القرن الماضى فى تثبيت أسعار النفط من حيث قيمتها الاسمية، إلا انها لم تفلح فى وقف تدهور الأسعار من حيث قيمتها الحقيقية. فبإنفاق حصيلة الصادرات النفطية على استيراد السلع والخدمات من الدول الصناعية الغربية كانت اقرب ما تكون إلى تبادل سلعى Barter trade ومن ثم اتجه معدل التبادل الدولى بين الجانبين Terms of trade لصالح الدول الصناعية نتيجة لانخفاض سعر النفط من ناحية، والارتفاع المطرد فى أسعار تلك السلع والخدمات من ناحية أخرى. وتوضيحا لذلك فقد ارتفع الرقم القياسى لأسعار الناتج القومى الإجمالى GNP لمجموعة الدول الصناعية الغربية من ١٠٠ إلى ٢٦٠ خلال الفترة ١٩٤٧ ـ ١٩٧٠ . وباستخدام المخفض المشتق من هذا الرقم القياسى GNP deflator يتضح أن سعر النفط الذى انخفض فى صورته الاسمية من ١٨,٢ دولار للبرميل إلى ١,٨٠ دولار خلال الفترة المذكورة قد انخفض أيضًا فى صورته الحقيقية إلى ٧٠ سنتًا للبرميل مقومة بدولارات عام ١٩٤٧ وذلك نتيجة لاتجاه معدل التبادل الدولى لصالح الدول الصناعية. بل إن نصيب الدول المصدرة للنفط لم يكن يزيد على ٥٠٪ من ذلك السعر بعد طرح التكلفة وفقًا لاتفاقية مناصفة الأرباح، وبذلك لم يكن هذا النصيب حتى أوائل السبعينيات يتجاوز ٣٠ سنتًا للبرميل مقومة بدولارات عام ١٩٤٧ وهى نفس القيمة التى كانت تلك الدول تتقاضاها كحد اقصى فى ظل نظام العائد المقطوع قبل إدخال مبدأ مناصفة الأرباح.

ومع تدنى السعر الاسمى والحقيقى للنفط على هذا النحو، ارتفع تدفق النفط العربى الرخيص لكى يغذى الصناعات الغربية المتحولة من الفحم إلى النفط من نحو مليون برميل يوميا عام ١٩٥٠ إلى ١٥ مليون ب/ى عام ١٩٧٠ ثم إلى ذروة عند ٢٢,٥ مليون ب/ى فى منتصف السبعينيات.

حرب أكتوبر تصحح الغبن

باستثناء فترة قصيرة فى مستهل السبعينيات تحسنت خلالها عائدات النفط تحسنًا طفيفًا بإبرام اتفاقيات طهران وجنيف الأولى وجنيف الثانية مما سيلى ذكرها فيما بعد، فإن التصحيح الحقيقى للغبن الذى كان يلحق بنصيب الدول المصدرة للنفط لم يتحقق إلا بفضل العبور المصرى لقناة السويس فى حرب أكتوبر ١٩٧٣. فالسعر الاسمى للنفط لم يكن يتجاوز قبيل الحرب ٣ دولارات للبرميل ، كما لم يكن نصيب الدول المصدرة للنفط يتجاوز دولارين.

وفى محاولة لتحسين الوضع عقد اجتماع وزارى استثنائى لدول أوبك فى فيينا يوم ١٥ سبتمبر ١٩٧٣ حيث تقرر أن تتفاوض الدول بصورة فردية أو جماعية مع الشركات لرفع الأسعار، وتحدد لبدء المفاوضات بين مجموعة دول الخليج والشركات فى فيينا يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٣ . وكانت المعارك على الجبهة المصرية مع إسرائيل قد سبقت هذا الموعد بيومين، ومع ذلك التقى مندوبو الطرفين فى الموعد المحدد حيث عرض ممثلو الشركات رفع السعر من ٣ دولارات إلى ٣,٢٥ دولار للبرميل، أى بزيادة ٢٥ سنتًا.

التصحيح الحقيقى للغبن الذى كان يلحق بنصيب الدول المصدرة للنفط لم يتحقق إلا بفضل العبور المصري لقناة السويس فى حرب أكتوبر ١٩٧٣. فالسعر الاسمى للنفط لم يكن يتجاوز قبيل الحرب ٣ دولارات للبرميل

وكانت نتائج المعارك على الجبهة المصرية قد أخذت تؤكد أن الجانب العربى سوف يفلح فى استرداد كرامته. ومع ما هو معروف من ارتباط أسعار النفط بالسيادة الوطنية وحرية الإرادة، اشتدت عزيمة المفاوضين العرب، ومعهم إيران، فرفضوا مقترح الشركات فى فيينا، وأدركت الشركات حقيقة ما يجرى فى ساحة القتال، وهو ما أصاب العالم بالذهول، فعادت تعرض رفع السعر إلى ٤٥,٣ دولار للبرميل. إلا أن فريق الخليج ـ الذى عزز الانتصار المصرى على أرض المعارك موقفه التفاوضى ـ رفض مرة أخرى اقتراح الشركات. عندئذ قام مفاوضو الشركات بالتشاور مع مجالس إداراتهم فجاءهم الرد بان الشركات لا تستطيع أن تذهب إلى أبعد من ذلك بدون التشاور مع حكومات الدول المستهلكة للنفط وهى أساساً المجموعة الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة.

وبعد أن توقفت المفاوضات يومين استطلعت الشركات خلالهما أراء عدد من الحكومات الرئيسية المستهلكة للنفط ومنظمة OECD، فيما إذا كان يجب عليهم تحسين الأسعار إلى الحد الذى يجعلها مقبولة من دول أوبك، جاء رد الحكومات سلبيا وبالإجماع تقريبا. عندئذ طلب ممثلو الشركات فى فيينا من دول أوبك يوم ١٢ أكتوبر تأجيل المفاوضات لمدة أسبوعين لإجراء مشاورات أخرى مع الحكومات المستهلكة للنفط. وكان الانتصار المصرى فى المعارك قد تأكد، فرفض وزراء الخليج الاقتراح وتوقفت المفاوضات.

وفى يوم ١٥ أكتوبر خرجت طائرة مصرية تحمل وفداً نفطيا مصريا برئاسة وزير البترول المصرى، ثم توقفت فى الرياض لكى يصعد إليها وفد نفطى سعودى، واتجهت بعد ذلك إلى الكويت حيث شهد فندق شيراتون بها أخطر القرارات التى نقلت السيادة كاملة على صناعة النفط إلى أصحابها الشرعيين.

بدأ الاجتماع يوم ١٦ أكتوبر بمشاركة وزراء النفط فى دول الخليج أعضاء أوبك، وهى السعودية والكويت والعراق والإمارات وقطر بالإضافة إلى إيران، حيث تقرر، من جانب واحد ولأول مرة فى تاريخ صناعة النفط، زيادة سعر النفط من ٣ دولارات إلى ٥,١٢ دولار للبرميل. ولم تشارك مصر علنًا فى هذا الاجتماع لأنها لم تكن عضواً فى منظمة

أخذت الأسعار فى التآكل تدريجيا خلال النصف الأول من الثمانينيات ثم انهارت فى عام ١٩٨٦ إلى ١٣ ,٥ دولار اسميا وإلى ٥,٥ دولار فى صورتها الحقيقية

أوبك. وكان القرار صادرا باسم المنظمة. ولكن مصر كانت تتحمل المسئولية الكاملة عن القرار بحكم انتصارها فى المعارك التى استردت الكرامة العربية. والتى استهانت بها الدول المستهلكة للنفط.

فى اليوم التالى (١٧ أكتوبر) عقد اجتماع لوزراء الدول العشر الأعضاء فى منظمة الأقطار العربية المصدرة للنفط (اوابك) وكانت مصر عضوا بها. ولأن الاجتماع كان يتسم بالصفة السياسية فقد اجتمعت الوفود تحت عنوان «مؤتمر وزراء النفط العرب» بدلا من الاجتماع العادى لمجلس وزراء المنظمة. وقد تقرر فى ذلك الاجتماع خفض إنتاج النفط فوراً بنسبة ٥٪ شهريا. ثم تقرر بعدها بأيام أن يكون الحد الأدنى للخفض ٢٥٪ مع الاستمرار فى الخفض الشهرى بنسبة ٥٪. وكان الخفض يستهدف فى الأساس مساندة السعر الذى ارتفع بقرار منفرد من المنتجين فى ظل الانتصار المصرى الذى حرر الإرادة العربية.

وكان مما شجع على رفع نسبة الخفض الابتدائى إلى ٢٥٪ أن نيكسون رئيس الولايات المتحدة أعلن يوم ٢٠ أكتوبر عن صفقة مساعدة عسكرية مقدارها ٢,٢ مليار دولار لإعادة تسليح إسرائيل. ومن ثم أعلنت المقاطعة النفطية لكل من الولايات المتحدة وهولندا التى تبنت موقفاً معاديا أثناء اجتماع السفراء العرب فى لاهاى. وأضيفت البرتغال إلى الدول المقاطعة لسماحها باستخدام مطاراتها فى إمداد إسرائيل بالمعدات العسكرية. غير أن المقاطعة النفطية العربية لم تلبث أن أخذت فى التراخى وتلاشت إلى حد كبير فى نهاية مارس ١٩٧٤ عندما تم رفعها بالنسبة للولايات المتحدة .

وهكذا تأكد منتجو النفط، بفضل الانتصار المصرى فى حرب أكتوبر، أنهم لن يعاملوا على أنهم جزء ثانوى فى الاقتصاد الدولى الذى تسيطر عليه المجموعة الصناعية الغربية وشركاتها النفطية الكبرى. كذلك تأكدت هذه الثقة بالنفس بعد أن قبلت الشركات صاغرة زيادة الأسعار التى تقررت فى اجتماع ١٦ أكتوبر وساندتها قرارات المقاطعة بتقليص المعروض دون بدائل فى أسواق النفط. وكانت هذه هى المرة الأولى التى ينجح فيها أى تجمع لمنتجى المواد الأولية فى العالم الثالث فى السيطرة على مواردهم الطبيعية بمثل تلك الصورة الحاسمة. ولما طلبت الشركات عقد جلسة فى فيينا فى أواخر نوفمبر ١٩٧٣ مع ممثلى الدول المصدرة للنفط من أجل «استيضاح» السياسة السعرية الجديدة، أصرت منظمة أوبك على ألا تكون الجلسة بأى حال جلسة مفاوضات، وأنه مهما يكن هيكل الأسعار فى المستقبل، فإنه سيتحدد بقرارات منفردة من المنظمة . وليس من أية جهة أخرى.

وتأكيدا لهذا الموقف اجتمع وزراء الخليج أعضاء أوبك فى طهران يومى ٢٢ ـ ٢٣ ديسمبر ١٩٧٣ حيث تقرر رفع سعر النفط مرة ثانية إلى ١١,٦٥ دولار للبرميل ساريا من أول يناير ١٩٧٤، أى بزيادة السعر إلى أربعة أمثال ما كان عليه قبيل نشوب المعارك. كما تجاوزت الزيادة الصافية (٨,٦٥ دولار) عشرين مثل ما عرضته الشركات (٤٥ سنتا) أثناء التفاوض معها فى فيينا بينما المعارك تدور على الجبهة المصرية.

توالت بعد ذلك القرارات النابعة من السيادة الوطنية التى استردتها الدول النفطية تحت مظلة انتصارات أكتوبر. فقد كانت اتفاقية المشاركة التى أبرمت مع الشركات عام ١٩٧٢ تتيح للدول النفطية حق تملك ٢٥٪ من مرفق إنتاج النفط الخام على أن ترتفع تلك النسبة إلى ٥١٪ بعد عشر سنوات أى فى عام ١٩٨٢ . ولكن بدلاً من انتظار السنوات العشر، استطاعت دول الخليج أن ترفع نسبة المشاركة فى مستهل ١٩٧٤ إلى ٦٠٪ وبذلك صارت لها اليد العليا فى إدارة الشركة. وتلى ذلك ـ كما هو معروف ـ سلسلة من القرارات والإجراءات التى انتهت بالتملك الكامل لكافة المنشآت النفطية القائمة على أرض الدول النفطية.

وهكذا جاءت المحصلة النهائية لتداعيات حرب أكتوبر ممثلة فى إعادة هيكلة صناعة النفط بحيث انتقلت السيطرة الكاملة على مقدرات إنتاج النفط وتصديره إلى أصحابه الشرعيين، وارتفعت بذلك إيرادات تصدير النفط فى



الدول العربية المصدرة للنفط من نحو ١٤ مليار دولار عام ١٩٧٢ إلى نحو ٧٥ مليار دولار عام ١٩٧٤ ثم تصاعدت لتبلغ ٩١ مليار دولار عام ١٩٧٧ قبل أن تقفز إلى ١٤٦ ملياراً عام ١٩٧٩ وإلى ٢١٣ ملياراً عام ١٩٨٠ إثر قيام الثورة الإيرانية.

كم السعر الآن؟

دامت السيطرة العربية فى مجال النفط عبر النصف الثانى من سبعينيات القرن الماضى، ثم تعززت تلك السيطرة بالثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ فارتفع السعر الاسمى إلى ذروته عند ٣٢ دولاراً عام ١٩٨١ وإن كان لم يتجاوز فى صورته الحقيقية نحو ١٥,٥٥ دولار، معبراً عنها بدولارات ١٩٧٣.

ومع الوهن الذى أصاب التضامن العربى وانعكس على ما تتمتع به الدول النفطية من السيطرة على أسعار النفط، ثم نجاح الدول الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة فى وضع خطط وبرامج لاستعادة سيطرتها على تسعير النفط، أخذت الأسعار فى التآكل تدريجيا خلال النصف الأول من الثمانينيات ثم انهارت فى عام ١٩٨٦ إلى ١٣,٥ دولار اسميا وإلى ٥,٥ دولار فى صورتها الحقيقية.

وقد استمرت الأسعار الحقيقية تراوح حول هذا المعدل، وإن تراوحت اسميا حول ١٨ دولارا، حتى مطلع ٢٠٠٤ عندما تكشف عجز الاستثمارات النفطية عن توسيع القدرة الإنتاجية بحيث تواجه الزيادة غير المسبوقة فى الطلب العالمى على النفط، وقد اقترن بذلك الاختلال فى آليات السوق العالمية للنفط احتلال الولايات المتحدة للعراق وما ارتبط به من توترات جيوسياسية فى منطقة الخليج التى تضم ثلثى احتياطيات العالم من النفط، ومن ثم استمرت قفزات السعر الاسمى من ٢٨ دولاراً عام ٢٠٠٣ إلى ٣٦ دولاراً عام ٢٠٠٤ وإلى ٥٠ دولاراً عام ٢٠٠٥ وإلى ٦١ دولاراً عام ٢٠٠٦ و٦٩ دولاراً عام ٢٠٠٧، ثم ٩٠ دولاراً خلال الفترة من يناير ٢٠٠٨ للآن.

وهنا يثور السؤال: ما هو السعر الحقيقى للنفط وما هو السعر الاسمى الذى يعبر عنه فى الوقت الحاضر؟

فى تقديرنا أن السعر الحقيقى للنفط يمكن أن يتحدد فى ضوء ثلاثة مبادئ سبق إقرارها فى اتفاقات نفطية دولية، وهى بإيجاز:

(١) أقرت اتفاقية طهران التى أبرمت بين أوبك وشركات النفط العالمية فى مستهل ١٩٧١ مبدأ ارتفاع سعر النفط بمعدل ٢,٥٪ سنويا لمواجهة التضخم.

(٢) كما أقرت الاتفاقية المذكورة مبدأ زيادة مقدارها ٥ سنتات سنويا كعلاوة خاصة باعتبار النفط ثروة ناضبة يتسارع نضوبها بازدياد الطلب عليها مما يجعلها تستحق هذه العلاوة التى تستمد جذورها من القانون الأمريكى الذى كان يمنح شركات النفط إعفاء ضرائبيا عرف باسم «مسموحات النضوب» Depletion Allowance لتشجيعها على الاستكشاف وإحلال احتياطيات جديدة محل ما ينضب منها. أما فى حالة الدول المصدرة للنفط فان تلك العلاوة الخاصة تستمد شرعيتها من الزيادة المطردة فى الطلب العالمى على النفط والذى يؤدى إلى النضوب المتسارع لاحتياطياته ومن ثم ينبغى تعويض الدول المصدرة للنفط، وأغلبها دول نامية تعيش على استهلاك موردها الرئيسى وهو النفط الذى لا يتجدد مهما طال الزمن. وكانت السنتات الخمس فى اتفاقية طهران تعادل ٢,٥٪ من سعر النفط الذى كان يتراوح حينذاك حول دولارين للبرميل.

ومع أن اتفاقية طهران لم تعد سارية إلا أن مبدأى الزيادة السنوية لمواجهة التضخم والتعويض عن تسارع النضوب نتيجة للزيادة المطردة فى الطلب العالمى على النفط مازالا يصلحان أساساً لتدرج السعر حفاظا على قيمته الحقيقية.

(٣) كذلك أقرت اتفاقية جنيف الأولى التى أبرمت مع الشركات عام ١٩٧١ مبدأ تصحيح سعر النفط تبعاً لما يطرأ على قيمة الدولار، الذى يستخدم لتسعير النفط، من تغيرات فى مواجهة عدد من العملات الرئيسية. وبمقتضاها زيدت الأسعار بنحو ٨,٥٪ اعتباراً من ٢٠ يناير ١٩٧٢ عقب صدور قرار تعويم الدولار فى ١٥ أغسطس ١٩٧١ وما تبعه من تخفيض قيمته رسميا فى ١٧ ديسمبر ١٩٧١ . فلما خفضت قيمة الدولار للمرة الثانية فى ١٢ فبراير ١٩٧٣ أبرمت اتفاقية جنيف الثانية فى يونيو ١٩٧٣ حيث زيدت بمقتضاها الأسعار بنحو ١١,٩٪ مع تصحيحها شهريا تبعاً لتقلب العملات.

هذه هى المبادئ الثلاثة التى ينبغى اعتمادها لتقدير معدل الزيادة السنوية لتدرج السعر الاسمى للنفط حفاظا على قيمته الحقيقية وتعويضا عن نضوبه السريع.

وقد قامت أوبك بتقدير أثر عاملين من هذه العوامل الثلاثة، وهما عامل التضخم وعامل انخفاض سعر الدولار المستخدم فى تسعير النفط، ومن ثم انتهى هذا التقدير إلى أن السعر الاسمى الذى بلغ فى عام ٢٠٠٥ نحو ٥٠,٦٤ دولار لم يتجاوز بعد استبعاد أثر التضخم وانخفاض قيمة الدولار ١٠,٤١ دولار معبرا عنها بدولار ١٩٧٣ الذى صححت خلاله الأسعار بفضل انتصار أكتوبر وارتفعت إلى ١١,٦٥ دولار. كذلك بلغ السعر الاسمى عام ٢٠٠٦ نحو ٦١,٠٨ دولار بينما لم يتجاوز السعر الحقيقى بعد استبعاد أثر التضخم وانخفاض قيمة الدولار ١٢,٢٢ دولار معبراً عنها بدولار ١٩٧٣ .

ومما تقدم يتضح أن السعر الحقيقى للنفط باستبعاد عاملى التضخم وانخفاض قيمة الدولار لم يعد يتجاوز خمس السعر الاسمى (٢٠٪ من السعر الاسمى).

غير أن تقديرات أوبك فاتها أن تدخل أثر المبدأ الثالث الذى أقرته اتفاقية طهران وهو زيادة السعر بمعدل ٢,٥٪ سنويا فى المتوسط للتعويض عن النضوب المتسارع استجابة لمطالب مستهلكى النفط، وخاصة الدول الصناعية الغربية التى لم يتردد قادتها، وفى مقدمتهم الرئيس بوش، فى المطالبة علنا بأن تقوم أوبك بزيادة إنتاجها تخفيفاً لحدة ارتفاع السعر. وهكذا يتركز اهتمام مستهلكو النفط حول المطالبة بخفض الأسعار الاسمية التى تتضخم كالبالون بدلاً من التركيز على الأسعار الحقيقية التى تقلصت إلى خمس الأسعار الاسمية بتفعيل عاملين فقط من العوامل الثلاثة التى تحكم تقديرها، وهنا تبدو منطقية المبدأ الثالث وهو التعويض عن النضوب المتسارع الذى سبق إقراره فى مستهل السبعينيات، وصار الآن أجدر بالتطبيق فى ضوء الظروف الراهنة، والتى تنذر بأن العالم مقبل على فترة تشح فيها الإمدادات النفطية ويختل التوازن بين محدودية تلك الإمدادات والزيادة المطردة المتسارعة فى الطلب العالمى على النفط.

السعر الذى يجأر بالشكوى منه المستهلك النهائى فى الدول الصناعية المستوردة للنفط كان ومازال يتضمن ضرائب تصل إلى أكثر من ٧٠٪ تقتنصها خزائن تلك الدول

وللتوصل إلى تقدير السعر الحقيقى للنفط بإعمال المبدأ الثالث، نبدأ بتصعيد السعر الأساسى الذى صححت به أسعار النفط فى ظل انتصار أكتوبر وهو ١١,٦٥ دولار بمعدل ٢,٥٪ سنويا فى المتوسط عبر ٣٥ عاماً (١٩٧٣ - ٢٠٠٨)، بذلك كان ينبغى أن يبلغ السعر الحقيقى فى الوقت الحاضر نحو ٢٧,٦٥ دولار للبرميل، معبراً عنه بدولارات ١٩٧٣ ومتدرجاً فى الارتفاع بالمعدل المذكور. وإذ لا يتجاوز السعر الحقيقى خمس السعر الاسمى كما أوضحنا، فإن السعر الاسمى الذى كان ينبغى أن يصل إليه سعر النفط فى عام ٢٠٠٨ لا يقل عن ١٣٨ دولاراً للبرميل من سلة أوبك، ويمكن أن يتجاوز هذا المستوى بالنسبة للنفط الأمريكى الذى يتمتع بمواصفات فنية تتفوق على متوسط نفوط أوبك.

فى ضوء هذا التفسير المنطقى لتدرج سعر النفط، والذى يتمشى مع القفزات التى شهدتها عبر السنوات الـ ٣٥ الماضية أسعار السلع والخدمات التى تستوردها دول أوبك من الدول الصناعية الغربية، ينبغى أن تقنع تلك الدول بما بلغته أسعار النفط والتى تآكلت من حيث قيمتها الحقيقية منذ انهيارها فى عام ١٩٨٦ . كذلك ينبغى أن تراجع تلك الدول إسرافها فى استهلاك مصادر الطاقة الحفرية وأهمها النفط والذى من شأنه تكثيف الاحتباس الحرارى الذى يهدد البشرية بمخاطر جسيمة. وكمثال على عدم الاكتراث بغير مصالحها فإن دولة كالولايات المتحدة والتى تعتبر مسئولة عن ربع الاحتباس الحرارى عالميا مازالت تصر على عدم الانضمام لبروتوكول كيوتو الذى يستهدف تحجيم المنبعثات الملوثة للغلاف الجوى وتخفيف حدة الاحتباس الحرارى حماية البشرية.

ولا يفوتنا أخيراً أن نشير إلى أن السعر الذى يجأر بالشكوى منه المستهلك النهائى فى الدول الصناعية المستوردة للنفط كان ومازال يتضمن ضرائب تصل إلى أكثر من ٧٠٪ تقتنصها خزائن تلك الدول، وكان الأجدر بها إذا رغبت فى التخفيف عن مواطنيها أن تعيد النظر فى تلك الضرائب بالتخفيض وهو ما تستطيع خزائنها أن تتحمله دون صعوبة. ■

وطـــأة التـــاريخ غيــر المحتمــلة..

مـــــــنى أنيـــــس

■■ «واحة الغروب» أحدث روايات بهاء طاهر التى فازت بالجائزة الدولية للرواية العربية فى أول دورة لها الشهر الماضى، عمل روائى كبير لكاتب كبير. فهذا الكاتب الذى قد يخدع القارئ للوهلة الأولى فيظن من فرط سلاسة أعماله الأدبية أنها اندفعت تلقائيا من قلمه دون جهد أو عناء يذكر، هو واحد من أكثر كتاب العربية المعاصرين وعيا بما يكتب وتأملا للكيفية التى يكتب بها، وواحد من أشدهم صبرا على دروب الكتابة الفنية الوعرة. بل إن النظرة السريعة على أعماله القصصية تكشف على الفور أننا أمام كاتب شديد التدقيق فيما يكتب، لا يتعجل النشر قبل أن يطمئن تماما إلى اكتمال عمله على كافة المستويات.

أنتج بهاء طاهر على مدى ما يقرب من أربعة عقود، هى عمر مسيرته الإبداعية، أربع مجموعات قصص قصيرة وست روايات، يفصل بين كل عمل وآخر أربع سنوات فى المتوسط، باستثناء الفترة القصيرة ما بين أعوام ١٩٨٣ و١٩٨٥ التى شهدت نشر روايتين ومجموعتى قصص قصيرة، ومع ذلك فإن هذه الأعمال الأربعة جاءت بعد فترة توقف طويلة دامت ١١ عاماً لم ينشر خلالها بهاء طاهر شيئاً. وواحة الغروب، التى أتم الكاتب كتابتها أواخر عام ٢٠٠٦، هى الرواية السادسة له بعد «شرق النخيل» ١٩٨٣، «قالت ضحى» ١٩٨٥، «خالتى صفية والدير» ١٩٩١، «الحب فى المنفى» ١٩٩٥ و«نقطة النور» ٢٠٠١.

ورحلة بهاء طاهر مع الكتابة القصصية، والتى بدأت منذ أوائل الستينيات من القرن الماضى، رحلة تستحق التأمل. ولعل أول ما يلفت الانتباه فى هذه الرحلة المثيرة هو فترة التوقف الطويلة التى امتدت مابين تاريخ نشر مجموعته الأولى «الخطوبة» عام ١٩٧٢ وتاريخ نشر روايته الأولى «شرق النخيل» على حلقات فى مجلة صباح الخير عام ١٩٨٣. بل إن اللافت أكثر فى هذا الأمر هو التحول المثير من كاتب قصة قصيرة طليعى ينشر أعماله فى مجلات أدبية متخصصة ومحدودة الانتشار، إلى روائى يختار نشر روايته مسلسلة فى الصحافة الشعبية. وأظن أن هذا التوجه الجديد لم يكن محض مصادفة، وإنما كان اختيارا واعيا جاء بعد طول تدبر لأهمية التواصل مع جمهور أوسع من القراء، بل قد أغامر بالقول إن بهاء طاهر باختياره مجلة صباح الخير ربما كان يسعى للوصول إلى جمهور له نفس خصائص الجمهور الذى أقبل على روايات إحسان عبد القدوس فى الستينيات من القرن الماضى - فى نفس مجلة إحسان عبد القدوس.

ولعلنى أتوقف هنا لاعترف بأننى أدمنت قراءة قصص وروايات إحسان عبد القدوس فى منتصف الستينيات، وبأننى بعد أن تعرفت على أعمال أدبية أخرى أكثر تعقيدا وأقل شعبية من قصصه أصبحت أخجل من الجهر بهذه الحقيقة أمام أصدقائى المثقفين، حتى وقعت فى منتصف السبعينيات أثناء التحضير لأطروحة ماجستير فى سوسيولجيا الأدب على نص للمفكر الإيطالى انطونيو جرامشى يتحدث فيه عن التعسف الشديد فى التقليل من شأن القيمة الأدبية للأعمال واسعة الانتشار لمجرد أن الجمهور العريض يقبل عليها، وينبه لأهمية دراسة ظاهرة الروايات المسلسلة.

ولا أستطيع أن أجزم على وجه الدقة إن كان بهاء طاهر قد توصل لقناعة مماثلة لقناعة انطونيو جرامشى خلال السنوات الطويلة ما بين ظهور مجموعة «الخطوبة» وكتابة رواية «شرق النخيل»، ولكننى ألمح هما مشابها وراء اتجاهه للرواية والأسلوب الذى اختاره لروايته الأولى. ولعله من اللافت للانتباه هنا أن بهاء طاهر كاتب القصة القصيرة شديدة الكثافة والتقشف، عندما اتجه لكتابة الرواية اختط لنفسه مسارا جديدا يبتعد عن عالم قصصه القصيرة المألوف والمفتوح على احتمالات لا نهاية لها.

ففى قصة «الخطوبة» مثلا، التى نشرها بهاء طاهر أول مرة فى مجلة صباح الخير عام ١٩٦٨، لا شىء ذا بال يجرى على مستوى الحدث، فنحن أمام بطل نموذجى من أبطال قصص الستينيات (بطل ضد) فى طريقه إلى منزل زميلته فى العمل بعد أن اتفق معها على التقدم لخطبتها:

«كنت قد اعتنيت بكل شىء...... أخذنى صديق مجرب إلى حلاق مشهور قص شعرى وصففه ودلك ذقنى وتقاضى جنيها... وبعد ذلك اشترينا ربطة عنق حمراء غالية وأزرارا فضية للقميص. وفى النهاية عندما وقفت أمام المرآة أصبحت وكأنى شخص غريب(...) تعجب البواب من هيئتى وسألنى وهو يضحك إن كنت ذاهبا لأخطب. فقلت له إن عندى موعدا مهما فى البنك وبغير سبب أعطيته خمسة قروش فنظر إلىّ باستغراب. قلت له أن يدعو لى لأننى أنتظر ترقية. فشكرنى ورفع يديه إلى السماء، وتمتم، وارتبكت، وخرجت من الباب بخطوات مسرعة ولسعنى الهواء فى وجهى فعرفت أن درجة حرارتى مرتفعة. وبينما كنت فى التاكسى بدأ قلبى يدق بشدة، وتأكدت أن كل الكلمات التى أعددتها قد ضاعت وأننى لن أعرف أن أقول شيئا لأبيها بعد عبارة مساء الخير. وبدأ العرق».

وعندما يصل بطل القصة إلى شقة أهل الحبيبة ويلتقى بالأب يتصاعد التوتر تدريجيا على المستوى اللفظى، حيث يجد بطلنا نفسه وسط محاكمة عبثية يقيمها الأب له تنتهى باتهامه بأنه تورط فى علاقة آثمة بزوجة خاله عندما كان يقيم مع ذلك الخال أثناء دراسته الجامعية. وكلما حاول البطل الدفاع عن نفسه، كلما ازدادت حدة الحوار وأوغل الأب-المحقق فى أسئلته الجارحة والمهينة على نحو يذكرنا بمسرحيات العبث، بل وبمسرحيات هارولد بنتر على وجه الخصوص حيث يحل التوتر المتصاعد على مستوى اللغة محل الحدث الذى يكاد يغيب.

ولعل هذا الاستشهاد الطويل بقصة «الخطوبة» يفيد فى إيضاح ما قصدت عندما قلت إن بهاء طاهر ربما توصل فى الأعوام الطويلة التى تفصل ما بين تاريخ نشر قصص مجموعة «الخطوبة» التسع وتاريخ كتابة رواية «شرق النخيل» إلى قناعة ما بأهمية تعديل مسار عمله الإبداعى. فبهاء طاهر الذى تبنى الصوت الخافت فى قصص الستينيات وأوائل السبعينيات، وما يتبع ذلك من تغييب الحدث السياسى المباشر الغاطس كجبل الجليد تحت الماء، عندما عاد إلى الكتابة فى الثمانينيات عاد برواية سياسية بامتياز.

فشرق النخيل رواية عالية الصوت تدور أحداثها فى أوائل السبعينيات إبان ثورة الطلبة فى مصر، تحكى عن مظاهراتهم واعتصامهم فى ميدان التحرير، وعن مناصرتهم للثورة الفلسطينية ومطالبتهم بحرب التحرير الشعبية. وتقيم مقابلة مباشرة بين اغتصاب فلسطين واغتصاب قطعة أرض فى الصعيد تقع شرق النخيل، وتدعو لعدم الاستسلام للمغتصب حتى وإن أدى ذلك للموت:

«يقولون أنه عندما أقترب منهم مد العوضى له ورقة وقال لعمك وقع هذه الورقة فلا يعود بيننا وبينك شىء. لكن عمك مشى كأنه لم يسمع فصوبوا البنادق(...) وعندما مد عمك يده ليبعد (ابنه) حسين ظننوه سيخرج مسدسه من جيبه فانطلق الرصاص وانكفأ الابن يحضن الأب والأب يحضن الابن والدم يجرى مع الدم. رجع دم الابن إلى أبيه ورجعا معا لتراب الأرض متوضئين طاهرين».

ترى ما الذى حدا ببهاء طاهر إلى اتخاذ هذا القرار باستئناف الكتابة بأسلوب مغاير لأسلوبه القديم؟ أظن أن التغير العميق فى المناخ السياسى بعد موت جمال عبد الناصر ووصول أنور السادات إلى سدة الحكم وانقلابه على الكثير من التوجهات السياسية والاجتماعية للحقبة الناصرية، وبالذات فيما يتعلق بالقضية الوطنية، كان له دخل كبير فى هذا الأمر، خاصة أن بهاء طاهر وجد نفسه فى منتصف السبعينيات مبعدا عن وظيفته فى الإذاعة المصرية التى التحق بها عام ١٩٥٧، الأمر الذى دفع به إلى مغادرة مصر والعمل بالخارج فترة امتدت قرابة العشرين عاما، امضى بهاء طاهر خمسة عشر عاماً منها فى سويسرا.

وأظن أن هذه الإقامة الطويلة فى أوروبا قد أكسبت بهاء طاهر حساسية شديدة الخصوصية والحدة لما يوحد البشر وما يفرقهم، وللعواقب الإنسانية والثقافية الوخيمة لهيمنة الغرب المتقدم صناعيا، ولآليات القهر والخضوع المصاحبة لعملية الاستعمار- القديم منه والجديد - الأمر الذى دفع ببعض النقاد إلى إدراجه ضمن كتاب مدرسة ما بعد الكولونيالية. ولكن، وبغض النظر عن التصنيفات النقدية، فإن بهاء طاهر أحد الروائيين العرب القلائل الذين استطاعوا معالجة موضوعة الخراب

واحة بهاء طاهر

بهاء طاهر واحد من أكثر كتاب العربية المعاصرين وعيا بما يكتب وتأملا للكيفية التى يكتب بها



الروحى الناتج عن علاقات الهيمنة والتبعية تلك بتقنية فنية عالية وشفافية أسلوبية تكاد ترقى فى بعض الأحيان إلى مرتبة الحدس الصوفى.

وقد تناول بهاء طاهر هذه العلاقة الإشكالية بين غرب يظن أن تفوقه العلمى والاقتصادى يعنى أيضا تفوقا حضاريا وإنسانيا، وشرق يتعثر فى محاولاته للفكاك من هذه الرؤية المهيمنة، فى العديد من أعماله بدءا برائعته «بالأمس حلمت بك» (١٩٨٣). ففى هذه القصة القصيرة-الطويلة الفاتنة نلتقى برجل شرقى طردته مدينته الصاخبة للغربة فى مدينة من مدن الشمال تخلو من الدفء أو الإثارة، يجد نفسه فجأة محط اهتمام فتاة تنتمى لهذه المدينة وتخلو حياتها هى الأخرى من الإثارة، فتستعيض عن هذا الأمر بأوهام ميتافيزيقية حول القدرات الخارقة لذلك الرجل الشرقى وتتبعه لها فى المنام. وتنتهى القصة بنهاية فاجعة تلقى ضوءا كاشفا على الآثار الكارثية لسوء الفهم العميق بين ثقافات الشرق والغرب، وتؤكد فى نفس الآن على الحالة الإنسانية العامة التى توحد البشر التعساء دون تمييز فى العرق أو اللون.

وهذه العلاقة الإشكالية بين الغرب المستعمر (بكسر الميم) والشرق المستعمر (بفتح الميم) هى فى القلب من رواية بهاء طاهر الأخيرة «واحة الغروب»، حيث تدور أحداث الرواية فى أواخر عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وبعد بضع سنوات من الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢. ومحمود عبد الظاهر بطل واحة الغروب إنسان مهزوم على كافة المستويات العامة والخاصة، رأى بعينيه هزيمة العرابيين الذين تحمس لنضالهم من أجل أن تكون مصر للمصريين، حيث كان يعمل ضابط شرطة فى الإسكندرية عندما دكت البوارج البريطانية المدينة، ولكنه وبعد انتصار الإنجليز ومحاكمتهم لقادة الثورة آثر السلامة، فتنكر لثوار الأمس المهزومين.

وعلى الرغم من نكرانه هذا إلا أن الحكام الجدد يتشككون فى ولائه فيبعدونه إلى واحة سيوة - واحة الغروب - حيث الأمن

الإقامة الطويلة في أوروبا أكسبت بهاء حساسية شديدة لما يوحد البشر وما يفرقهم

غير مستتب. وحيث يرفض أهل الواحة دفع الضرائب للدولة ويواجهون بالسلاح رجال الأمن القادمين من العاصمة المركزية البعيدة جدا عنهم وعن قيمهم البدوية. ويصطحب محمود عبد الظاهر معه إلى الواحة زوجته الأيرلندية كاثرين، المتخصصة فى الحضارات القديمة، والتى تعرف عليها وتزوجها عندما جاءت فى زيارة لمصر بعد وفاة زوجها الأول. وكاثرين التى ألحت على محمود ليصطحبها معه، مقتنعة بأنها ستعثر فى الواحة على قبر الإسكندر الأكبر الذى توج هناك ملكا على مصر وإلها.

وتتوزع فصول «واحة الغروب» الثمانية عشر على أصوات خمسة، محمود وكاثرين واثنين من أهل الواحة والإسكندر الأكبر شخصيا، الذى يستعير بهاء طاهر صوته بعد موته ليناقش قضية الوجود والخلود. ويعتمد بهاء طاهر فى هذه الرواية على مجاز الرحلة التى ترصد الأزمة الروحية لإنسان مهزوم، ليطرح جملة من القضايا الإنسانية وأسئلة الوجود الكبرى: الحياة والموت والخلود، إن كان ثمة خلود بعد الموت. وهذا العمل شديد التميز ليس فيه شىء صغير أو تافه، فكل شىء فيه - الفكرة والصنعة والأسلوب - جد كبير. إنه، وكما جاء فى تقرير لجنة تحكيم الجائزة الدولية للرواية العربية، «عمل روائى نوعى بالمعنى الجمالى والقيمى فى آن».

وفى حديث مع بهاء طاهر بعد صدور «واحة الغروب» طلبت منه أن يلخص لى فى عبارة موجزة الهم الأساسى وراء روايته، فأجابنى على الفور: «معنى الوجود - إن كان ثمة معنى». ولكن هذا الهم الوجودى الحاضر فى أغلب أعماله له تجليات مختلفة فى كل عمل، وفى «واحة الغروب» اختار بهاء طاهر للمرة الأولى جنس الرواية التاريخية ليتناول من خلاله كينونة الوجود فى ظل الهزيمة.

يقول بهاء طاهر أثناء الحديث معه، إنه وإن كان معنى الوجود هو الهم الرئيسى لروايته، إلا أن اختياره لجنس الرواية التاريخية كان اختيارا سياسيا بامتياز. فبهاء طاهر ليس واحدا من أولئك الكتاب الذين يصرون على انعدام العلاقة بين الفن والسياسة.

وهو يقول: «أردت أن أتناول فى «واحة الغروب» موضوعة الهيمنة الإمبريالية، فقد صدمنى وأوجعنى الاحتلال الأمريكى للعراق عام ٢٠٠٣، فبعد سنوات من هيمنة الاستعمار الجديد على



مقدرات المنطقة ها نحن نعود مرة أخرى إلى الاستعمار القديم، الأمر الذى جعلنى أفتش فى تاريخ مصر تحت الاحتلال البريطانى. كنت أظن عندما انتهيت من كتابة «الحب فى المنفى» أننى قد فرغت من شهادتى حول السياسة فى عالمنا العربى المعاصر، غير أنى اكتشفت بعد احتلال العراق أن هناك حاجة إلى شهادة أخرى. فجاء هذا العمل الذى هو، بجانب أشياء أخرى، شهادتى على الواقع السياسى العربى التعس وإن كنت قد لجأت للتاريخ هذه المرة».

وعلى الرغم من أن «واحة الغروب» هى الرواية التاريخية الأولى لكاتبها، إلا أن التاريخ بشكل عام، والتاريخ المصرى القديم بشكل خاص، هو فى القلب من العديد من أعمال بهاء طاهر، الذى تخرج من قسم التاريخ بجامعة القاهرة عام ١٩٥٦. فأسطورة حورس وايزيس وأوزوريس، مثلا، تتجلى فى أكثر من عمل من أعماله الروائية والقصصية القصيرة، ولكن أبرز تجل لتلك الأسطورة يجىء فى رواية «قالت ضحى» حيث تتقمص بطلة الرواية «ضحى» شخصية إيزيس:

«قالت ايسيت (إيزيس) تعال. قالت ضحى تعال... مدت ذراعيها معا إلى ووجهها الجميل يشرق وقالت: تعال. فذهبت وركعت أمامها. كانت تميل على وتحتضننى وأنا أدفن رأسى فى صدرها الناعم المبتل بعرق خفيف وعطر. مسحت بيدها على شعرى وقبلت رأسى طويلا ثم قالت بصوت خافت: لا تبتئس... سأجمع أشلاءك من جديد وستكتمل. فقلت هامسا دون أن أتحرك من مكانى: لا يا ايسيت... لست اوسير (اوزوريس) ولكن أشلائى فى صدرى. (...) كنا نتعانق وكنا فوق جزيرة. كان الموج يغلى فى السديم. وضرب صقر بجناحيه».

أسأل بهاء طاهر: ألا تجد فى «واحة الغروب» تحولاً عميقا عما تحفل به أعمالك السابقة من تمجيد للتاريخ المصرى القديم، حيث تنتهى الرواية بنسف محمود عبد الظاهر لمعبد مصرى قديم مكرس لعبادة آمون رع، بعد أن ضاق ذرعا بانشغال زوجته الغربية المهووس بفك رموز النقوش القديمة على جدران المعبد ونسيانها لأى اعتبار آخر وتسببها فى مصائب عديدة؟

يقول هو: «هذه رؤيتك أنت. أنا لا أنظر إلى الأمر على هذا النحو. ذلك أن ما أردت التعبير عنه بمشهد نسف المعبد الأخير هو الضيق الشديد من وطأة هذا الماضى عندما يتحول إلى عقبة أمام الحاضر، فنظل نجتر حديثنا عن عظمته بدلاً من مواجهة تحديات الحاضر. وستجدين فى هذه الرواية أكثر من موقف حول تراث ذلك الماضى القديم. فهناك موقف «مليكة» ابنة الواحة التى تستلهم من هذا التراث فنا جميلا، وهناك موقف «وصفى» المتعاون مع الاحتلال الذى يستخدم هذا التاريخ كذريعة لبقاء المحتل وللقول بتفاهة المصريين المعاصرين مقارنة بالأجداد. ولكن «مليكة» انهزمت فى الرواية وماتت وبقى «وصفى». ونسف المعبد هنا عمل موجه بالأساس لمنطقه، الذى هو أيضا منطق المحتل الغربى».

وأخيرا أسأل بهاء طاهر عن رؤيته للهوة الواسعة التى تفصل الثقافة الشرقية عن الثقافة الغربية، وما إذا كان التركيز على النتائج الوخيمة لسوء الفهم المستمر يعكس إيمانًا شخصيًا بصعوبة إجراء حوار مُجدٍ بين الثقافتين؟

يسارع بالنفى قائلا: «كلا بالمرة. أنا لا أنظر للأمور نظرة عنصرية. إن اهتمامى الأساسى هو بالبشر، بغض النظر عن أصولهم العرقية. غير أنى مهتم كذلك ببنى الهيمنة والإخضاع، ولا يهم هنا إذا كان البطل أسود أو أبيض، بل إن الشىء الجوهرى هو الطريقة التى يخضع بها بعض البشر غيرهم من البشر».

أقول مازحة: إننى لا أفهم لماذا تنتهى العلاقة بين الرجل الشرقى والمرأة الغربية فى «بالأمس حلمت بك» و«واحة الغروب» نهاية مفجعة، بينما هو نفسه يتمتع بحياة زوجية ناجحة مع سيدة غربية، هى ستيفكا أناستاسوفا التى أهدى إليها بهاء طاهر «واحة الغروب»، والجالسة معنا أثناء هذا الحوار؟

يضحك بهاء طاهر ويقول: «فى العمل الأول تنتحر المرأة الغربية، ولكن الرجل الشرقى هو الذى يقتل نفسه فى العمل الأخير. أليس هذا نوعًا من التعادل؟»

وعودة لرواية «واحة الغروب»، هذه رواية اعتنى فيها بهاء طاهر بكل شىء، من تقنية البناء الروائى، حتى المهارة الفنية للنثر، ومرورا بالتدقيق البحثى للفترة التاريخية. هى رواية عذبة كنبع صاف لكاتب أخذ بناصية اللغة، فانصاعت له بحب، وهى أيضا رواية تتجمع فيها العديد من الخيوط التى نسجها بهاء طاهر فى بعض أجمل أعماله السابقة، وكأن واحة الغروب قامت بتكثيف كل «الكون (كون بهاء الخاص) حتى أصبح كرة لعب تتدحرج فى اتجاه السؤال المضنى» كما يقول الشاعر الكبير ت. س. إليوت فى قصيدة «أغنية العاشق الفرد بروفروك» - وهى القصيدة التى يرددها بهاء طاهر ويحفظها عن ظهر قلب.

تحية لبهاء طاهر الصديق المبدع، وتهنئة له من الأعماق على فوزه بالجائزة الدولية للرواية العربية. ■

أخـلاق الكاتب
وتقنيــات الكتـــابة

"كلما رأيت بهاء طاهر ، أو قرأت له ، تستدعي ذاكرتي نقاشا دار في موسكو عن بوشكين. وكان مدار النقاش : هل الفنان إنسان طيب أم شرير؟ سؤال تعلق بحقيقة شاعر روسيا الكبير. وملابسات المبارزة التي أنهت حياته. وأتذكر أن خلاصة النقاش كانت الإجابة بأن الفنان هو إنسان طيب قطعا، وأن بوشكين . على وجه التحديد . كان طيبا وخيّرا ، وهو لم يكن فتى لعوبا يغري النساء ، بل كانت النساء هن اللائي يتهافتن عليه ، ويوقعن به ، وفي مبارزته الأخيرة القاتلة ، كانت المؤامرة عنصرا حاكما وفخا منصوبا من البلاط القيصري الذي أرقته شاعرية بوشكين المهيمنة ، والمحرضة ضد القيصرية وسخائمها ولو من بعيد ، من طرف الاستعارة الشعرية ، ومن أفق الجمال الموقّع.

لماذا أتذكر ذلك في حضرة بهاء طاهر . شخصا وكتابة ؟

ربما لأن بهاء طاهر حالة إبداع عربية واضحة يمكن أن تثير النقاش ذاته ، لكن على غير مواصفات بوشكين ، فليس لبهاء طاهر . فيما أرجّح . علاقة بالسيوف أو المبارزات أو مايجر إلى كيد النساء أو بغض الرجال. بهاء طاهر حالة أخلاقية جوهرها الود مع الحياة السوية والناس الأسوياء، وهو بهذه العذوبة يمكن أن يثير القضية ذاتها ، من زاوية مختلفة تخص الأداء الفني ، على اعتبار أن الفنان . في الانطباع السائد والمُروّج له . لابد أن يكون مجنونا وجنيا حتى نصدق أنه يسوق عفاريت الإبداع ويجعلها طوع بنانه . هذا الجنون . الفني . وروح الجن البشري الفنان ، هي مسألة أكيدة داخل أي مبدع . والمفارقة أن هذا الجنون وهذا الجني هما قطعا من جنود الخير والجمال ، ولا أشك لحظة في أن أي فنان حقيقي هو إنسان منتمٍ إلى الخير والطيبة ، بل أعمق ألوان الخير والطيبة. لكن هناك فنانين شديدي طيبة القلب وخيرين إلى أبعد حد يضطرون لارتداء أقنعة الشر حتى يردعوا عنهم شرور العالم ، وهذه حالة . أما الحالة الموازية لها، فهي حالة بهاء طاهر، الذي قادته سويته العالية للتعامل مع العالم بود ، دون أي تنازلات عما يعتقد أنه الحق ، لكن يبدو . فيما أعتقد . أنه من الفنانين الذين يؤمنون بأن كون الإنسان فنانا لايرتب له أي حقوق استثنائية على الآخرين . فهل يعكس هذا الموقف الأخلاقي نفسه في الكتابة؟

أظن نعم ، فهذه الوداعة في معانقة العالم ، وهي تروض جني وجنون الإبداع، تخلق معادلا يؤاخي مابين تقنيات الكتابة وأخلاق الكاتب، وإنني لأتذكر مشاهد جنونية في رواية بهاء طاهر الأخيرة . واحة الغروب . منها على سبيل المثال: مشهد العاصفة الرملية التى صارعت الوجود صراعا كاد يدفن البشر ودوابهم أحياء ويهدد الحياة ذاتها بالقيامة، جنون فني وهاج بلا ريب ، لكن بهاء طاهر ، عالي السوية ، الوديع والعذب، لم يجعل هذا المشهد محرقة عفاريتية أو مجازا مغلقا يستعصي على الناس ، بل نثره بجلاء بصري مؤثّر وموصّل . الشيء نفسه الذي يتجلى في لغة السرد عنده، بساطة سلسة برغم علوها وصحتها الموفورة، وانسياب موسيقي حنون وهادئ . إنه الود الإنساني الذي تتسم به أخلاق بهاء طاهر، وهو الود ذاته الذي يكتنف الكتابة، ويطوع جنها وجنونها بسحر الصفاء الأخلاقي وطيبة الروح الفنان ، فيمنحنا عذوبة بلا حدود ،

محمد المخزنجى

كتـــاب الـزاويـــة

على قبر بيتهوفن

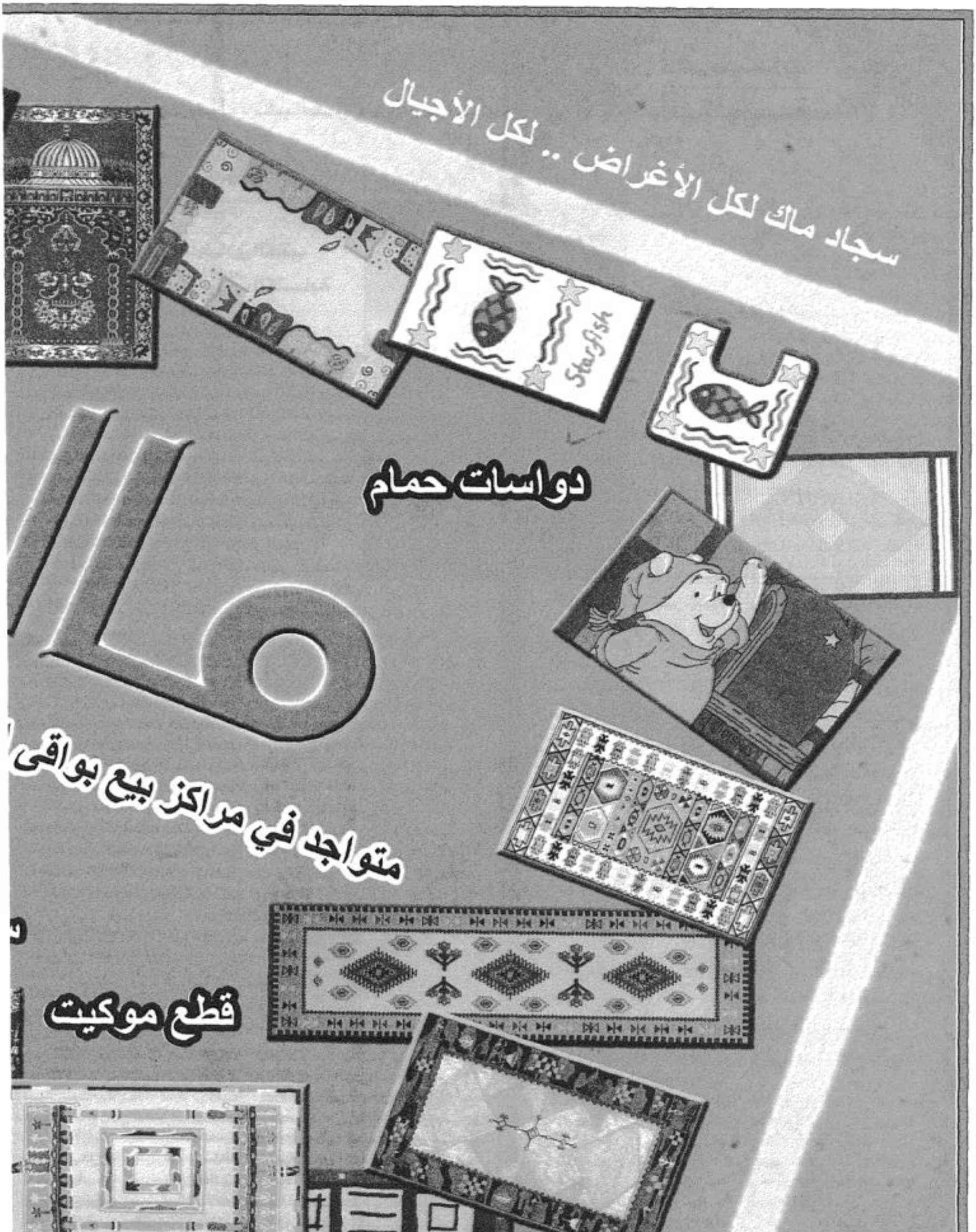
الكاتب المصرى

«خفف الوطء، ما أظن إلا أنك تطرق أرضًا مقدسة. صاح! طال بك النوى، وطوح بك الطواف حتى جاء بك أخيرًا إلى الأرض التى تضم رفات لودفيج فون بيتهوفن».

بمثل هذه الكلمات، أو فى الحالة الشعورية التى تعبر عنها هذه الجمل، اجتزت باب المدافن المركزية بالحى الحادى عشر (زمرنج) من أحياء فيينا، ذات يوم من صيف ١٩٢٩ باحثًا عن قبر بيتهوفن. وإنى لأسير يمنة أو يسرة، وأتقدم إلى الأمام أو أعود أدراجى مسترشدًا بالكتاب الدليل فى يدى، مجتازًا معابر «رحبة السلام». «أظنك عرفت طريقك أيها الطارق، فهذه المقبرة الفخمة، مرفوعة على عمد من مرمر هى ولا شك·· كلا، هذا قبر باشمهندس ما لبلدية فيينا. ثم هنا قبر أسرة شيخ البقالين، أو هو وزير الدولة ذو الحول والطول؟ وهنا.. فا.. يجنبا.. وم الجهايمرات.. مستشار ملكى». أدور بين المدافن أطالع الأسماء فوق الأضرحة الكبرى، أسماء أولئك المجهولين العظماء، عاشوا بين سمع الناس وبصرهم لمحض مراكزهم فى الدولة أو فى التجارة والمال، ثم هم يختفون فى التراب، فى تراب التاريخ، مهما بالغوا فى تزجيج حواجب رموشهم وتزويق صدورها وأعجازها. السلام عليكم يا أهل القبور! وعلى ذكراكم العفاء أيها الحمقى، يا أهل الغرور. عشرات الآلاف منكم ومن أشباهكم يساوون أنملة شادى الإنسانية الأكبر، ومعتصر خمر الآلهة، لودفيج فون بيتهوفن.

حسين فوزى

فبراير ١٩٤٨



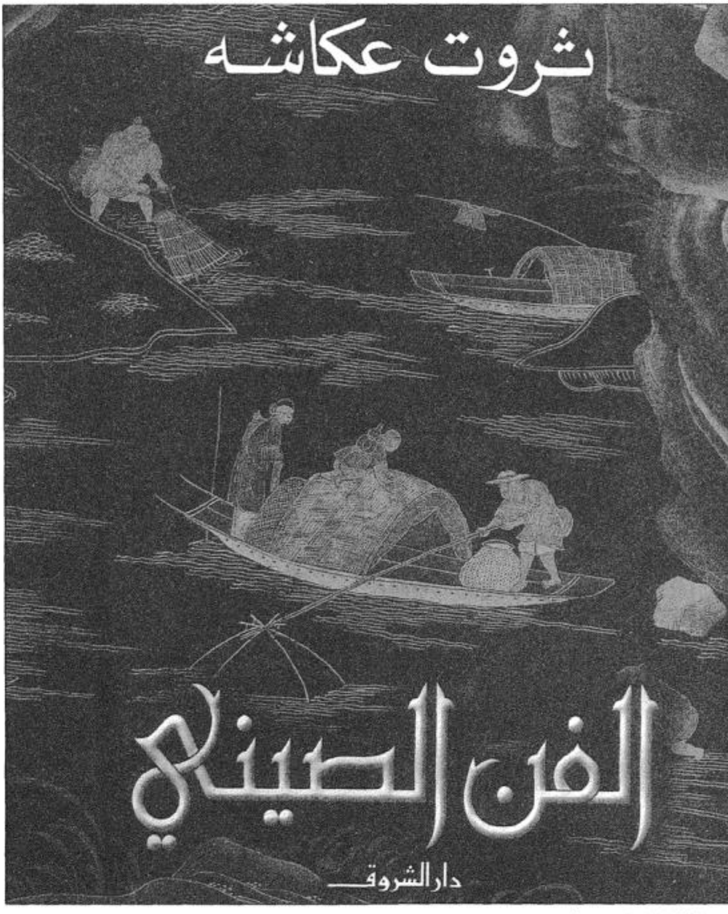
سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت


سجاد أطفال
SGS
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
التصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
سجادة صلى
www.maccarpet.com

فلسفة التصوير الصينى

ثروت عكاشه

«التصوير الصيني» هو فى جوهره
قصائد صامتة تشيد بالطبيعة والإنسان إلى جانب كونه عنصراً مثيراً
للذكريات ومؤججاً للعواطف



■ ■ يرى أهل الصين أن فن التصوير الصينى هو أرقى أنواع التعبير الفنى وأكثرها عمقاً وأصالة وإن لم يلتزموا فيه بمبادئ التصوير وفق قواعد المنظور، على حين يراه غيرهم من الشعوب فناً غامضاً خالياً من تلك المبادئ، فضلاً عن عدم تقيده بالأسس المتعارف عليها لنظرية الإشراق والعتمة «كياروسكورو» التى تُكسب الأجسام ثقلها وكثافتها، وتغاضيه عن تسجيل الأثر اللحظى الذى تخلفه الشمس على عناصر الطبيعة فى رحلتها نهاراً وعن تفاصيل الموضوع المصور الدقيقة المتكررة، وإن حرص مع ذلك على أن يربط المشهد بجوهر الموضوع من خلال الأداء المباشر للمسات فرشاته الحاذقة.

و«التصوير الصيني» هو فى جوهره قصائد صامتة تشيد بالطبيعة والإنسان إلى جانب كونه عنصراً مثيراً للذكريات ومؤججاً للعواطف الجياشة بدفئه وبلاغته وبساطته المنقطعة النظير، فإذا هو يتفرد بين جميع الحضارات بنكهته المثيرة لسائر المشاعر الجوانية الغامضة المطموسة بالواقع المادى الذى نعانى منه بلا هوادة.

ومما لا جدال فيه أن اللوحة المصورة الجيدة هى التى تعكس الحوار الحميم الذى يدور بين الفنان وبين الطبيعة فى أثناء معايشته لها. وليس ثمة لوحة صينية، أياً كان مصدرها، تمثل الواقع الطوبوغرافى أو الجيولوجى أو الجغرافى تسجيلاً حرفياً أو سطحياً مثلما تفعل الكاميرا المصورة، وإنما هو جماع أحاسيس الفنان وانفعالاته فى أثناء ترحاله عبر مفاتن الطبيعة غير المحدودة. كما أنه ليس هناك أى لبس فى أن الصور الذاتية الصينية التى نُطلق عليها مجازاً كلمة «بورتريه» لا تُحاكى شكل صاحبها أو هيئته محاكاة تامة، وإنما هى تمثل جوهر شخصيته. وإن من يطالب بمشابه الشكل المصور فى اللوحات الصينية يغيب عنه الهدف المقصود، تبدو وكأنها صور عامة لا خاصة. وبدلاً من أن تكون تسجيلاً لشخصية بعينها، يؤثر الفنان الصينى إضفاء لمسة مثالية على الصورة الذاتية، فنراه حين يصور حكيماً كونفوشيوسياً على سبيل المثال يمثله وقد كست صورته ملامح مختلفة عن قسمات وجهه الفعلية، تقوم دليلاً على تفرده عن سائر

من كتاب:
فنون الشرق الأقصى
الفن الصينى
ثروت عكاشه
القاهرة: دار الشروق. الطبعة الأولى ٢٠٠٦

أولى الفنان الصينى تصوير المناظر الخلوية اهتماماً كبيراً، فليس هناك من يضارعه فى رؤيته الثاقبة للآفاق البعيدة وامتداد الزمان عبر تكرار الفصول وفى ولعه بتحليل هذا الموضوع الرحيب

البشر بسمات مثالية أو روحانية. وعندما يصور كائنات أدنى من الإنسان مرتبة ينحو دائماً إلى إيضاح مراحل تطورها ونموها على نحو ما يفعل عند تصويره قصبات البامبو أو أغصان الأزهار التى يمثلها وهى تنمو وتتصاعد من أسفل إلى أعلى، على العكس من تصويره للإنسان الذى يلتزم بنقل جوهره فحسب. وإذا أقدم على تصوير «بوذا» عُنى بأن يوحى شكله بالألوهية والقداسة وما يخالج سريرته من رحمة وتعاطف.

لقد أولى الفنان الصينى تصوير المناظر الخلوية اهتماماً كبيراً، فليس هناك من يضارعه فى رؤيته الثاقبة للآفاق البعيدة وامتداد الزمان عبر تكرار الفصول وفى ولعه بتحليل هذا الموضوع الرحيب. ومن المؤسف أن فن التصوير الصينى لم يحظ بالتقدير خارج بلاد الصين واليابان إلا أخيرا عندما ازداد الإقبال عليه خلال القرن العشرين، فإذا المتاحف العالمية تحرص على اقتناء أجمل ما تقع عليه العين من التصاوير الصينية.

بداية عناية الغرب بالتصوير الصينى

والسؤال المثير للحيرة حقًا هو: لماذا لم يظفر فن التصوير الصينى الرائع باهتمام الغرب سواء فى أوروبا أو أمريكا إلا أخيراً، باستثناء ما قدمه الأديب الفنان آندريه مالرو فى مطلع القرن الماضى بإيجاز وإلمام واع فى كتابه الخالد «المتحف الخيالى»، حيث عرض لأمرين: أولهما واقعى، وهو أن مستنسخات التصوير الصينى الملونة المتقنة الطباعة غير متيسرة إلا فى أضيق الحدود وبأعداد جد ضئيلة، كما أن مجموعات التصوير الصينى الأصيلة ذات الأهمية كانت إلى وقت جد قريب محجوبة ومن العسير الوصول إليها، ثم إن تلك الموجودة بمتاحف الغرب غير كافية للإلمام الدقيق بهذا الفن العريق والتعرف على جوهره. والأمر الثانى تاريخى، وهو تأثير موجة استخدام النتاج الفنى اليابانى فى مدرسة التصوير الانطباعية - وهو ما أطلق عليه فى نهاية القرن التاسع عشر «الأخذ بالطابع اليابانى» - الذى أسفر عن اضمحلال هيبة التصوير الصينى. أما الأمر الأول فلم يعد قائماً بعد ما طرأ على فن الطباعة من تقدم مذهل وما توافر بين أيدينا من مستنسخات عالية الجودة. وأما ظاهرة «الأخذ بالطابع اليابانى» فقد تلاشى أثرها بعد أن أدرك الغربيون مدى الغبن الذى لحق بسمعة التصوير الصينى بعد أن حرروا أنفسهم من الدعاية اليابانية المغرضة حوله.

ومن اللافت للنظر أيضاً أن الأوروبيين لم يلتفتوا إلى روعة الفنون الصينية إلا خلال القرن الثامن عشر، فاندفعوا يحاكون الزخارف الصينية فيما عرف بنزعة «الشينوازرى»، وهى كلمة فرنسية قُصد بها الفن الذى ابتدعه الأوروبيون يحاكون به الصيغ الفنية الصينية والذى ازدهر منذ عام ١٧٥٠، وساعد على ذلك انتعاش التجارة بين أوروبا والشرق الأقصى، وما كان يحمله الوافدون من الصين من نماذج اللك والبورسلين والمنسوجات واللوحات والسواتر المصورة إلى غير ذلك. وكان أكثر ما شاع من هذا الفن الأوروبى - الذى يحاكى الصيغ الزخرفية الصينية - إلى أن غدا هذا الفن جزءاً لا يتجزأ من زخارف طراز «الروكوكو» خلال القرن الثامن عشر (انظر كتاب «فنون عصر النهضة والروكوكو» لصاحب هذه الدراسة)، كما ازدادت عناية الفنانين ومؤرخى الفن الغربيين بكل ما هو صينى وبخاصة فن التصوير، وكلما تزايدت البحوث والدراسات اشتد ولع الغرب بالفنون الصينية.

علاقة الشرق الإسلامى بالفن الصينى

ومن قديم الزمن كانت ثمة علاقة تربط الفنون الصينية بفنون الشرق الإسلامى، فقد اعتادت السفن الصينية منذ القرن السابع فى عهد أسرة «طانغ» أن ترسو فى ميناء سيراف (بلدة قديمة فى إيران على الشاطئ الشرقى من خليج مرطبان - أى الخليج العربى - خربتها الزلازل عام ١٧٩) لتتبادل التجارة وتمارس المقايضة مع البصرة وعمان وثغور أخرى، ثم ما لبثت السفن العربية أن زادت هى أيضاً من زياراتها للصين، فغدت الأدوات الفنية الصينية المستوردة إلى الأقطار الإسلامية نماذج يحتذونها ويحاكونها. وما من شك أن ثمة تأثيراً عميقاً خلفه التصوير الصينى على كبار رواد الفن الإسلامى من أهل فارس حتى جرت العادة فى الأدب الفارسى أن يكون معيار تقدير المستوى الفنى للتصوير هو مقارنته بنظيره الصينى، وحتى وصف «الثعالبى» المؤرخ والأديب اللغوى (القرن ١١) دقة المصور الصينى وأمانته بقوله: «إنه يستطيع أن يصور الإنسان وكأنه يتنفس، ولا يكفيه هذا بل يذهب إلى تمثيله وهو



ثروت عكاشه

يضحك، بل وهو يؤدى مختلف أنواع الضحك الممكنة». ويدل مثل هذا القول في الاشادة بمقدرة الفنانين الصينيين وإطراء أعمالهم على أنه إما أن يكون قد تعرف بذاته على منجزاتهم، وإما أن أحد العارفين بها قد نقلها إليه. ولا أدل على أهمية العلاقات بين الصين وفارس فى أوائل القرن الخامس عشر - فيما يتعلق بفن التصوير - من أن «شاه رخ» - الابن الرابع لـ «تيمور لنك» (١٣٧٧ - ١٤٤٧) الذى تولى السلطنة عام ١٤٠٥ واجتاح إيران وآسيا الصغرى واشتهر بسخائه على العلماء والشعراء والفنانين - قد أوفد فناناً مصوراً هو غياث الدين بين مبعوثيه من السفراء إلى إمبراطور الصين وعهد إليه بتسجيل ما يراه مثيراً للاهتمام خلال رحلته. وامتد هذا الاهتمام بالتصوير الصينى إلى الموضوعات التى تناولها الأدب، مما أسفر عن تأثيره الدائب فى التصوير الفارسى، ثم فى التصوير المغولى بالهند الذى كان يقفو أثره. وهكذا كان التصوير الصينى أحد الروافد التى استقى منها التصوير الإسلامى إلى جوار غيره من الروافد.

لمسة الفرشاة الصينية

ولا يتقيد المصور الصينى بقواعد المنظور الأوروبى المتعارف عليه القاضية بتمثيل الأشياء ذات الأبعاد الثلاثة على سطح ذى بُعدين فتبدو وكأنها نافذة إلى العمق، بل يلتزم برؤيته هو الخاصة بالنسبة للمنظور القائمة على ترتيب عناصر لوحته بحيث يكون أقربها فى أدنى اللوحة وأبعدها فى أعلاها. وبينما يصور الفنان الأوروبى موضوعه مصحوباً بالضوء الساقط عليه والظل المترتب عنه، يعنى الفنان الصينى بتصوير خصائص موضوعه الكاشفة لجوهره.

ومنذ قرون ثلاثة استهل المصور الشهير «طاو - تشي» رسالته النظرية عن فن التصوير الصينى بقوله: «إن لمسة الفرشاة هى مصدر الوجود كله. فلقد كانت بداية الخلق.. لمسة فرشاة». والحقيقة أن لمسة الفرشاة كانت البداية والنهاية معاً. وسيظل الخط المصور بالفرشاة حقيقة أساسية ثابتة فى تاريخ التصوير الصينى. وإذا كان فن التصوير الأوروبى قد بدأ خطياً، فإنه ما لبث أن تخلى عن هذه السمة عندما انصرف المصورون عن الاهتمام بالخطوط الحاضنة إلى تبيان ما تحوطه هذه الخطوط، موجهين عنايتهم إلى التعبير عن جملة أمور مثل الضوء والظل «كيارو سكورو»، وسلاسة الحواف الحاضنة للأشكال لفصل بعضها عن البعض الأخر أو لحجبها أو لطمسها تهويناً من شأن الخط، بالإضافة إلى التعبير عن الكتلة وعن القيم اللمسية. وثمة أبعاد وملامح أخرى نفسية ووجدانية وشعورية تنبثق من مكونات الكون المادية ليس لها أسلوب محدد للإفصاح عنها، وإنما هى آثار أصابع الفنان العازف على الوتر بالغ الحساسية التى تُسفر عن الطرب اللمسى - إذا جاز لى هذا التعبير. أما المصور الصينى فقد اتجه وجهة أخرى مغايرة للمصور الأوروبي، متحاشياً محاكاة الألوان والتعبير عن القيم اللمسية للمسطحات وتجسيد الكتل بحذافيرها، مؤثراً تحميل الفرشاة عبء التعبير بالخط، لأنه لا يصور الأجسام طبق الأصل - كما أسلفت - بل يصور جوهرها بحسبان هذا الأسلوب هو أرقى وسائل الوصف والتعبير، مستهلاً لوحته بما هو داكن ومنتهياً بما هو مشرق، على العكس من تقنية التصوير الأوروبى والتصوير بالألوان المائية. فإذا كل البدع الأسلوبية التى حاولت القضاء على ما تحمله لمسات الفرشاة الصينية من صدق، فضلاً عن محاولات استبدال التصوير الخطى بالتعبير عن الأشكال، تبوء بالفشل لأنها نكوص معيب عن تقاليد التصوير الصينى الراسخة.

العلامات المحددة لرؤية المصور الصينى

وبقدر ما يكتنف تاريخ التصوير الصينى من غموض نتيجة ما اندثر منه أو أتت عليه

ينفرد الخط الصينى المصور بإيقاعه الخاص، كما يكشف عن مشاعر الفنان الصينى ومزاجه بل وارتعاشات أعصابه

الحروب أو بفعل كوارث الطبيعة، يشوب مصداقية ما حفظه لنا الزمن من هذه التصاوير المغالاة فى استنساخه، على الرغم من نصائح الحكيم الفنان «شى - هو» التى لا تفتأ تردد أهمية استنساخ صور الأساتذة القدامى. ومن هنا يتبين لنا أنه حتى إذا مهرت أروع الصور القديمة بتوقيعات أساطين المصورين الخالدين، فقد لا يعنى هذا سوى أن الصورة قد أنجزت وفقاً للأسلوب الذى أرساه الفنان صاحب التوقيع.

وقد درج الفنانون الصينيون على تصوير لوحاتهم داخل المراسم، إذ لم يعتد المصور الصينى النقل المباشر عن الطبيعة، بل اكتفى برسم جملة من العجالات التخطيطية والدراسات المتنوعة يستعين بها عند تصوير ما يجول بذهنه حين يعود إلى مرسمه ليبدع لوحته النهائية - التى تكون عادة من الذاكرة - بسرعة ملحوظة يتجلى معها جمال التصوير والتلوين وروعة التناغم بين الخطوط والألوان. ويؤدى الفنان الصينى مهمته الجليلة جالساً القرفصاء مضموم الساقين ومتكئاً على إحدى كفيه فوق أرضية صلبة، الأمر الذى يتيح له التحرك بيسر فوق اللوحة المصورة فى جميع الاتجاهات.

وبالرغم من أن المصور الصينى لم يعتمد فى تصويره على «المنظور الخطى»، إلا أنه وفق إلى نقل الإحساس بالمسافات، وهو ما يتضح فى تصويره للمشاهد البعيدة أكثر ما تكون ضآلة متجاهلاً التفاصيل، كما نجح فى تمثيل الفراغ بالتقريب بين الأشكال المصورة فى أمامية اللوحة والمباعدة بين تلك التى فى خلفيتها، فيتراءى للمشاهد أنه يطل على المشهد من عل. وبينما كان الشكل الإنسانى فى الفن الأوروبى هو أرقى الأشكال تعبيراً، كانت البوذية - المؤمنة بالروحانية، وأهمية «الخلاص» من أسر العالم المادى، وبأن الحياة الدنيوية عابرة لا غناء فيها، وبأن الجسد عبء ثقيل على الروح - لا تعد الشكل الإنسانى تعبيراً صادقاً وتعنى بالجوهر دون العرض، ومن هنا تغلغل أثرها وتجلى فى تشكيل القيم الجمالية الصينية.

وينفرد الخط الصينى المصور بإيقاعه الخاص، كما يكشف عن مشاعر الفنان الصينى ومزاجه بل وارتعاشات أعصابه، ولهذا كان لكل خط شخصيته المميزة لأن أى خط رسمته يد مصور قدير يحمل ملامح شخصيته الذاتية مثلما يحمل الإنسان الملامح الدالة عن سنى عمره. وبالرغم من أن الخط المرسوم بالمسطرة يعد أدق خط فى الوجود، إلا أن الدقة ليست دائماً تعبيراً عن الحيوية، ومن هنا كان الخط التلقائى هو التعبير الصادق عن ارتجافات الخط فوق السطح المصور.

ويقتضى فن التصوير الصينى مهارة وحذقاً بلا حدود فى استخدام الفرشاة، لا فى رسم الخطوط وحدها، بل وفى تحديد الكتل متفاوتة الأحجام مهما دقت فى أى منظر خلوى أو فى أى مشهد يضم الطير والحيوان، حيث تتوحد الكتل مع الخطوط بفطنة وذكاء وحذق وبراعة سواء تعبيراً عن الديمومة والاستمرارية أو عن الحدة والحيوية. كذلك تؤدى كثافة الخطوط أو رقتها أو صرامتها أو طراوتها دوراً مهماً فى إضفاء الرخامة على أنغام الصورة وإيقاعاتها.

تقنية التذهيب المرسل

وقد نشأت منذ عهد أسرة طانغ تقنية استخدام رقائق الذهب (أو الفضة) المجزأة إلى شرائح رقيقة للغاية ذات أشكال هندسية كالمربعات أو المستطيلات كان يجرى تثبيتها باللك السائل كوسيلة إضافية لإثراء أسطح اللوحات المصورة والسواتر الحاجبة بل والمنحوتات الخشبية، أو لكى تشغل فراغات التكوين الفنى التى تتخلل تصميمات السحب والغيوم والوديان وضفاف الأنهار وما شابهها، ويطلق على هذه التقنية اسم «التذهيب - أو التفضيض - المرسل».

أدوات المصور الصينى

وتتشكل «الفرشاة» (الفرجون) الصينية المتخذة من أعواد البامبو فى أحجام وأنواع لا حصر لها، تتوقف صلابتها أو لدونتها على نوع شعر الحيوان المستخدم. ويمكن لأضخم الفرش حجماً أن يستدق شعرها إلى أنحف درجة يمكن أن تصل إليه فرشاة، مما يتيح لها دقة بالغة فى الرسم، كما تتراوح درجات كثافة شعيرات الفرشاة ثخانة ونحافة لكى تلبى مقاصد الفنان فى لمساته وتحقق الشكل الذى ينشده. وقد أسفرت هذه الفرش عن خلق علاقة شديدة الخصوصية بين الفنان وما يعكف على تصويره. فالفرشاة - التى كانت تستخدم بالمثل فى الكتابة المحسنة - ليست لها صلابة القلم؛ فهى مدببة من طرفها، سميكة عند اتصالها بساقها، الأمر الذى يتيح للفنان التوصل إلى أدق الخطوط عندما يلمس سطح الورق بطرف فرشاته المدبب، كما يستطيع التدرج بالخط من الدقة المتناهية إلى أقصى درجات الثخانة التى يشكلها طرف الفرشاة حين يضغط عليه بأنامله. ومن هنا كانت أبسط حركة ضاغطة بالأنامل كفيلة بتنوع ملحوظ فى لمسة الفرشاة، وهو ما يقتضى من الفنان مهارة فائقة فى استخدام يده بحيث يتحرك معصمه بمرونة وحرية تامة، مما يبرهن على أن الإلهام الذى يتوثب فى ذهن الفنان الصينى ينساب بلا قيود من خلال أعصابه وشرايينه مثل التيار الكهربائى ليسجل ما يعن له من خواطر فوق صفحة الورق أو الحرير أو الجدران، ومن هنا شكلت المهارة فى استخدام الفرشاة عنصراً مهماً فى التصوير الصينى. والفرشاة الصينية مرنة مدببة سرعان ما تستعيد شكلها الأولى فور ارتفاعها عن سطح اللوحة المصورة، وإذا كانت الفرشاة المستخدمة فى التصوير هى نفسها المستخدمة فى الكتابة الخطية المحسنة مع فارق بسيط، فإن هذا الدور المزدوج الذى تؤديه الفرشاة يدل على العلاقة الوثيقة التى كانت تربط منذ عهد سحيق بين فن التصوير والكتابة الخطية المحسنة على نحو ما أسلفت.

وثمة أنواع مختلفة من شعر الفرشاة يتيح لكل فرشاة التعبير عن أشياء محددة، فبينما لا ينثنى شعر الذئاب مع حركة الفرشاة، يحتفظ شعر الأغنام بسيولة المداد فترة ممتدة، كما تعد شعيرات فراء حيوان السمور الأسود الناعم شديد الاستقامة من أفضل الأنواع المستخدمة فى التصوير الصينى، إلى غير ذلك من مختلف أنواع شعر الحيوانات كالماعز والأرانب التى تثبت كلها فى مقابض من أعواد البامبو، وما أكثر ما كان مقبض الفرشاة يزين عند التقائه بالشعر بحلية من اليشب الثمين أو يطلى باللك. وعلى هذا النحو يكون لكل نوع من أنواع الفرشاة دور معين تؤديه على

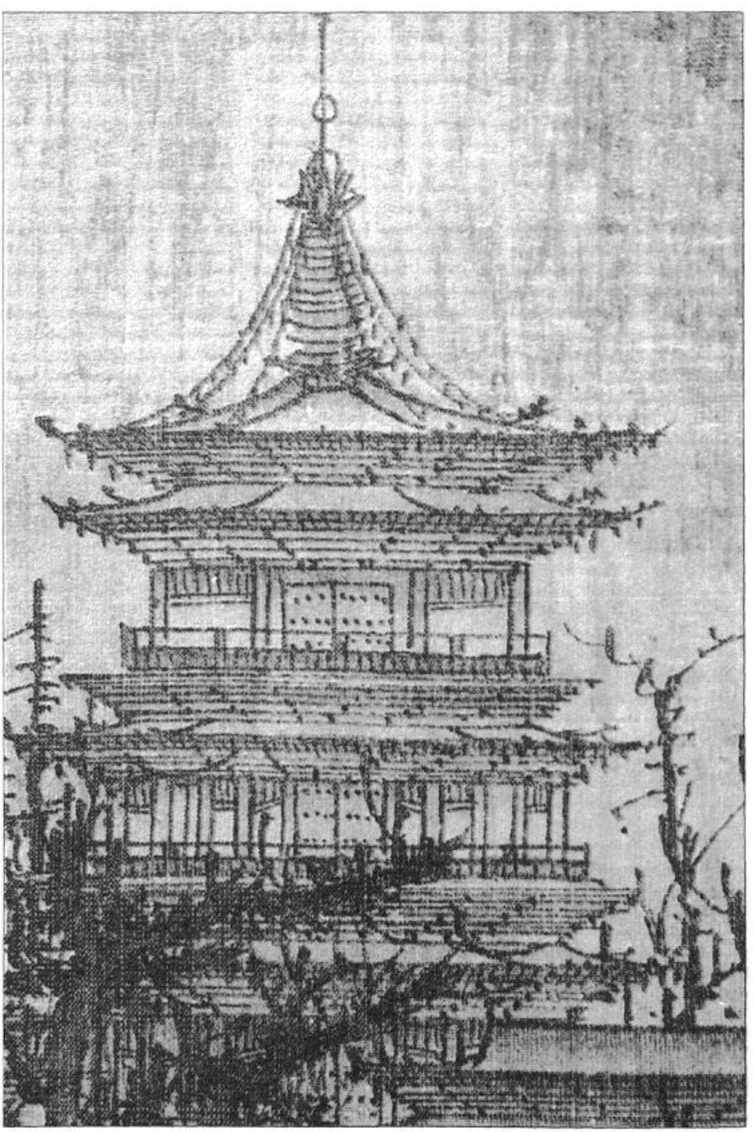
عودة ون تشى إلى مسقط رأسها - فنان مجهول - مضم صور أسرة سونغ الشهيرة



صور الفنان الصينى الصخور والجداول بوصفها تعبيراً مرئيا نابضاً بالحياة. وعسير أن نجد في أي من الفنون الصينية عملاً يعنى فيه الفنان بالشكل وحده دون أن ينطوى على مضمون

نحو ما تؤدى كل آلة من الآلات الموسيقية دورها فى أثناء عزف الأوركسترا السيمفونى. وهكذا يجرى تحديد الأشكال فى التصوير الصينى بواسطة الخطوط دون التفات إلى الضوء وظله. كما تتحقق شخصية أى خط مرسوم من خلال تنويع سُمكه وحدته أو تراخيه وحجم الفراغ المحيط به إلى غير ذلك من وسائل الصنعة الفنية. وعادة ما ينتهى الطرف العلوى لعود فرشاة الرسم الصينية بعلاقة (ما يُعلق به الشيء) من الخيط المجدول لتعليقها بعد الاستخدام فوق الحائط، وذلك للتخلص من الرواسب المتخلفة وللحفاظ على القوام الأصلى للشعر.

و«المداد» (الحبر) هو أكثر مواد التصوير شيوعاً نظراً للتنوع الهائل فى تدرجاته الدقيقة التى يصل إليها الفنان من خلال تحكمه فى مقدار ما يُضيفه إلى المداد من ماء، وفى استخدامه الحاذق لأسلوب التصوير المباشر بالفرشاة. ويُعد المداد الصينى عادة من السناج الناتج عن حرق الفول السودانى أو شجر الصنوبر الذى يترسب على جدران المداخن المركبة فوق قمائن الحرق بعد خلطه بالصمغ، ثم يشكل فى هيئة أعواد أو قوالب من عجينة المداد شديد الصلابة. وكان الأباطرة والملوك يتبادلون هذه العيدان باعتبارها هدايا يضمنونها أحيانًا حبات اللؤلؤ! والمداد الصينى كثيف داكن إذا لم يخفف، ويغدو شفافًا عند مزجه بالماء، فيسفر عن العديد من الظلال والأطياف والإضاءة المتدرجة إذا استخدمت لمسات الفرشاة الغامقة والفاتحة بحذق ومهارة للإيهام بالفراغ وما يحتويه. وما أكثر ما تستخدم هذه التقنية فى تصوير الجبال والغابات المغمورة بالسحب أو بالضباب وبراعم الزهور المشبعة بالندى أو البلل. ويعتقد المصورون الصينيون أن المداد يسفر - برغم لونه الأسود - عن طائفة من الدرجات، ويطلقون على تقنية اللوحات المصورة بالمداد الأحادى اللون اسم «الغمر» أو «التكثيف والتخفيف»، حيث تبدأ الخطوط بالأسود الداكن وتنتهى بالرمادى الشفيف أو العكس. والمقصود بتقنية الغمر هو تغشية مساحات من اللوحة بدرجات من المداد الأسود، وذلك بغمرها بلمسات فرشاة من صوف الغنم المشط مشبعة



معبد فوق الجبل ذات يوم صاف - الفنان لى - تشنغ

يرجع تاريخ فن التصوير الصينى إلى ما ينوف على خمسة آلاف عام، وهو فن يتميز بسمات قومية تنفرد بها الصين نتيجة التأثير المتبادل بين التصوير الصينى من ناحية، والفلسفة الصينية

بالمداد والماء، سعياً من الفنان للوصول إلى درجات المداد التى ينشدها فى لوحته، وأهم خواص المداد الصينى شدة سواده وقابليته للذوبان فى الماء لرسم الدرجات الشفافة، وثمة ميزة أخرى لهذا المداد هى أنه لا يتأثر بالماء بعد أن يجف فوق سطح اللوحة.

وكما أن للفرشاة مواصفات خاصة بحيث يحقق كل نوع منها غرضاً معيناً، كذلك الأمر مع الورق المستخدم فى الرسم، فله هو الآخر مواصفاته التى تنحصر فى رقة الورقة أو سمكها، وكذلك فى درجة تشربها للماء. وقد استخدم المصور الصينى الورق والحرير للتصوير عليهما بالألوان المائية والمداد، حتى إذا فرغ من رسم لوحته سارع إلى وقايتها وصونها والحفاظ عليها بلصقها على ورق سميك وتغطية سطحها بغشاء من الحرير الشفاف، وبينما جرت العادة باستخدام الورق فى لوحات التصوير بالمداد الأحادى اللون، استخدم الحرير فى التكوينات الفنية متعددة الألوان، وهى التقنية التى يطلقون عليها اسم «كومبى»، على أن ذلك لم يكن قاعدة ملزمة للفنان، إذ كان له مطلق الحرية فى اختيار ما يشاء لتصوير لوحته.

موضوعات التصوير الصينى

وكان للعلاقات الإنسانية دوماً شأن عظيم فى التصوير الصينى حتى شاع ظهور الأفراد مجتمعين معاً سواء فى حلقات الدرس أو مواقف الوداع الحار أو لقاءات كبار الموظفين (الماندارين) الذين كانوا يطوفون بأنحاء البلاد طولاً وعرضاً، ويكاد الفن الصينى يخلو من موضوعات الحروب والعنف والموت والعرى وضحايا الحروب والثورات، كما تجنب مشاهد الغرام إذ يندر أن نشاهد صور العشاق ضمن منظر طبيعى. ويؤثر الفنان المعنى بتصوير الأشكال الآدمية فى الغالب الأعم تصوير الشيوخ الحكماء مستغرقين فى التأمل مجتمعين حول قنينة خمر، كما صور الفنان الصينى الصخور والجداول بوصفها تعبيراً مرئيا نابضاً بالحياة عن قوى الكون الخافية. وعسير أن نجد فى أى من الفنون الصينية عملاً يعنى فيه الفنان بالشكل وحده دون أن ينطوى على مضمون، فلا يسيغ الصينيون عملاً يبدو الشكل فيه جميلاً فى حين يخلو الموضوع المصور من فكر مضىء ينير الوجدان. ومن هنا كان التصوير الصينى فى حقيقة الأمر فناً رمزياً، لأن كل ما هو مرسوم يعكس مظهراً من المظاهر الكلية التى يدركها الفنان بالفطرة، كما احتشد الفن الصينى بالرموز ذات الدلالة، ويأتى على عكس هذه الرموز قصبات البامبو التى تشير إلى حكمة الفلاسفة لجمعها بين الصلابة والمرونة وقابليتها للتكيف والتشكل، وهكذا الإنسان السوى قادر على الانحناء أمام وطأة المحنة دون التخلى عن مبادئه ومُثُله. وأعواد البامبو هى الرمز الذى بلغ من شدة إيمان المصورين الصينيين به أن أحدهم ما كان ليشرع فى رسمها حتى يفقد إحساسه بذاته، بل وبالبشر كافة، وكأنما قد تقمصته روح البامبو.

وكما يرمز اليشب العصى على التلف إلى الطهارة والنقاء، يرمز التنين إلى ما يضمره الإمبراطور من خير، وطائر الكركى إلى طول العمر، والبط المتآلف أزواجاً إلى وفاء الأزواج. وشاع بين الرموز المستقاة من النبات زهرة «الأوركيديه» السحلبية الجميلة التى تتضوع بالأريج الفواح رمزاً للنقاء والطهارة، و«زهرة البرقوق» التى تونع حتى فى أثناء تساقط نُدف الثلج رامزة للثبات والاستقرار، على حين ترمز «شجرة الصنوبر» ذات العقل العتيقة لحكمة الشيخوخة الرصينة. وكما اختار الصينيون من بين النباتات أشجار الصنوبر والبرقوق والخوخ والمشمش، اختاروا من بين الطيور اللقلق والبط والكُركى والإوز ومالك الحزين والتدرج (الدراج) والغرنوق وصوروها إما متطامنة على فروع الشجر أو محلقة فى الفضاء بشاعرية اجتذبت مصورى الفرس الذين حاكوها فى منمنماتهم فأضفت عليها رقة ورهافة وحيوية، وهكذا رأينا فى الكثير من المنمنمات الفارسية البط محلقاً أو طافياً فوق مياه تموج سطحها فى أنصاف دوائر متداخلة على غرار الضفائر تتخللها ألسنة الزبد أحياناً فتزيدها جمالاً وفق سنن رسوم الفخار الصينى ذى اللونين الأزرق والأبيض (انظر كتاب «التصوير الإسلامى الفارسى والتركى» لصاحب هذه الدراسة).

ملامح التصوير الصينى

يرجع تاريخ فن التصوير الصينى إلى ما ينوف على خمسة آلاف عام، وهو فن يتميز بسمات قومية تنفرد بها الصين نتيجة التأثير المتبادل بين التصوير الصينى من ناحية، والفلسفة الصينية والأدب إلى غير ذلك من الفنون كالكتابة الخطية المحسنة والعمارة والحرف التقليدية من ناحية أخرى. وعلى حين عد المصور «كو كاى تشى»، أحد مصورى القرن الرابع العظام، «الشكل» وسيلة التعبير عن الروح، عدا «شى-يه» مصور القرن الخامس «الحيوية» أهم عناصر فن التصوير. وهو ما يكشف عن أن المصورين الصينيين قد أدركوا منذ زمن مبكر أهمية الغوص فيما وراء الطبيعة بدلاً من محاكاتها، وكذا ضرورة التزام الفنان حين ينوى تصوير الإنسان بنقل جوهر شخصيته قبل نقل ملامحه، وأن يقف حين يصور الحيوان أو النبات بادئ ذى بدء على سماته الذاتية الخاصة التى ينفرد بها، فضلاً عن الملاحظة الدقيقة لموضوعه المصور من حيث تركيبه وخصائصه ومراحل نموه قبل أن يشرع فى رسم ما ترسب فى ذهنه من خواصه الطبيعية وبعد أن يكون قد استوعب موضوعه استيعاباً تاماً. فإذا صور شجرة صورها حسبما تنبت وتنمو، أى من أسفل إلى أعلى لا العكس، لأن كل ما فى الوجود لابد له بداية ونهاية. لذلك قضى أولئك الفنانون المنظرون العظام بضرورة أن يوحى المنظر الخلوى إلى المشاهد بمناخ جمالى يستطيع من خلاله الإحساس بما يطرأ على الطبيعة من تقلبات موسمية، وهو ما لا يتحقق إلا بالمتابعة الروحية والوجدانية لعناصر الكون لحظة بلحظة لإثراء الموضوع قيد التصوير. ومن هنا بات لزاماً على المصور الفطن ألا يقتصر على ملاحظة موضوعه المصور فحسب، بل لا غنى له عن إدراك كُنهه والغوص فى أعماق سريرته، لكأن هذا الفنان يتمثل مقولة «أنطوان دو سانت ركسوبرى»، أديب القرن العشرين الشامخ: «لا يحسن المرء الرؤية إلا بقلبه، فالجوهر خفى عن الأنظار».

وثمة فارق بين الرؤية والرأى، فبينما رؤية العقل حسابية رياضية علمية تتسم بالجفاف، فإن رؤية البصر هى أسيرة تفاوت قدرة شبكية العين على التحديد أو الوصف الكامل للشكل، ومن هنا قد تؤدى مخادعة البصر دوراً يطيح بمعانى الأشياء. لكن ثمة رؤية ثالثة هى رؤية الفؤاد، فما كذب الفؤاد قط ما رأى، ومن هنا كانت الرؤية المعنوية هى بيت القصيد وهى الهدف من الرحلة الطويلة عبر الأشكال والأحجام والأجسام، فكم من مراتب للاستيعاب الواعى ينبغى على عُشاق الجمال خوضها قبل أن يلجوا ساحة التذوق الفنى. وفى هذا الصدد يروى عن «جينغ هاو» أحد مصورى المناظر الخلوية خلال القرن العاشر أنه كان لا يفتأ يردد أنه لم يبلغ إدراك روح شجرة الصنوبر إلا بعد أن رسمها عشرة آلاف مرة! وقد يكون فى تلك المقولة نصيب من المبالغة، ولكن المعنى المستخلص هو أهمية مثابرة المصور على دراسة كل ما يحيط بموضوعه المصور مادياً ومعنوياً حتى يستطيع تسنم مقام البراعة.

وقد برزت من بين فئة الأدباء المثقفين «اللتراتى» خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر أعداد ضخمة من المصورين الذين تألقت أسماؤهم فى مجال التصوير، كما شكل المصورون البارزون من بين هذه الطبقة خلال القرن الثالث عشر العمود الفقرى لفن التصوير الصينى. ويبلغ من فرط عنايتهم بالتعبير عن السجايا الذاتية للأفراد أن عدوا التشابه والمحاكاة أمراً غير ملزم، مؤثرين توجيه الاهتمام إلى ما هو أبعد من المحاكاة السطحية. ومن هنا كان سعيهم الدءوب لتحقيق ما يعرف بنظرية «التطابق والتوافق دون التشابه»، والمقصود بها التعبير عن الخصائص المميزة للموضوع المصور من خلال التواشج بين مشاعر الفنان وعواطفه وحالاته المزاجية. ولم يقتصروا على تضمين لوحاتهم قصائد الشعر المدونة بالكتابة الخطية المحسنة فحسب، بل نراهم قد مزجوا بين ما هو ذاتى وما هو موضوعى، مع الحرص على تأكيد أهمية الصورة الذهنية المترسخة فى مخيلة الفنان، حتى ذهب «ون. طونغ» مصور أعواد البامبو خلال القرن الحادى عشر إلى أنه لا معدى أمام الفنان من تخيل الصورة النهائية لأعواد البامبو التى يرسمها قبل أن يتناول فرشاته. فما إن يفرغ المصور الصينى من تصور موضوعه ذهنياً ووجدانياً ومن تمثل كيفية صياغة تكوينه الفنى حتى ينطلق إلى التعبير عن أفكاره بأسلوب واضح بعيد الغور، فلا يعلى من شأن أى شىء سوى ما يراه ذا أهمية وما يحس به بشعوره الصادق، تاركاً فى خلفية اللوحة مساحات قد تأخذ بدورها أشكالاً وأحجاماً متنوعة لتشكل أنماطاً بذاتها تعين على الإبانة عن كُنه الموضوع المصور وتزيد المشاهد بفسحة رحيبة يستطيع معها التجوال بخياله فى رحلة بصرية عاطفية وجدانية بلا حدود.

ومن هنا لا يجوز أن نعد مصور المناظر الخلوية الصينى محاكياً للطبيعة، لأنه من ناحية لا يتطلع إليها من نقطة محددة بذاتها، ومن ناحية أخرى لأنه يتحرر من كل القيود التى يفرضها الزمان والمكان. وهو لا يشكل تكوينه الفنى إلا بمفهومه الذاتى المضمر وبحسه المرهف لكينونة الطبيعة، فيخال نفسه محلقاً فى أرجاء الفضاء قادراً على رؤية كل ما هو ناء بعيد وما هو دان قريب. وفى مثل هذه الحالة - سواء بدا الموضوع المصور مكبراً نظراً لقربه أو مطموساً مغبشاً نظراً لبعده - يشعر المصور والمشاهد معاً أنهما يحلقان على هواهما خلال الفضاء.

ويفسر «شن تشيو» أحد نقاد الفن خلال القرن الحادى عشر «التطور المستمر الذى لحق بالمنظور فى التصوير الصينى

بأنه ثمرة التأمل الفلسفى الذى يستشف «الضآلة من خلال الضخامة»، بمعنى رؤية تفاصيل المشهد من زاوية كونية. فلقد تجاوز الفنان الصينى المنظور الزمنى حتى احتوى الزمن بأسره فى وعاء واحد لا فرق فيه بين الماضى والحاضر، وما عاد الوقت يقاس عنده بالجزئيات لأنه يتطلع إلى «الكل» من خلال «الجزء»، وإلى «الجزء» من خلال «الكل» لكونهما فى نظره نسيجا واحدا. مثال ذلك لوحة مصورة تجمع بين أزهار متنوعة من مختلف فصول السنة متجاوزة حدود الزمن. وبالمثل يمكن الغوص فى عالم الطبيعة الرائع من خلال التطلع إلى لوحة مصورة لزهرة فريدة واحدة أو لطائر فريد وحيد أو لسمة مميزة أو حتى لحشرة ضئيلة، إذ بوسع المصور الصينى الضليع أن يضمن ثنايا زهرة واحدة قوى الكون المحركة كافة. وعلى النهج نفسه يمكننا - على الضد من الرؤية السابقة - أن نستشف «الضخامة» من خلال «الضآلة»، والضخامة فى هذا المقام لا تعنى بالحجم بقدر عنايتها بالقيمة والمضمون. وما من شك فى أن صورا من هذا الطراز قد تبدو لنا مخالفة لقواعد المنظور العلمية، كما قد تتراءى لنا خادعة أو مجافية لعقلانية المنظور ومصداقيته. غير أن مملكة الفن والجمال الرحيبة لها هى أيضا عقلانيتها الخاصة، كما أن لها مصداقيتها النابعة من انفساح الخيال وصدق الإحساس وتنوع الانفعال. ومن هنا آمن الفنان الصينى بأن العقلانية التى ينشدها هى «عقلانية لا معقولة» إذا جاز هذا التعبير، وأن المصداقية المنشودة هى التعبير الحر عما يخالج الحس.

لقد آمن المجتمع الصينى الذى كان مجتمعا زراعيا أصيلا بحاجة الإنسان إلى إدراك كُنه الطبيعة من حوله ومعايشتها والتآلف معها، لأن عالم الطبيعة هو المظهر المرئى الدال على قدرة الخالق المتمثلة فى تنوع الخليقة وتكاثرها. وعلى مر الأيام ارتقى الفن الصينى من صنع أوانى القرابين لاسترضاء قوى السماء فى العصور الغابرة إلى التعبير عما يخالج الإنسان من إحساس بهذه القوى من خلال تصوير المناظر الطبيعية وأعواد البامبو والأزهار والطيور، وهو ما يسمى بـ «المفهوم الميتافيزيقى» للتصوير الصينى. من هنا كان التصوير الصينى فى نظر أهل الصين ضربا من التصوف والاقتراب من الحقيقة الكلية. وكانت للفن - بصفة خاصة فى العصور المبكرة - وظائف اجتماعية وأخلاقية شتى. وتذكر المصادر الأدبية القديمة كيف انحصرت موضوعات التصاوير الجدارية بالقصور فى شخصيات الأخيار من الأباطرة والوزراء والحكماء والقادة، وكذا خصومهم من الأشرار كى تتخذ عظة للأحياء. وعلى غرار هذا النهج الخلقى نفسه لم تعن الصور الذاتية بملامح الأشخاص بقدر ما عُنيت بتسجيل جوهرهم وما يؤدونه من مآثر لخدمة المجتمع، وهو ما يطلق عليه «المفهوم الكونفوشيوسى الأخلاقى» للتصوير الصينى.

وهكذا كان الفن الدينى فى عمومه أمرا يأباه الذوق الصينى، فلم تكن العقائد السائدة مصدر إلهام للأعمال الفنية العظمى إلا نادرا. وحسب الفنان الالتزام بثوابت العقيدة دون أن يحيد عنها أو يتجاوزها. وكادت سيادة العقلانية التى يتجلى أثرها فى التنفيذ المحكم المتقن أن تحول الفنان إلى شخصية شبه مقدسة تسبر غور أقصى أسرار الأرض والسماء وتلقى الضوء على ما تعجز الشمس والقمر عن إنارته، ولا غرو فهدفه المنشود هو بلوغ المثل الجمالى الأعلى الذى حدده الفنان هزيا هه بـ «الروحانية والحيوية والإيقاع». وتفسر الأساطير الصينية هذه المقولة بأنه بوسع الفنان الموهوب تحقيق المعجزات لأنه القادر على أن يبسط آلاف الكيلومترات فوق سنتيمترين مربعين من الرقعة التى يرسم فوقها، مثلما يستطيع أن يجسد التنانين التى يرسمها وكأنها تنطلق من جوف الجدران المصورة عليها. ■

"في أرشيف الدماغ تتمهل حيواتنا أو تختفي"

■■ ثمة امرأة (٤١ عاماً)، مساعدة إدارية من كاليفورنيا معروفة في الكتابات الطبية باسم «إيه جيه»، تتذكر تقريباً كل يوم من حياتها منذ سن الحادية عشرة. ثمة رجل، (٨٥ عاماً)، تقني معمل متقاعد يدعى «إي بي»، لا يتذكر سوى أحدث أفكاره. عليها تنعم بأفضل ذاكرة في العالم، عله يمتلك أسوأها.

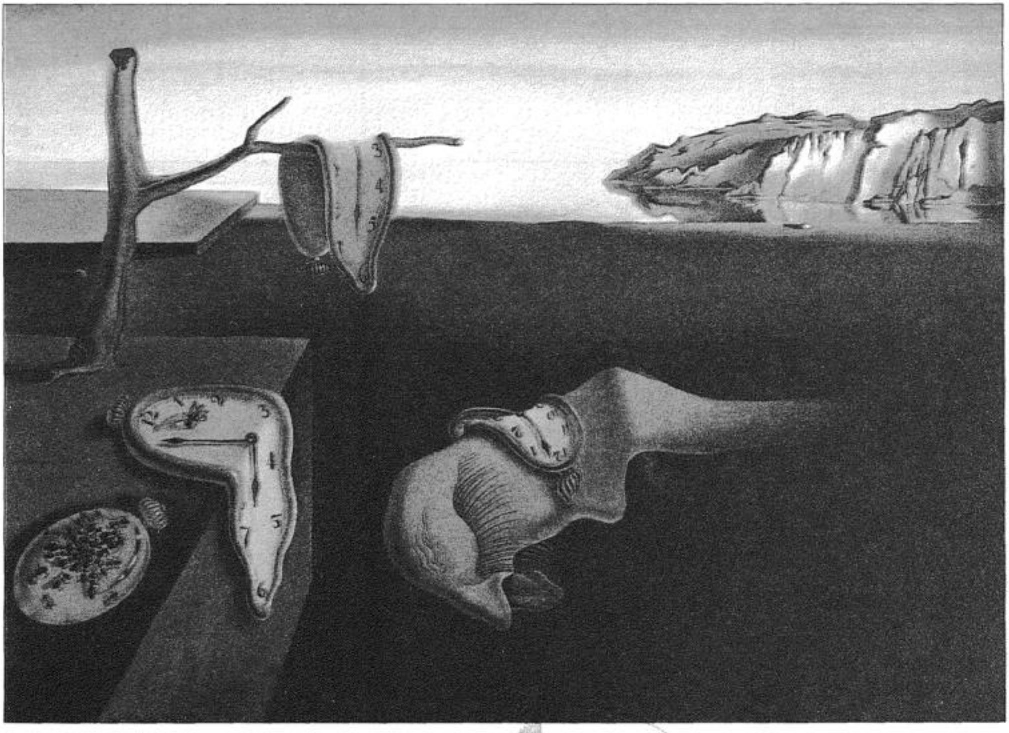
«تتدفق ذاكرتي كمشاهد فيلم - بلا انقطاع أو تحكم»، تجاهر إيه جيه. تتذكر أن في الساعة ١٢:٣٤ مساء، يوم الأحد، ٣ أغسطس من عام ١٩٨٦، اتصل بها شاب أضمرت له إعجاباً. تتذكر ما جرى بمسلسل «ميرفي براون» يوم ١٢ ديسمبر ١٩٨٨، تتذكر أنها تناولت الغداء مع أبيها بفندق بيفرلي هيلز في ٢٨ مارس ١٩٩٢، تتذكر الأحداث العالمية ورحلاتها إلى متجر البقال، تتذكر حالات الجو وعواطفها. إن دماغها يضم حرفياً كل يوم، وليس من السهل إرباك ذاكرتها.

ثمة حفنة من الأشخاص عبر السنين تمتعوا بذاكرة جيدة على نحو استثنائي. يقال إن كيم بيك، ٥٦ عاماً، العالم الذي ألهم فيلم رجل المطر، حفظ نحو ١٢٠٠٠ كتاب (يقرأ الصفحة في ٨ إلى ١٠ ثوان.) وهناك «إس»، صحفي روسي درسه ألكسندر لوريا Alexander Luria، المتخصص في علم النفس العصبي، لمدة ثلاثة عقود. بمقدور إس أن يستحضر سلاسل طويلة للغاية من كلمات وأرقام ومقاطع عاطلة من المعنى بعد سنوات من سماعها. إلا أن إيه جيه فريدة من نوعها. فذاكرتها الاستثنائية لا تلتقط الحقائق أو الأرقام بل أحداث حياتها. الحق أن ما تحتفظ به ذاكرتها الحديدية من تفاصيل سيرتها غير مسبوق أو مفهوم حتى إن جيمز ماكجو وإليزابيث باركر ولاري كاهيل، علماء الأعصاب في جامعة كاليفورنيا بمدينة إرفاين الذين ظلوا يدرسون حالتها خلال السبعة أعوام السابقة، اضطروا إلى صياغة مصطلح طبي جديد يصور حالتها: Hyperthymestic Syndrome.

يبلغ طول إي بي ست أقدام وبوصتين (٩,١ متر)، بشعر أشيب مفروق فرقاً مثالياً وأذنين طويلتين للغاية. ذو شخصية جذابة ودودة دمثة. كثيراً ما ترتفع ضحكاته. يتراءى في البداية مثل أي جد لطيف الشمائل عادي المسلك. لكن منذ خمس عشرة سنة مضت أصاب فيروس الهربس البسيط دماغه منتزعاً قلب الدماغ كما التفاحة. وبحلول الوقت الذي بلغ فيه الفيروس مساره، اختفت قطعتان في حجم الجوزتين من مادة الدماغ في الفصين الصدغيين الوسطيين، ومعهما راحت أغلب ذاكرة إي بي.

غياهب الذاكرة!!

لوحة الذاكرة للفنان سلفادور دالي



أصاب الفيروس هدفه بدقة غريبة. فالفصان الصدغيان الوسطيان - هناك فص على كل جانب من الدماغ - يشتملان على بنية تشبه القوس تسمى قرن أمون وعدة مناطق مجاورة تؤدى معاً عملاً سحرياً، ألا وهو تحويل مداركنا الحسية إلى ذكريات طويلة الأمد. لا يتم تخزين الذكريات فى قرن أمون بالفعل - فهى تلبث فى مكان آخر، فى طبقات الدماغ الخارجية المتموجة بالقشرة المخية الجديدة - إلا أن منطقة قرن أمون هى الجزء الذى يجعلها ثابتة. تدمر قرن آمون فى دماغ إى بى، وبدونه لا يختلف عن كاميرا فيديو بشريط مغناطيسى معطوب. فهو يبصر الموجودات دون أن يسجلها.

ألم بإى بى نوعان من فقدان الذاكرة - النسيان اللاحق، أى أنه لا يستطيع أن يشكل ذكريات جديدة، والنسيان السابق، أى أنه لا يستطيع أن يستحضر الذكريات القديمة أيضاً، على الأقل منذ عام ١٩٦٠ . أما طفولته وخدمته فى الأسطول التجارى خلال الحرب العالمية الثانية، فكلها ذكريات جلية تمام الجلاء. لكن على حد علمه، لا يزال ثمن جالون الغاز أقل من دولار والهبوط على القمر لم يحدث قط.

إن إيه جيه وإى بى يقفان على طرفى النقيض من نطاق الذاكرة الإنسانية. وحالتاهما تتفوقان على أى مسح إشعاعى للدماغ فى كشف مدى تأثير الذاكرة على هوية الفرد. وعلى الرغم من أن بقية البشر يقبعون فى مكان ما بين هذين القطبين من تذكر كل شىء وتذكر لا شىء، لاقينا جميعاً وعداً طفيفاً بذاكرة إيه جيه ونزل بنا الفزع من مصير إى بى. إن ذلك اللحم المتجعد المتوازن فى أعلى العمود الفقرى يستطيع أن يحتفظ طيلة الحياة بأكثر التفاصيل تفاهة عن تجارب الطفولة لكنه غالباً ما يعجز حتى عن التشبث برقم هاتف فى منتهى الأهمية لمدة دقيقتين لا غير. هكذا نجد الذاكرة غريبة كل الغرابة.

ما هى الذاكرة؟ أفضل ما يمكن لعلماء الأعصاب القول به فى الوقت الحالى هو التالى: الذاكرة هى نموذج مخزون من الوصلات القائمة بين الخلايا العصبية فى الدماغ. ثمة نحو مائة مليار من تلك الخلايا العصبية، بوسع كل واحدة منها أن تخلق من حوالى ٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ وصلة عصبية مع الخلايا الأخرى، أى إجمالاً من حوالى خمسمائة تريليون إلى ألف تريليون مشبك عصبى فى دماغ البالغ العادى، وعند المقارنة نجد أنه لا يوجد سوى ٣٢ تريليون بايت من المعلومات فى المجموعة المطبوعة لمكتبة الكونجرس بأسرها. كل شعور نتذكره، كل فكرة تطرأ ببالنا تبدل الوصلات بين تلك الشبكة الضخمة. يمكن للمشابك العصبية أن تقوى أو تضعف أو تتكون من جديد. فمادتنا الفيزيائية لا تكف عن التغيير. الحق أنها تتغير على الدوام فى كل لحظة حتى أثناء النوم.

قابلت إى بى فى نهار ربيعى دافئ ببيته، منزل مشرق من طابق واحد يقع فى ضواحى سان دييجو. قدت السيارة إلى هناك بصحبة لارى سكواير Larry Squire، عالم أعصاب وباحث فى الذاكرة فى جامعة كاليفورنيا بمدينة سان دييجو ومركز سان دييجو الطبى للمحاربين القدامى وجين فراسينو Jen Frascino، منسقة البحث بمعمل سكواير التى تزور إى بى بانتظام كى تدير اختباراته المعرفية. وعلى الرغم من أن فراسينو قصدت بيت إى بى ٢٠٠ مرة، دائماً ما يحييها وكأنها غريبة.

تجلس فراسينو أمام إى بى إلى مائدة حجرة الطعام لتوجه إليه سلسلة أسئلة تقيس سلامة بديهته. تسأله عن القارة التى تقع فيها البرازيل وعدد الأسابيع فى السنة ودرجة غليان الماء. تريد أن تبرهن على ما أثبتته بالفعل اختبارات الذكاء: إى بى ليس غبياً. يجيب بكل صبر على الأسئلة - إجابات صحيحة كلها. يرد عليها فيما تتملكه دهشة أتخيل أن تراودنى لو أن غريباً دلف إلى منزلى وجلس إلى مائدتى ليسألنى بجدية ما بعدها جدية إذا ما كنت أعرف درجة غليان الماء.

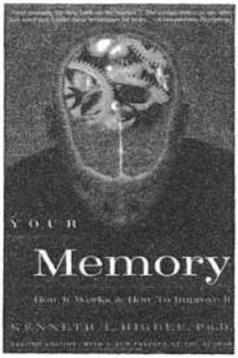
«ماذا تفعل لو وجدت ظرفاً مغلقاً فى الشارع، عليه عنوان وطابع بريدى؟» تمتحنه فراسينو.

«أضعه فى صندوق البريد. وهل أفعل غير هذا؟» تند عنه ضحكة خافتة ويرمينى بنظرة جانبية عليمة كالقائل، «هل يظننى هؤلاء الناس عبيطاً؟» لكنه يستشعر أن الموقف يتطلب قدراً من التهذب فيتحول إلى فراسينو مردفاً: «لكنك توجهين سؤالاً مشوقاً. مشوقاً بالفعل». لا علم لديه أنه سمع نفس السؤال عدة مرات من قبل.

«لماذا نطهو الطعام؟»

«لأنه نيئ؟» تحمل كلمة «نيئ» صوته واضحاً وقد حل عدم التصديق محل الدهشة.

«لماذا ندرس التاريخ؟»



منذ ابتلاء
إي بي بالمرض، لم تتجاوز
مساحة معيشته
ما يبصره أمام عينيه
فعالمه الاجتماعي
لا يتخطى الموجودين
في الحجرة.
يعيش حياته محاطاً
بالظلمة تحت
ضـــوء هـــزيـــل

«حسناً، ندرس التاريخ حتى نعرف ما حصل فى الماضى».

«لكن لماذا نريد أن نعرف ما حصل فى الماضى؟».

«بصراحة لأنها مسألة مثيرة للاهتمام ليس إلا».

يرتدى إى بى سواراً معدنياً طبياً حول معصمه الأيسر. ومع أن ما يدعو إلى ارتدائه واضح للعيان، سألته على أية حال. يدير معصمه ليقرأ بلهجة تنم عن اللامبالاة.

«ممم، مكتوب عليها «فقدان ذاكرة»».

لا يتذكر إى بى أنه يعانى مشكلة فى الذاكرة، فهى مشكلة يكتشفها كل دقيقة من جديد. ونظراً لأنه ينسى أنه دائماً ما ينسى، تبدو له كل فكرة ضائعة وكأنها زلة طارئة - مصدر إزعاج طفيف فقط لا غير - كما يحدث معك ومعى.

ومنذ ابتلاء إى بى بالمرض، لم تتجاوز مساحة معيشته ما يبصره أمام عينيه. فعالمه الاجتماعى لا يتخطى الموجودين فى الحجرة. يعيش حياته محاطاً بالظلمة تحت ضوء هزيل.

يستيقظ إى بى فى الأصباح المعتادة ليتناول الإفطار ثم يعود إلى فراشه للاستماع إلى المذياع. لكن مع رجوعه إلى الفراش، لا يتضح له دوماً إذا ما كان قد تناول الإفطار أم أنه صحا للتو. غالباً ما يفطر مرة ثانية ثم يرجع إلى الفراش كى يستمع إلى المزيد من برامج المذياع. وفى بعض الأصباح يتناول الإفطار ثلاث مرات. يشاهد التليفزيون. مسلسلات تبث فيه الدهشة من الثانية إلى الثانية، وإن حدث وكانت العروض واضحة البداية والذروة والنهاية قد يشعر بوجود مشكلة. يفضل قناة التاريخ أو أى شىء له علاقة بالحرب العالمية الثانية. يتمشى فى الحى، فى العادة عدة مرات قبل وجبة الغداء، وأحياناً لمدة ثلاثة أرباع ساعة. يجلس فى الفناء، يقرأ الجريدة. لا بد أنه يشعر كما لو كان خارجاً من آلة الزمن. بوش من؟ العراق ماذا؟ كمبيوتر متى؟ وحين يبلغ إى بى نهاية العنوان، ينسى فى الغالب بدايته. ولا يند عنه فى أكثرية الوقت . بعد قراءة الأرصاد الجوية، سوى الرسم بذهن نصف واع على ورق الجريدة، راسماً الشوارب أو ملعقته على الصور. وعندما تقع عيناه على أسعار البيوت فى قسم العقارات، يعلن على الدوام عن صدمته.

لقد سقط إى بى خارج إطار الزمن كلية بدون ذاكرة. خلا عقله من تيار الوعى. وما حاز سوى قطيرات تتبخر على الفور. ولو نزعت الساعة من معصمه - أو على نحو أقسى، غيرت الوقت - سوف يضيع تماماً. لقد وقع فى فخ سجن الحاضر الأبدى، بين ماض لا يستطيع أن يستدعيه ومستقبل لا يستطيع أن يتأمله. وهو بذلك يعيش حياة لا حراك فيها، منزهة تماماً عن القلق. «إنه سعيد طوال الوقت. فى منتهى السعادة. أظن لأن حياته خالية من التوتر»، تقول ابنته كارول التى تقيم بالقرب منه:

«ما عمرك الآن؟» يسأله سكواير.

«دعنى أركز، ٥٩ أو ٦٠ . ذاكرتى ليست مثالية إلى هذه الدرجة. إنها جيدة للغاية لكن أحياناً ما يسألنى الناس أسئلة لا أفهمها. أنا متأكد أنك تواجه مثلها بين الحين والآخر».

«بالطبع»، يرد سكواير بنبرة تشى بالطيبة على الرغم من أن ذاكرة إى بى تعطلت زهاء ربع قرن.

إن غالبية ما يحيط به العلم عن الذاكرة جاء من دماغ تالف يشبه دماغ إى بى إلى حد كبير. إنه دماغ رجل يبلغ من العمر ٨١ سنة معروف باسم «إتش إم»، رجل فاقد للذاكرة يعيش فى دار للمسنين بولاية

ترجمة: هالة صلاح الدين



غيـــــاهب الذاكـــــرة

كونيتيكيت. كابد إتش إم خلال طفولته مرض الصرع الذى بدأ بعد حادثة دراجة فى سن التاسعة. وحينما بلغ سن ٢٧، كان يفقد الوعى عشر مرات فى الأسبوع دون أن يقوى على القيام بأى شىء. حسب جراح أعصاب يدعى ويليام سكوفيل William Scoville أن بإمكانه مداواة صرع إتش إم بإجراء جراحة تجريبية تستأصل جزءاً من الدماغ اشتبه فى أنه المسبب للمشكلة.

وفى عام ١٩٥٣ بينما كان إتش إم يرقد واعياً على طاولة العمليات وقد تخدرت فروة رأسه، ثقب سكوفيل ثقبين فوق عينى المريض بالضبط. رفع الجراح مقدمة دماغ إتش إم بملعقة حديدية صغيرة بينما راحت مصاصة معدنية تمتص أغلب قرن آمون ومعه ما يحيط به من فصين صدغيين وسطيين. قلل الجراح من عدد نوبات إتش إم لكن سرعان ما اتضح أنه سلبه أيضاً ذاكرته.

وفى غضون ما تلا من خمسة عقود، تعرض إتش إم لعدد لا حصر له من التجارب ليصير أكثر المرضى دراسة فى تاريخ علم الدماغ. ومع الوضع فى الاعتبار ما أفضت إليه جراحة سكوفيل من نتيجة مروعة، افترض الجميع أن إتش إم سوف يغدو حالة فريدة استثنائية.

حطم إى بى ذلك الافتراض. فما فعله سكوفيل مع إتش إم باستخدام مصاصة معدنية فعلته الطبيعة بفيروس الهربس البسيط. وعند وضع صور الرنين المغناطيسى للدماغين جنباً إلى جنب، يتشابه الدماغان تشابهاً غريباً وإن كان ما لحق بدماغ إى بى من دمار كان أكثر شمولاً. حتى لو لم تكن على دراية بشكل الدماغ الطبيعى، سوف تجد الثقبين المتسعين المتماثلين يحدقان إليك شأنهما شأن العينين.

وكما هو الحال مع إى بى، استطاع إتش إم أن يحتفظ بالذكريات بما يكفى فقط للتفكير فيها لكن بمجرد أن ينصرف دماغه إلى شىء آخر، يعجز كلية عن استعادتها. وفى إحدى التجارب الشهيرة، سألت بريندا ميلنر Brenda Milner - عالمة نفس كندية - إتش إم أن يتذكر العدد ٥٨٤ لأطول وقت ممكن. ولكى يحتفظ بالعدد على طرف لسانه، استعمل نظاماً معقداً باح به إلى ميلنر: «المسألة سهلة. ما عليك إلا تذكر رقم ٨. حاصل جمع ٥ و٨ و٤ هو ١٧، تتذكرين ٨ وتطرحينها من ١٧، فيتبقى لك رقم ٩، وبتقسيم ٩، يصبح لديك ٥ و٤، وها هو العدد: ٥٨٤. سهلة».

سلط تركيزه على هذه العملية المعقدة لعدة دقائق. لكن حالما تشتت ذهنه، تبدد العدد من عقله. بل إنه لم يسعه أن يستحضر أن أحدهم وجه إليه سؤالاً. ومع أن العلماء كانوا يقفون على الفرق بين الذاكرة طويلة الأمد وتلك قصيرة الأمد منذ أواخر القرن التاسع عشر، فهم يمتلكون الآن دليلاً متمثلاً فى دماغ إتش إم على أن كل نوع منهما يحدث فى أجزاء مختلفة من الدماغ، وأن بدون منطقة قرن آمون لا يستطيع إتش إم أن يحول الذاكرة قصيرة المدى إلى أخرى طويلة المدى.

كما تعلم الباحثون نوعاً آخر من التذكر عن طريق دراسة إتش إم. فعلى الرغم أنه لا يستطيع أن يحدد ما تناوله فى وجبة الإفطار أو يصرح باسم رئيس البلاد الحالى، ثمة أشياء بإمكانه تذكرها. إذ اكتشفت ميلنر أن بمقدوره تعلم مهام معقدة بدون أن يعى حتى ذلك. بينت إحدى الدراسات أن إتش إم يستطيع أن يتعلم كيفية رسم نجمة من خمسة رؤوس على قطعة ورق وهو ينظر إلى انعكاسها فى المرآة. وفى كل مرة تكلف ميلنر إتش إم بالمهمة، يدعى أنه لم يقم بها قط. ومع ذلك يتحسن دماغه كل يوم فى توجيه يده للحركة بصورة عكسية. فعلى الرغم من فقدانه للذاكرة، كان يتذكر.

ورغم الاختلافات حول عدد أنظمة الذاكرة بالتحديد، يقسم العلماء الذكريات بوجه عام إلى نوعين: الذاكرة التقريرية والذاكرة غير التقريرية (أحياناً ما يشار إليهما بالذاكرة الصريحة والذاكرة الضمنية). تحوى الذاكرة التقريرية أشياء تعلم أنك تتذكرها مثل لون سيارتك أو ما جرى فى أصيل اليوم الفائت. فقد إى بى وإتش إم القدرة على تكوين ذكريات تقريرية جديدة. أما الذكريات غير التقريرية فهى أشياء تعرفها بدون التفكير فيها بعقل واع مثل كيفية ركوب الدراجة أو كيفية رسم شكل أثناء التطلع إليه فى المرآة. لا تعتمد تلك الذكريات غير الواعية على منطقة قرن آمون لتعزيزها وتخزينها. إذ تقع فى مناطق مختلفة تماماً من الدماغ. فتعلم قيادة السيارات يحدث فى قاعدة الدماغ بالمخيخ. والتعلم الإدراكى فى القشرة المخية الجديدة، وتعلم العادات فى منتصف الدماغ. وكما أوضحت حالتا إى بى وإتش إم بكل وضوح. يمكن أن يتلف جانب من الدماغ ويظل الباقى منه عاملاً كالمعتاد.

إن ما نلجأ إليه فى الغالب من استعارات لوصف الذاكرة - الصورة، التسجيل، المرآة، القرص الصلب - توحى كلها بدقة ميكانيكية وكأن الدماغ ناسخ لا تشوبه شائبة لتجاربنا. وقد اعتقد العلماء لأمد طويلة أن أدمغتنا تؤدى وظائفها مثلها مثل تسجيل مثالى، وأن حياة طويلة من الذكريات محفوظة بعيداً فى مكان ما فى العلية المخية. ولو استعصى على أحدهم العثور عليها فذلك مرجعه عدم قدرته على الدخول إليها وليس لاختفائها.

وقد ظن أحد جراحى الأعصاب الكنديين ويدعى وايلدر بينفيلد Wilder Penfield انه أثبت تلك النظرية خلال العقد الخامس من القرن العشرين بعد أن استخدم مجسات كهربائية لتنبيه أدمغة مرضى الصرع وهم يرقدون واعين على طاولة العمليات. كان بينفيلد يحاول أن يحدد مصدر الصرع غير أنه اكتشف أن المرضى يبدءون فى وصف تجارب جلية عندما يلامس المجس مناطق معينة من الفص الصدغى. وعند معاودة لمس نفس الموضع. غالباً ما يستثير نفس النتيجة. وعليه اعتقد بينفيلد أن الدماغ يسجل كل شىء يمنحه المرء أى درجة من الانتباه الواعى، وأن هذا التسجيل دائم.

إن ما نلجأ إليه في الغالب من استعارات لوصف الذاكرة ـ الصورة، التسجيل، المرآة، القرص الصلب ـ توحي كلها بدقة ميكانيكية وكأن الدماغ ناسخ لا تشوبه شائبة لتجاربنا

يتفق أكثرية العلماء فى الوقت الحاضر أن ما استفزه بينفيلد من ذكريات غريبة أقرب إلى الأوهام والهلوسة منها إلى الذكريات بيد أن الظهور المباغت لأحداث منسية من ماضى المرء تجربة يألفها الجميع ولا شك. ومع ذلك، يقوم الدماغ بمهمة التسجيل بصورة رديئة هزيلة. فالبادى أن المآسى والإهانات تنطبع انطباعاً حاداً فى الذاكرة، وفى الغالب بدقة لا تُحتمل. أما تلك الذكريات التى نظن أننا فى حاجة إليها بالفعل - كاسم أحد المعارف أو ميعاد المقابلة أو مكان مفاتيح السيارة - فتتبخر على الدوام.

حاول مايكل أندرسون Michael Anderson، باحث فى الذاكرة بجامعة أوريجون فى مدينة يوجين، أن يحسب تكلفة كل هذا التبخر. ووفقاً لعقد من دراسة «مذكرات النسيان» التى كتبها طلبة إحدى الجامعات (الوقت المستغرق فى العثور على مفاتيح السيارة مثلاً)، يقدر أندرسون أن الناس يهدرون أكثر من شهر كل عام من أجل التعويض عما نسوه من أشياء.

تتذكر إيه جيه كيف اكتشفت للمرة الأولى أن ذاكرتها ليست كذاكرة الأخرين. كانت فى الصف السابع، تذاكر دروسها استعداداً للامتحانات النهائية. «لم أكن سعيدة؛ فقد أضمرت كراهية للمدرسة»، قالت. كانت أمها تعاونها فى القيام بالواجبات المنزلية حين شرد ذهنها بعيداً. «طفقت أفكر فى السنة الفائتة، لما كنت فى الصف السادس، أفكر فى حبى لهذه السنة. ثم جعلت أكتشف أنى أتذكر تاريخاً بعينه وما كنت أفعله منذ سنة خلت». فى البداية لم تُحمل الموقف أكثر مما يحتمل. لكن بعد مضى عدة أسابيع كانت تلعب مع إحدى الصديقات، فاستحضرت أنها قضت أيضاً نفس اليوم من السنة الماضية مع نفس الصديقة.

«لكل سنة إحساس مختلف، ولكل وقت من السنة إحساس مختلف. إن ربيع ١٩٨١ يختلف كل الاختلاف عن شتاء ١٩٨١»، تقول: التواريخ بالنسبة لإيه جيه ككعكة ماديلين الصغيرة التى حملت عقل مارسيل بروست على الرجوع زمنياً فى روايته تذكر الأشياء الماضية. إن مجرد ذكر التواريخ يستحث ذكرياتها لا إرادياً. «تعلم أن رائحة الأشياء تثير الذكريات القديمة، أما ذاكرتى فأعمق وأقوى من ذلك عشرة أضعاف».

اعتاد أخى أن يقول، «آه، إنها «رجل المطر»»، «وكنت أجيبه قائلة: «لا، لست رجل المطر!»، لكنى كنت أتدبر فى قرارة نفسى»، «ماذا لو كنت بحق... هل أنا مثله؟ هل



غيـــــاهب الـذاكـــــــرة

ثمة علة بى؟، فكرت إيه جيه فى لحظة من اللحظات أن تقيم متجراً على الممشى الخشبى القريب لتقف فيه لاعبة دور الروزنامة البشرية. سوف يدفع الناس خمسة دولارات كى يحاولوا تحدى ذاكرتها فيما يخص التواريخ. لكنها عدلت عن الفكرة. «لا أريد أن أتحول إلى بهلوان».

سوف يلوح وكأن امتلاك ذاكرة كذاكرة إيه جيه سيجعل الحياة مختلفة اختلافاً نوعياً، سيجعلها أفضل. إن ثقافتنا لا تنفك تغمرنا بمعلومات جديدة غير أننا لا نأسر أو نفهرس سوى القليل منها بهدف استرجاعها لاحقاً. ماذا يعنى أن نمتلك كل هذه المعلومات الضائعة فى متناول أيدينا؟ هل ستجعلنا أشد إقناعاً أو أشد ثقة؟ هل ستجعلنا، بمعنى ما، أذكى؟ ومع الأخذ فى الاعتبار أن التجربة هى مجموع ذكرياتنا والحكمة هى مجموع تجاربنا، لن تعنى الذاكرة الأفضل الإلمام بالمزيد عن العالم فقط، بل أيضاً المزيد عن نفس المرء. كم عدد الأفكار القيمة التى ذهبت بلا تأمل وعدد الروابط التى راحت بلا تثبت من جراء عيوب ذاكرتنا؟

إن ما تجسده إيه جيه من حلم، ألا وهو كمال الذاكرة، يراودنا منذ القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل عندما اخترع الشاعر اليونانى سيمونيديز السيبوسى تكنيكاً معروفاً باسم «فن الذاكرة».

كان سيمونيديز الناجى الوحيد من انهيار فاجع لسقف إحدى صالات المآدب فى إقليم ثيساليا. وحسبما روى شيشرون، الذى وصف الحادثة بعد أربعة قرون من وقوعها، كانت الجثث مشوهة بلا سبيل إلى التعرف عليها. غير أن عقل سيمونيديز استطاع أن يشيح بعينيه عن الفوضى ليبصر كل ضيف جالساً فى مقعده حول المائدة. لقد وقع على الاكتشاف المذهل المعروف باسم «منهج المكان» لو وسعك أن تحول أياً كان ما تحاول تذكره إلى صور عقلية جلية ثم تنظمها فى مساحة معمارية تخيلية تُعرف باسم «قصر الذاكرة»، يمكن أن تصبح الذكريات عملياً مستعصية على المحو.

يقال إن بيتر من مدينة رافينا، وهو قاض إيطالى معروف ومؤلف كتاب شهير عن الذاكرة فى القرن الخامس عشر، استخدم منهج المكان فى حفظ الإنجيل وجميع المبادئ القانونية و٢٠٠ خطبة من خطب شيشرون و١٠٠٠ بيت من شعر أوفيد. اعتاد فى وقت فراغه أن يعيد قراءة الكتب المخزونة فى قصور ذاكرته. «حينما غادرتُ بلدى لأقصد مدن إيطاليا كسائح، يسعنى بحق القول إنى أحمل كل ما أمتلكه»، أشار.

من العسير علينا أن نتخيل الحياة فى ثقافة ما قبل الكتب المطبوعة أو ما قبل حمل الأقلام الحبر أو الورق لتدوين الملحوظات. «فى عالم يضم كتباً قليلة تقبع فى المقام الأول بالمكتبات العامة، لا بد أن يتذكر المرء ما تعلمه لأنه لا يستطيع على الإطلاق أن يعتمد على حرية الوصول المستمر إلى مواد معينة»، تكتب مارى كاروسرز Mary Carruthers. مؤلفة كتاب الذاكرة، وهو دراسة عن دور تقنيات الذاكرة فى ثقافة العصور الوسطى. لقد ساور الناس فى العصور السحيقة والوسطى إحساس بالخشية من الذاكرة وصوروا أعظم عباقرتهم باعتبارهم أصحاب ذاكرة ممتازة. فلاهوتى القرن الثالث عشر توماس أكويناس، مثلاً، مشهور بتأليف كتاب الشامل فى اللاهوت فى عقله بالكامل وإملائه من الذاكرة. باستطاعة الفيلسوف الرومانى سينيكا الأكبر تكرار ٢٠٠٠ اسم بنفس ما لديه من ترتيب. ثمة رجل رومانى اسمه سيمبليشيس بإمكانه أن يتلو قصائد فيرجل بالعكس وكأنه يحفظها عن ظهر قلب. لقد عد الناس أيامها الذاكرة القوية واحدة من أعظم الفضائل نظراً لأنها أدمجت فى النفوس عالماً من المعرفة الخارجية. الحق أن ثمة قاسماً مشتركاً فى حيوات القديسين، ألا وهو الذاكرة الاستثنائية.

وبعد اكتشاف سيمونيديز انتظم فن الذاكرة فى مجموعة واسعة من القواعد والتعليمات على أيدى أشخاص مثل شيشرون وكوينتيليان وضمن أبحاث لا عد لها ولا حصر عن الذاكرة أجراها الباحثون خلال العصور الوسطى. وعندها لم يتعلم الطلبة ما ينبغى أن يتذكروه فقط بل وتقنيات تذكره. الواقع أن هناك ثقافات عديدة تتضمن تعاليم طويلة لتدريب الذاكرة. فقد انتقل التلمود اليهودى، ومعه فن الاستذكار - تقنيات لحفظ الذكريات - شفهياً لمدة قرون. لا يزال حفظ القرآن يعتبر إنجازاً سامياً بين المسلمين الورعين. كما يسرد حكاة غرب أفريقيا التقليديون والشعراء السلافيون ملاحم هائلة من الذاكرة بالكامل.

إلا أن الكثير منا قد خضعوا لتحولات عميقة خلال الألف سنة المنصرمة. إذ استبدلنا بالتدريج ذاكرتنا الداخلية بما يشير إليه علماء النفس بالذاكرة الخارجية، وهى بنية فائقة ضخمة من دعائم تكنولوجية اخترعناها كيلا نضطر إلى تخزين المعلومات فى أدمغتنا. وبمقدورك أن تقول إننا تحولنا من تذكر كل شىء إلى تذكر أقل القليل. فلدينا صور لتسجيل تجاربنا وروزنامة لتتبع جداولنا وكتب (والآن الإنترنت) لتخزين مجموع معارفنا ومفكرات لتدوين ملحوظاتنا السريعة. ما هى إذن الآثار المحتملة لهذه المصادر الخارجية للذاكرة علينا وعلى مجتمعنا؟ وهل فقدنا شيئاً؟

ولكى تكمل إيه جيه الذكريات داخل عقلها، تخزن أيضاً مجموعة نفسية من الذكريات الخارجية. فبالإضافة إلى مذكرات مفصلة احتفظت بها منذ طفولتها، تحوز مكتبة بها ما يقرب من ألف شريط فيديو نسخته من التلفزيون وصندوقاً يحفل بتسجيلات المذياع و«مكتبة أبحاث» تتكون من ٥٠ مفكرة تزخر بحقائق وجدتها على الإنترنت وتتعلق بأحداث موجودة فى ذاكرتها. «المسألة هى أنى أريد أن أحتفظ بكل شىء»، قالت: لقد أصبحت صيانة ماضى إيه جيه الدافع الأول المحرك لحياتها. «حين أجفف شعرى فى الصباح، أتأمل فى تاريخ اليوم أياً كان. ولكى ينقضى الوقت، يمر عقلى سريعاً على ذلك اليوم خلال العشرين سنة الأخيرة مثلاً».

تتتبع إيه جيه أصول ذاكرتها غير المعتادة إلى انتقال الأسرة من نيو جيرسى إلى كاليفورنيا عندما كانت فى الثامنة من عمرها. تميزت الحياة فى نيو جيرسى بالراحة والألفة فى حين بدت كاليفورنيا أجنبية غريبة. كانت تلك أول مرة تستوعب فيها أن الكبر فى السن والانتقال من مكان لآخر يعنى بالضرورة النسيان والهجران. «ولأنى أكن عظيم الكراهية للتغيير، تراءى بعدئذ وكأنى أردت أن أتشبث بكل شىء. لأنى أعلم فى النهاية أن يد التغيير سوف تطول كل شىء»، باحت.

يعتقد كيه. أنديرس إريكسون K. Anders Ericsson، أستاذ علم النفس بجامعة فلوريدا الحكومية، أن إيه جيه قد لا تختلف فى الأساس عن بقيتنا إلى هذه الدرجة. بعد الإعلان المبدئى عن حالة إيه جيه بجريدة نيوروكيس، صرح إريكسون أننا فى حاجة إلى تفسير هوس إيه جيه الاستثنائى بماضيها وليس تفسير ذاكرة فطرية استثنائية غير مسبوقة. دائماً ما يتذكر الناس أشياء يظنون فى أهميتها. فمتعصبو البيسبول ينعمون بمعرفة موسوعية عن الإحصاءات، وأساتذة الشطرنج كثيراً ما يستدعون تحركات مخادعة جرت منذ سنوات، والممثلون غالباً ما يستدعون نصوصاً بعد فترة طويلة من أدائها. لكل فرد ذاكرة لشىء ما. ويعتقد إريكسون أنه لو اهتم أحدهم بالتمسك بالماضى اهتمام إيه جيه به، سوف يغدو حفظ حياة المرء فى متناول يديه.

أنبأت إيه جيه بنظرية إريكسون فسادتها آيات انزعاج واضح. «أريد أن أتصل به لأصرخ فى وجهه. لو أنى قد قضيت كل هذا الوقت فى حفظ حياتى، فلا بد أنى شخصية مملة أيما ملل»، تعلن: «أنا لا أحفظ حياتى. أنا أعرفها، وهذا هو كل ما فى الأمر».

إن تذكر كل شىء يسبب الجنون لإيه جيه ويجلب لها الوحدة. «أتذكر الأحداث الجيدة مما يبث فى الارتياح. لكنى أستدعى أيضاً السيئ منها - وكل اختيار سيئ»، تقول. «الحق أنى لا أتهاون مع نفسى. هناك كل تلك المنعطفات فى الطريق، لحظات يجب أن تتخذ فيها قراراً. ثم أجد نفسى بعد مرور عشر سنوات لا أزال أوبخ نفسى عليها. لا أسامح نفسى على الكثير من الأفعال. إن ذاكرتك هى حاميك ويخالجنى شعور بأن ذاكرتى

فى عـالم كان يضـم كتبـاً قليـلة تقبـع فى المقـام الأول بالمكتبـات العامة، لا بـد أن يتـذكر المرء ما تعلمـه لأنـه لا يسـتطيـع على الإطـلاق أن يعتمـد على حـرية الوصول المستمر إلى مواد معينة



غيـــــاهـب الـذاكـــــــرة

لم تقم بحمايتى. ليتنى أصير إنساناً بسيطاً لمدة خمس دقائق، ليت عقلى يخلو من كل تلك التفاصيل. لقد أطلق أكثرية الناس على ما لدى «الهبة»، لكنى اسميه «عبئاً»».

إن الهدف الأساسى من الجهاز العصبى - من أعضاء الحواس التى تمد الخلايا العصبية الغزيرة بالمعلومات بغرض ترجمتها - هو تطوير شعور بما يجرى فى الحاضر وما سيطرأ فى المستقبل حتى تبدر منا أفضل ردود أفعال ممكنة. تلعب أدمغتنا دوراً أساسياً كآلات تنبؤ، ولكى تقوم بمهمتها يتوجب عليها أن تنظم فوضى الذكريات المحتملة. لسنا فى حاجة إلى تذكر معظم التفاصيل التى تنفذ إلى أدمغتنا بقدر ما نحن فى حاجة إلى التفكير فيها.

لقد طور دانيال شاكتر Daniel Schacter، عالم النفس بجامعة هارفارد، تصنيفاً للنسيان حتى يفهرس ما يسميه بالخطايا السبعة للذاكرة. خطيئة التشتت: العازف «يو-يو ما» ينسى كماناً يقدر بـ ٢,٥ مليون دولار فى المقعد الخلفى للتاكسى. معاناة ساحة القتال لا تنفك تطارد محارب حرب فيتنام ليعانى خطيئة الاستمرار. السياسى الذى ينسى كلمة تباطأت على طرف لسانه خلال حملته الانتخابية يكابد خطيئة الاعتراض. يقول شاكتر إنه على الرغم من رمينا إخفاقات الذاكرة باللعنات يومياً تقريباً، فذلك مرجعه جهلنا بفائدتها. الحقيقة هى أن كل خطيئة ما هى إلا الوجه الآخر لإحدى الفضائل، «ثمن ندفعه مقابل عمليات ووظائف تخدم ذاكرتنا من جوانب عديدة». ثمة أسباب نشوئية وجيهة تتسبب فى إخفاق ذكرياتنا بتلك الطريقة. لو أننا اختزنا على الفور كل ما رنونا إليه وشممناه وسمعناه وفكرنا فيه فى قاعدة البيانات الهائلة المسماة بذاكرة الأمد الطويل، سوف نغرق فى بحر من معلومات لا قيمة لها.

يصف خورخى لويس بورخيس فى قصته القصيرة «فيونس المتذكر» رجلاً أعجزه عدم القدرة على النسيان. فهو يتذكر كل تفاصيل حياته دون أن يسعه التفرقة بين التافه منها والمهم. لا يستطيع أن يحدد أولوياته أو يطلق الأحكام العامة. إنه «عاجز حرفياً عن تكوين الأفكار العامة النظرية». يختتم بورخيس قصته ليقول: عل النسيان وليس التذكر هو جوهر ما يجعلنا بشراً. «أن تفكر»، يكتب بورخيس، «هو أن تنسى».

أن تهرم هو أن تنسى أيضاً. ثمة نحو خمسة ملايين أمريكى مصابون بمرض الزهايمر فيما يعانى المزيد من إعاقة إدراكية معتدلة أو درجات أقل من فقدان الذاكرة. ففى إحدى الدراسات الموسعة عندما سئل الأشخاص فى العقد التاسع من العمر تذكر قائمة من ١٥ كلمة قرأها أحدهم منذ عشرين دقيقة استحضروا أقل من ٦٠٪ بينما استطاع الأشخاص فى العقد الثالث تذكر ما يقرب من ٩٠٪.

ليس من المدهش إذن أن الناس تفتش منذ أمد بعيد على كيماويات قد توقف ذلك المد من النسيان. وطبقاً للفرنسيسكانى برناردو دو لافينهيتا، «تتكون الذاكرة الصناعية من نوعين: يتألف النوع الأول من الأدوية والكمادات». ولا ريب أن النوع الثانى هو فن الذاكرة الذى عده لافينهيتا أكثر أماناً وفاعلية (نظراً لأن أدوية الذاكرة لها آثار جانبية سيئة مثل «تجفيف الدماغ»). اليوم تباع عشبة الجنكة كمكمل غذائى بدون وصفة طبية أو تضاف إلى عصائر الفاكهة والمشروبات الغازية «الذكية»، حتى بدون دليل قاطع على تنشيطها للذاكرة - أو تجفيف الدماغ.

وفى غضون العقود الفائتة مدت شركات الدواء عملية التنقيب إلى آفاق جديدة. فمع تسلحهم باستيعاب أوسع لأسس الذاكرة الجزيئية، يسعون الآن إلى خلق أدوية جديدة توسع من قدرة الدماغ على التذكر. ففى خلال السنوات الأخيرة تشكلت ثلاث شركات على الأقل بإعلان صريح عن نيتها تطوير أدوية للذاكرة. وتحاول واحدة من هذه الشركات، كورتيكس فارماسوتيكال، تطوير طائفة من الجزيئات المعروفة باسم الأمباكينات «Ampakines»، التى تسهل من انتقال الجلوتاميت كناقل عصبى. إن الجلوتاميت إحدى المواد الكيميائية التنبيهية الأولية التى تنتقل عبر المشابك العصبية بين الخلايا العصبية. ومن خلال توسيع تأثيرها، ترجو كورتيكس أن تحسن قدرة الدماغ الضمنية على تشكيل الذكريات واسترجاعها. حين أعطى الباحثون الأمباكين لفئران فى منتصف العمر، استطاع أن يعكس كلية التراجع المتعلق بالتقدم فى السن فى الآلية الخلوية للذاكرة.

لن تلبث أدوية مثل الأمباكينات أن تصل إلى الأسواق؛ وعندئذ قد تحمل تأثيراً مهولاً على المجتمع. وعلى الرغم من أن شركات الأدوية تفتش عن العلاج لدرء شر الزهايمر ومحاربة تراجع القوى الذهنية، يبدو من المحتوم أن تنتهى تلك الحبوب إلى أيدى طلبة يذاكرون دروسهم فى اللحظات الأخيرة وربما العديد ممن يريدون فقط تحسين وظائف أدمغتهم. ثمة بالفعل منبهات نفسية مصممة لعلاج اضطراب قصور الانتباه وفرط الحركة مثل الأديرال والريتالين ويستخدمها واحد من كل طالب فى بعض الكليات «كمعينات على الاستذكار» فى محاولة لزيادة تركيزهم وتحسين ذكرياتهم.

تطرح كل هذه الظروف قضايا أخلاقية محيرة. هل نختار العيش فى مجتمع يحوى أناساً ذوى ذاكرة أفضل بكثير؟ لكن ما معنى أن ينال المرء ذاكرة أفضل؟ هل معناه أن يستحضر المرء الأحداث كما وقعت بالضبط، أحداثاً عارية من مراجعات ومبالغات تقوم بها أدمغتنا بصورة طبيعية؟ هل معناه الفوز بذاكرة تنسى الصدمات؟ هل معناه نيل ذاكرة تتذكر ما نود تذكره فقط لا غير؟ هل معناه أن نتحول إلى إيه جيه؟

أردت أن أعاين ذاكرة إى بى غير التقريرية المجردة من الوعى على الطبيعة، لذا طلبت منه أن يتمشى معى فى أرجاء الحى. فقال، «لا، لا أريد»، لذا انتظرت ثم طلبت منه بعد دقيقتين فوافق هذه المرة. مرقنا من الباب الأمامى لتلفنا شمس الأصيل المرتفعة ثم انعطفنا يميناً. سألت إى بى عن سبب عدم اتجاهنا يساراً.

«أفضل فقط ألا أسلك ذلك الطريق. هذا هو الطريق الذى أمشى فيه. لا أعلم السبب»، أنهى إلى.

لو سألته أن يرسم خريطة لطريق يقطعه ثلاث مرات على الأقل يومياً، لن يتمكن من رسمه قط. بل إنه لا يعلم عنوانه أو اتجاه المحيط (وهو أمر بعيد الاحتمال لشخص من سان دييجو). لكن بعد سنوات عديدة من قطع نفس التمشية، حفرت الرحلة نفسها فى لا وعيه. تدعه زوجته بيفرلى يخرج بمفرده الآن رغم أنه سوف يتوه تماماً مع أى انعطافة خاطئة. أحياناً ما يرجع من مسيرته بأشياء التقطها فى الطريق؛ كومة من الأحجار المستديرة، جرو، محفظة أحدهم. لا يسعه أبداً تفسير وصولها إلى حوزته.

«يحبه الجيران حباً جماً؛ فهو يتقدم إليهم ويبدأ فى تجاذب أطراف الحديث معهم»، تتفوه بيفرلى. وعلى الرغم من ظنه أنه يقابلهم للمرة الأولى، علمته العادة أنهم أشخاص مريحون، وقد وجد مشاعر الراحة سبباً وجيهاً للتوقف وإلقاء التحية.

نعبر الشارع فألفى نفسى بمفردى مع إى بى للمرة الأولى. لا يعلم من أنا أو ماذا أفعل بجواره وإن خالجه على ما يبدو شعور بأنى بصحبته لسبب وجيه. لقد ابتلى بكابوس وجودى مطلق، أصيب بعمى عن الحقيقة التى يعيش فيها. تملكنى باعث على أن أساعده على الهرب، على الأقل للحظة. أردت أن أمسك بذراعه وأهزه. «أنت مصاب باضطراب نادر فى الذاكرة»، رغبت فى أن أصيح به. «آخر خمسين سنة ضائعة من حياتك وخلال أقل من دقيقة سوف تنسى أن هذه المحادثة قد حدثت». أتخيل ما سيحيق به من رعب صرف، الوضوح الخاطف، الفراغ المذهل الذى سوف ينفتح أمام عينيه ثم ينغلق بنفس السرعة. ثم السيارة المارة أو الطائر المغرد الذى سوف يعيده بسرعة إلى فقاعة النسيان.

نستدير لنعود أدراجنا إلى شارع لا يتذكر اسمه، نجتاز جيراناً لا يتعرف عليهم وهم يلوحون بأياديهم، باتجاه بيت لا يعرف عنه شيئاً. وقفت أمام المنزل سيارة ذات نوافذ ملونة بلون خفيف. نستدير لنتطلع إلى انعكاس صورتينا فأسأل إى بى عما يراه.

«رجل عجوز» يلفظ. «ذلك كل شيء». ■

ليس من المدهش إذن أن الناس تفتش منذ أمد بعيد عن كيماويات قد توقف ذلك المد من النسيان

هؤلاء الأقباط "المصريون"

■■ أشعر بسحر لا يُقاوم للقرية المصرية، وقد أُتيحت لى الإقامة فى العديد من القرى والعزب البعيدة، وكلما زاد عدد من رأيتهم من الفلاحين ازداد تقديرى لسحر أدبهم البسيط، وكرم ضيافتهم غير المفتعل، وذلك النوع من السماحة المحلية، حتى بين عامة الناس، الذى يشع فى كل مناحى الحياة على قدر من البدائية تبدو وكأنها تعود إلى الأيام الأولى التالية لخروج الإنسان من الجنة كى يأكل من عَرَق جبينه طوال أيام حياته.

فى السنوات القليلة الماضية بدلت زيادة الثروة لدى طبقات أصحاب الأطيان تلك الحياة البدائية فى بعض القرى، ومع عودة الكثير من الأراضى إلى أيدى من كانت قد صودرت منهم عند اعتلاء الحكام الطغاة العرش، وآخرهم من حملوا لقب الخديو، وأعلنوا أنفسهم أصحاب البلاد كلها. والكثير من تلك الثروة فى أيدى الأقباط، الذين انتعشت أحوالهم بشكل كبير فى ظل أمان الحكم البريطانى.

لدى عدد قليل من الأقباط الأثرياء رغبة صادقة فى زيادة أملاكهم وتحسينها، وحكم المناطق الخاضعة لهم بطريقة تمكنهم من اكتساب تقدير الكثيرين من التابعين لهم وحبهم.

وليس هناك ما يمكن أن يؤدى إلى مصلحة مصر الدائمة على نحو مؤكد مثل الحماس للزراعة الماهرة التى يبديها هؤلاء. فهم يشجعون دراسة الزراعة العلمية التى تزيد بواسطتها إنتاجية بلدهم زيادة ضخمة؛ وعن طريق إدخال كل نوع من الآلات الحديثة، يسرعون فى الوقت نفسه فى جعل أراضيهم الشاسعة، التى ما زالت تعتمد حتى الآن على فيضان النيل فى زراعة محصول واحد، تعمل بكامل قدرتها الزراعية، إذ يجعلها الرى الاصطناعى الآن تغل سلسلة من المحاصيل طوال العام.

فى الدلتا، وخاصةً من خلال أنظمة تسوية التربة الكبيرة، يستصلح أصحاب الأطيان هؤلاء مساحات ضخمة من الصحراء الخالصة والأراضى الملحية، ويجعلونها تبتسم تحت القمح المتمايل الذى ينبت حيثما كانت السيطرة فى يوم من الأيام للبحر، أو كانت الصحراء الحارة ترفض أن تنبت ورقة خضراء واحدة.

الوجه البحرى هبة النيل، بالمعنى الحقيقى تماماً للكلمة. فقد كان هناك وقت كانت الدلتا فيه خليجاً من خلجان البحر المتوسط. وقبل أن تملؤها رواسب النيل، كانت أمواج البحر ترتطم بصخور جبل المقطم الشهير الجيرية وراء القاهرة.

بالإضافة إلى المساحات الكبيرة من الأراضى التى جرى استصلاحها، ما زال فى الدلتا مليون ونصف المليون فدان بور فى انتظار تخليصها من الملح الذى تخللها وجعلها عاقراً لفترات طويلة. وتدل التجارب على أنه من الممكن زراعتها، وحينذاك لن تُزرع أرزاً فحسب، بل كذلك قطناً.

بصورة عامة، وطبقاً لاستنتاجات الجيولوجيين، قد يقال: إن النهر الجبار منذ بدء العصر الحديث جعل من نفسه خادماً كريماً للبشر بعدم توقفه عن مهمة إبعاد البحر المتوسط برواسبه الغنية؛ ففى العصور القديمة زاد حجم الهبة مع زيادة عدد السكان الذين ينعمون بها؛ وها هو التاريخ يعيد نفسه فى العصر الحالى.

كان ما قام به الإنسان لاستكمال دور النهر دوراً مهماً باستمرار. وقد يكون هناك شك فيما إذا كانت المهارة المستخدمة اليوم تتجاوز كثيراً مهارة المصريين الأوائل الذين كرسوا جهودهم لتطوير هبة النهر المقدس الغالية. وهناك الكثير من الأدلة على أنهم فهموا علم الرى، مثلما فهموا علم البناء بالخشب والطوب والحجر.

لا يحتاج الأمر إلا إلى نظرة سريعة على أرقام الزيادة المدهشة فى عدد سكان مصر. فى ظل ظروفها الحالية من العدل والأمان. كى يبين مقدار ضرورة عمل الناس، كذلك الذى تحدثت عنه، لدعم الحياة البشرية، ولو باستكمال أنشطة الحكومة، عن طريق استصلاح الأراضى بواسطة أنظمة الرى والصرف الضخمة.

لا يدرك أحد أنه بينما كان عدد سكان مصر منذ حوالى سبعين سنة ما يقرب من مليونين، فهو حالياً حوالى عشرة ملايين، وأن الجزء الأكبر من تلك الزيادة تم تحت الحكم البريطانى الذى تعود بدايته إلى عام ١٨٨٢.

لم يعد عمل السخرة

س. هـ . ليـــــــدر



أبناء الفراعنة المحدثون
دراسة لأخلاق أقباط مصر وعاداتهم
س. هـ . ليدر
ترجمة: أحمد محمود
القاهرة . دار الشروق . ٢٠٠٨



الروائح هنا ليست نسائم الريف الإنجليزى التى يصعب تحديدها، ولكنها تحتضننا بشكل كامل ودافئ. فقد تحولت الأرض إلى فردوس من العطور الرقيقة

يحكم على عشرات الآلاف من الرجال بالعبودية التى ثبت أنها طريق سريع للموت. وإنه تفكير غريب أن يُنشئ الخديو من أجل سيدة رفيعة الشأن ما زالت على قيد الحياة طريقًا، من القاهرة إلى الأهرام، بسرعة وحشية أدت إلى التضحية بآلاف الأرواح خلال أسبوعين أو ثلاثة.

هناك أعمال كثيرة فى مصر جرى الحصول عليها بمثل هذا الثمن من الألم والدم البشريين. ففى زمن السخرة، وهو قريب نسبيًا، كانت القرى تردد صدى صرخات الأمهات اللائى أصابهن الجنود لاختطاف أبنائهن من بين أيديهن، إما للسخرة أو للجهادية. فقد كانت تلك الأمهات المسكينات يعرفن جيدًا أن فرص رؤية أحبائهن مرة أخرى وقد عادوا من أى من الخدمتين أقل من ضعيفة.

فى عهد اللورد كرومر انتهت السخرة، واليوم لا تسبب الخدمة فى الجيش أية ولولة: فالأم والزوجة الشابة تتطلعان إلى رؤية الشاب مرة أخرى، قويًا ومعافى، وقد اكتسب خبرة من الأسفار، ولديه الكثير من الأشياء التى يرويها، بل وفى جيبه القليل من المال.

بعد أن تلقينا دعوة من إقطاعى قبطى لزيارة أملاكه، أصبحنا طبقًا للعادة الشرقية فى مسئولية مضيفنا، منذ خروجنا من سكننا فى القاهرة إلى اللحظة التى يعيدنا فيها إلى العتبة ذاتها. وأعرف أنه لا ينبغى لى إهانة المضيف المصرى بعرض دفع أجرة سفرى بالسكة الحديد، وليس هناك ما أواسى نفسى به فى الخضوع لمثل هذه العادة غير الإنجليزية إلا بالوعد الذى قطعه هو على نفسه لى بأن يزورنى فى بيتى بإنجلترا، حيث سيكون من اللائق أن أبدى له قدرًا مساويًا من التقدير والاهتمام.

عندما وصلنا إلى المحطة الريفية استقبلنا العديد من الخدم بتشكيلة غريبة من الجمال والبغال والحمير لتركبها مجموعتنا للذهاب إلى القرية النائية، وكانت السلامات والتحيات بيننا وبين الأشخاص الذين تجمعوا لاستقبالنا مفعمة بالمجاملة الودية على كل الجوانب، وكنا جميعًا ندعو ببركات السلام، مع التمنيات بيوم مشرق وسعيد لبعضنا البعض.

كان صباحًا رائعًا فى شهر يناير، حيث شتتت الشمس برد الليل (إذ كان قد خرج للتو من صقيع حقيقى) وشبورة الصباح الباكر البيضاء.

بعد الكثير من التأخير، وهو أمر معروفة به مصر عند من هم على علم بعاداتها التى تنم عن عدم الاكتراث، بدأ موكبنا المسير، وبعد أن غادرنا المدينة الصغيرة أصبحنا بعد وقت قصير نسير فى صف واحد طويل على جسر الترعة، وهو تقريبًا النوع الوحيد من الطرق المعروف فى الريف.

كم كان الأمر كله مثيرًا، الهواء الجاف الذى تدفئه الشمس، والسماء الزرقاء، والألوان الحية وقد مست ذلك كله لمعة ذهبية خفيفة غريبة عن أرض النيل، والحقول خضراء بما فيها من برسيم وفول يملأ الهواء بتلك الرائحة اللذيذة التى تتحدث برقة إلى الرجل الإنجليزى عن أيام الصيف الدافئة الأولى فى الوطن.

الروائح هنا ليست نسائم الريف الإنجليزى التى يصعب تحديدها، ولكنها تحتضننا بشكل كامل ودافئ، فقد تحولت الأرض إلى فردوس من العطور الرقيقة. إننا نأخذ نفسًا عميقًا؛ فالهواء ليس لذيذًا فحسب، بل هو زاخر بالقوى المنعشة المانحة للصحة، مع إيحاءات بالشباب الدائم الذى يتضاءل فيه الحذر ويصبح الإنسان حرًا لا يقيده شىء.

حياة الطيور بجوار المياه ساحرة. فطائر الرفراف، الذى لا يعرف روعة ألوانه ولمعانه من لم يره وهو يتحرك بسرعة من مكان لمكان فى ضوء الشمس، لا يبدى أدنى أثر من الخوف من الإنسان. وقد رأيت عشرين طائرًا من هذه الطيور تطير مسرعة حول إحدى الترع. وفى مصر لا يحدث قط أن يزعج الأولاد، صغارًا أو كبارًا، مباهج الطيور. يطير كذلك البوم الصغير من على الضفاف ويحط عليها، ناسيًا على ما يبدو عادات الليل الخاصة بنوعه؛ أو إذا اختار النوم، فإننا نمر عليه وهو قابع فوق الغصون العارية لبعض الأشجار، حيث يعشش أزواجًا.

القُبرة موجودة هنا، ولها أغنية قصيرة خاصة بها، بينما الطيور كلها تقريبًا صامتة؛ وهناك كذلك أبو فصادة كثير الحركة. والهدهد الجميل أليف كحمام ميدان سان ماركو «بفينيسيا»، بينما تطير بقع صغيرة ذات ألوان حية هنا وهناك كأنها زهور متحركة.

أحد ملامح الطبيعة المصرية هو موكب الأهالى بجوار المجارى المائية، الرجال بجلابيبهم القطنية الزرقاء، والنساء ملفوفات بلون أسود مغبر، وهو الموكب الذى لا تبدو له نهاية منذ طلوع الشمس حتى مغيبها.

لأننا راكبون، فالعرف يقضى بأن نلقى نحن السلام على من يسيرون، ونتلقى فى المقابل التحيات والابتسامات من المارة.

نبتعد بعد قليل عن الترعة ونسير فى طرق وسط الحقول صنعها ما لا يحصى من الأقدام التى مرت عليها.

هناك سوق تُقام اليوم، فى أقرب بلدة؛ وعندما اقتربنا منها قابلتنا أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال، يقودون جميعًا الحيوانات، جمالاً وأبقارًا وحميرًا وماعز وخرافًا، وفى بعض الأحيان كانت الحملان الصغيرة محمولة فوق أكتاف الراعى، أو فى حضنه، بالمعنى الحرفى للكلمة.

على الجانب كان هناك عدد من الشباب فى طريقهم إلى السوق توقفوا ليلعبوا ألعاب الكلمات التى يجدون متعة فيها وتدفعهم إلى نوبات خافتة من المرح.

هناك كذلك مجموعة من تلاميذ المدارس خرجوا من دروسهم الصباحية يلعبون لعبة قديمة جدًا تشبه الروندرز. كان أحد الصغار قد تجرد من ملابسه كلها، وقد سخر منه رفاقه لأن إفرنجيًا شاهده عريانًا. أما هو فقد رد عليهم بسرعة قائلا: «سوف يظن أننى عفريت النهار، وهو عفريت مألوف فى وادى النيل.

فى أحد الحقول كان فلاح يقود أحد المحاريث البدائية الذى يجره ثور، بينما يغنى أغنية قديمة جدًا بصوت رتيب لطيف عن الأرض. عرفت كلماتها فيما بعد من عامل آخر فى الحقول. وهذه ترجمة بتصرف شديد لها:

الشمس دافئة،
ومياه الفيضان تجرى؛
والبذور التى بذرتها فى أمان.
سوف تُحصد عما قريب،
وسوف تقفز الحملان الصغيرة،
وسوف يُحمل الحصاد إلى البيت.
سوف ينمو البطيخ فى الرمل الرطب،
وسوف يتدلى الخيار الأخضر من الغصن،
والعنب والخوخ والرمان،
سوف يبهج الأيام عندما ينخفض الماء.

تخلق الأصوات الصادرة من الحقول التى تضيئها الشمس فى مصر انطباعًا بالسعادة الطبيعية تختلف عن تلك التى فى أى بلد آخر. هل هى خوار الماشية الراضية فى هذا الوقت من السنة الذى ينمو فيه البرسيم، أم ضحكات وصيحات الأطفال الراقصين الذين يرعونها، أم زقزقة الطيور، التى تعطى للنشيد العظيم نغمته الخاصة؟! لا أدرى، ولكن يبدو أن الإنسان يستمع هنا إلى أغنية شديدة القدم خاصة بالحياة الفتية المائجة فى الجنة الأولى قبل أن تغيب الشمس فى يوم من الأيام.

يرون فى مصر أن من حق كل حيوان الحصول على وجبة من البرسيم، الذى له اسم معناه «طعم الربيع». وينادى عليه الرجل الذى يبيعه فى شوارع القاهرة لتأكله الخيل والحمير التى تؤجر هناك. فالحوذية يطعمون به دوابهم كلما أتيح لهم ذلك، وقمامة البرسيم الخضراء أمر تتميز به المدينة الشرقية ويتذكره زوارها جميعًا. ويخبرنا مضيفنا أن خيل المدينة تُرسل جميعها بالقطار إلى الريف كل عام من أجل «طعم الربيع»؛ والواقع أننا أحضرنا معنا هذه المرة اثنين أو ثلاثة من الحيوانات.

لا يمكنك بالطبع أن تطلق عددًا من الحيوانات فى حقل البرسيم لتقتات،

فى زمن السخرة، وهو قريب نسبياً، كانت القرى تردد صدى صرخات الأمهات اللائى أصابهن الجنود لاختطاف أبنائهن من بين أيديهن، إما للسخرة أو للجهادية



فكل حيوان، سواء أكان عنزة أم جاموسة، يُقيد على حافة الحقل، حيث يختلف طول القيد باختلاف كمية البرسيم المسموح له بأكلها فى وقت معين.

مر موكبنا خلال قريتين أو ثلاث قرى، حيث اضطررنا للمرور صفاً واحداً فى الممرات الضيقة. بُنيت الأكواخ بالطوب اللبن المصنوع بطمى جاءوا به من ضفاف النيل، ولها أسطح مستوية غالباً ما تغطيها أعواد الذرة الشامى التى تُستخدم وقوداً.

الأكواخ بلا نوافذ؛ ولكن بما أن الأشياء جميعها التى تحب الشمس موجودة خارجها، فإن المرء يرى حياة القرية كلها تمضى فى المساحات الصغيرة المفتوحة.

هنا بعض النسوة يخضضن اللبن للحصول على الزبد، حيث يدفع اللبن من جانب إلى آخر داخل قربة من جلد الماعز معلقة فى سيبية من البامبو ومجموعة من النساء والفتيات جالسات حولهن لمناقشة العملية بالطبع.

وهناك أم تجلس فى الشمس وقد استند ظهرها إلى جدار كوخها ترضع صغيرها. وتخرج نساء أخريات من النهر حاملات البلاليص فوق رءوسهن، والنساء جميعاً ملفوفات بالرداء المصرى الأسود غير المناسب إلى حد كبير لأن الطرقات جميعها ترابية؛ وعندما نظهر يغطين وجوههن إلى أن يمر الرجال من جماعتنا.

من غير اللائق إلى أقصى حد أن يخاطب الرجال النساء، ولكن زوجتى كانت فى الغالب فى آخر الركب كى يمكنها التمتع بتحيتهن. وكن أمامها يسقطن الأغطية تماماً عن وجوههن، ويبتسمن وهن يلقين كل أنواع التحيات والتمنيات الطيبة. ألن تتوقف وتشرب من لبنهن؟! أيمكن أن يقدمن لها طعاماً؟! ولأنه سبقت لها زيارة الجزائر، فقد تعرفت على نوع من التحية يستخدمه العرب بصورة عامة هناك، ولكن لا يستعمله فى مصر سوى «النساء، صباح الخير».

سوف يُدهش السائح العادى الذى يزور مصر حين يعلم أن كلمة «بقشيش» لا تُسمع أبداً خارج المنطقة الأثرية، مهما كان فقر الناس. فالواقع أنهم حريصون فى كل مكان على ألا يأخذوا، بل على أن يعطوا أفضل ما لديهم من أشياء متواضعة للزائر، الذى هو ضيف الكل طبقاً للتقاليد القديمة.

بما أنه وقت الظهيرة، فالمعتاد فى مثل هذه الساعة أن تكون هناك مجموعة من الرجال الذين عادوا من الحقول ويستريحون فى «خضرة» القرية، ويبدو أن كون الأرض ليست خضراء، بل رمادية متربة، ليس له أثر على أنشطة ذلك السرب الكبير من الإوز جميل المنظر الذى يرعى عليها فكان لذلك نتيجة طيبة.

ويجد الفلاح متعة فى الحديث، شأنه فى ذلك شأن فئات الرجال كافة فى الشرق، وتسمح أشد قواعد الأدب صرامة للرجال كافة بأن يتجمعوا حيثما يجرى الحديث.

ومن الطبيعى أن تنتشر أخبار اليوم شفاهة، ولن يكون أى رجل حظى بميزة معرفة القراءة والكتابة من الفظاظة بحيث يحرم الأغلبية العظمى من جيرانه، الذين لا يعرفون القراءة، من الاستفادة من هبته التى يُحسد عليها. ويتوقف عابر السبيل باستمرار ويجلس بهدوء بالقرب من جماعة الرجال الذين يتحدثون، ولا يتبرم أحد من وجوده أبداً أو يستاء.

قواعد الأدب الشرقية، وهى فى الغالب قديمة قدم الزمان، مفهومة فهماً جيداً بحيث نادراً ما يكون هناك شىء غير لائق فى مثل هذه التجمعات غير المتعمدة. فالتربية الطيبة التى تمنع الرجل من أن يخاطب على نحو مباشر رجلاً له حق معترف به من الاحترام الأكبر، تفرض كذلك على الرجل ذى المكانة الأفضل المعاملة الرقيقة لرفيقه الأدنى منه مكانة. فليس من المقبول استغلال المكانة الرفيعة من حيث التعليم أو الثروة على نحو لا يليق؛ وهناك إجماع على استهجان صخب الصوت وفظاظة السلوك بالنسبة للرجال كافة، ولهذا السبب ليس هناك من يصفر بفمه فى الشرق.

تأدب مصر أعمق بكثير من أى نوع من مراعاة الرسميات. وقد قرأت عن راهب قبطى عجوز كان يتبع قواعد غاية فى الصرامة فى مأكله، غير أنه كان يأكل فى وجود الضيوف على نحو يخالف تلك القواعد حين يرى أن ذلك يرضيهم.

والأدب الذى على هذا النحو هو ما يوفر كل الراحة والاطمئنان فى الوقت الحالى للزائر الأجنبى الموجود فى مجتمع غريب عنه، الأمر الذى يخلق المتعة الاجتماعية. وبهذه الطريقة فالتعدى على الأداب أمر مستحيل، ذلك أنه مهما يكن ما فعله الزائر بغض النظر عن تعارضه مع عادة البلد فهو مغتفر دون أية إشارة. وإذا قدم أى اعتذار فهو يقابل بابتسامة رقيقة وكلمات من قبيل «نحن نعرف أن ما فعلته هو من باب الأدب فى بلدكم». المرة الوحيدة التى عرفت فيها أن زائراً إنجليزياً تسبب فى إساءة بالغة حين أصرت سيدة بعد حضورها قداساً قبطياً على شراء الصنوج التى استعملت فيه لتكون تذكاراً. ومن حسن الحظ أن الأدب الذى سمح للسيدة بأن تتصرف بالطريقة التى تصرفت بها كوفئ بتدخل رجل أدرك طبيعة الجرح الذى أحدثته دون قصد، واستعيدت ممتلكات الكنيسة.

الفلاح كائن فضولى، كحال كل من يحب الثرثرة دائماً. مرات ومرات كان الخدم يتساءلون بصوت منخفض وبإيجاز طوال الرحلة عمن يكونون هؤلاء الأغراب؟ لماذا يزورون جزءاً من البلاد لا يذهب إليه السياح أبداً؟ وكم من الوقت سيمكثون؟ وأهم شىء، هل للسيد أية علاقة بالحكومة؟

تنطلق الأخبار فى كل الاتجاهات بتلك الوسائل السحرية المعروفة فى الشرق فحسب. وكما فى الأزمنة التوراتية، أرسل كل من المراقب الواقف على سطح الدار والحارس الذى فى الحقول القائم على تله الترابى الإشارات.

وأخيراً ها نحن نرى على البعد، عبر الحقول الزمردية، القرية التى سنقيم فيها. إنها مثل القرى جميعاً، حشد بديع من الأكواخ الطينية بنى على أرض ارتفعت قليلاً عما حولها اتقاء لفيضان النيل. وتبرز فيها مئذنة المسجد الرشيقة، والدار البيضاء الكبيرة، أو القصر، الذى نحن ذاهبون إليه، والقباب الصغيرة التى تميز الكنيسة القبطية. وفى أى بلد آخر كانت القاذورات المحيطة بالقرية ستصبح أمراً لا يمكن احتماله. فإحدى عجائب مصر أن الشمس تُصلح كل شىء.

فى حوليات مصر القديمة بالهيروغليفية، كثيراً ما يرد ذكر الدور المميزة عن المساكن العادية بلقب «الدار البيضاء»، وكانت خزانة الفرعون تسمى «الدار البيضاء المزدوجة». والشىء نفسه قائم الآن. فالعدد الأكبر من مبانى الحكومة المصرية طلى بالجير الأبيض ويمكن للمسافر تمييزها عن بعد. ومسكن كل مصرى ذى مكانة فى البلد طليت جدرانه باللون الأبيض. والآن، وبما أنه ليس هناك ما يدعو إلى إخفاء الكنائس القبطية، فهى تُطلى باللون الأبيض كما فى الماضى. وحتى تلك الكنائس الصغيرة التى يؤمها الكثير من الأقباط الذين اجتذبتهم البعثة التبشيرية الأمريكية إلى المذهب المشيخانى تبرز ببياضها الناصع بين مساكن الناس بلونها الطينى الكالح.

عندما وصلنا إلى الدار قوبلنا بأدب يبعث على السرور من مضيفنا الذى قدمنا إلى ناظر أملاكه، وإلى خدمه المهمين الآخرين، الذين كرسوا جميعاً جهدهم منذ تلك اللحظة لراحتنا والاحتفاء بنا.

من اللافت للانتباه أن نجد أن هذه الدار رغم أن تاريخ بنائها يعود فقط إلى الأيام الأولى للاحتلال البريطانى الذى وفر الأمن والكثير من الثروة التى قامت عليها أملاك صاحبها، فمخططها يتطابق تطابقاً شديداً مع مخطط المساكن المصرية القديمة التى على القدر نفسه من الأهمية.

فالطوب اللبن الذى ورد ذكره فى سفر الخروج هو المادة التى بُنيت بها، والفناء الداخلى محاط بغرف تستخدم لاستقبال الضيوف، وكمندرة، ولإقامة أهل الدار وكمخازن، وكل ذلك يشبه إلى حد كبير ما كان فى تلك الأيام.



الفلاح كائن فضولى،
كحال كل من يحب الثرثرة دائماً.
مرات ومرات كان الخدم يتساءلون بصوت منخفض
وبإيجاز طوال الرحلة عمن
يكونون هؤلاء الأغراب!

يؤدى هذا الفناء إلى الورش، ومكاتب الدائرة، وغرف نوم الخدم، والمطابخ، ومخازن الكراكيب، بل واسطبلات تلك الحيوانات التى تستخدمها الأسرة باستمرار. وينزل الضيف من على دابته فى الفناء. والخدم الذين يسرعون لمساعدته على قدر كبير من الأدب، وهم يلقون عليه التحيات المعبرة التى يقتضيها العُرف.

وتشبه أبواب الفناء المنطوية ذات المزاليج الخشبية إلى حد كبير أبواب العصور القديمة، وكذلك أبراج الحمام القمعية المرتفعة القائمة على جانبى المدخل. وجرى تقوية الأبواب بصفائح حديدية قد تذكرنا بالطريقة التى كانت تُجلد بها أبواب معابد الفرعون بالذهب أو البرونز، حيث كان الأعداء الأجانب يسرقونها دون احترام للآلهة.

أبراج الحمام ذات أهمية كبيرة، فالحمام مكوّن على قدر كبير من الأهمية من مكونات الطعام فى أنحاء البلاد كافة. ولا شك فى أن أصل الأبراج، الذى يعود إلى أزمنة بعيدة، هو معرفة أن الحمام فى هذا المناخ الحار يحب الاختفاء كى ينام خلال جزء من النهار فى أى جره أو بلاص بارد بجدره. وتُبنى هذه الأبراج القمعية بالطين وقد لُصقت فيها الجرار القديمة. ولا يفكر أحد فى شراء الحمام فى مصر؛ فتوفير هذه الملاذات الباردة يكفى باستمرار لاجتذاب العدد الذى يمكن إعالته بهذه الطريقة. ولا يزعج أحد الأبراج، حتى وإن كان ذلك لتنظيفها، اللهم إلا إذا كان الغرض هو استخراج «الزبل» ذى القيمة الكبيرة. إلا أن ما يميز الحمام هو أنه لا يظهر عليه أى أثر للتراب والأوساخ الموجودة فى محيطه. وعندما يخرج الحمام قرب الغروب ويحلق حول المكان، ويلحق ضوء الشمس الذهبى، يبدو أن هذا المشهد هو الذى أوحى بذلك البيت الشاعرى من المزامير «إذا اضطجعتم بين الحظائر فأجنحة حمامة مغشاة بفضة وريشها بصُفرة الذهب».

أبدى المصرى القديم ذوقًا عظيمًا فى الزخرفة الداخلية لداره، فقد استُخدمت الزخارف التطبيقية على نحو كبير، وكانت الجدران كلها تحمل الزخارف والرسومات، وكان الأثاث مزخرفًا. وتخلو الدار الريفية الحديثة، كتلك التى نزورها، فى العادة من الزخارف الجدارية من أى نوع، حيث تُركت الجدران بالملاط الخشن. أما الأثاث فقليل جداً وبشع، أما أغطية الأرائك، وهى فى بعض الأحيان من قماش جيد، والسجاد والأكلمة فهى بصورة عامة ذات قيمة كبيرة. إلا أن النقطة المهمة بالنسبة لمن يعتقدون أن الأقباط ينحدرون مباشرة من نسل شعب الفراعنة هى أن يروا كيف أنه مع عودة الرفاهية ينمو حب غير عادى لزخرفة الدور على نحو معقد. وأعرف العديد من الدور القبطية التى أُنفق عليها قدر كبير من المال فى زخرفة الغرف الرئيسية كلها. والواقع أن المهارة والذوق القديمين هما الأمران المفتقدان فى تلك المحاولات المكلفة لتزيين البيت. ومن المأمول أنه نتيجة للرعاية التى توليها الحكومة لتعليم الحرف اليدوية فى المدارس الفنية الممتازة سوف يتضح أن المواهب القديمة كامنة فحسب ولم تضع تماماً.

من جانب الفلاحين، فإن المحاولات الوحيدة فى أى نوع من الزخرفة هى تلك الرسومات البدائية الموجودة حول مداخل الأكواخ لبيان أن أحد السكان أدى الحج. فإذا كان هذا الرجل مسلماً فإن رحلته إلى مكة تمنحه لقب «حاج»، ويستعد أصدقاؤه لعودته المباركة برسم صور بشعة للجمال والقطارات والسفن المفترض أنه سافر بها على جدار داره حول المدخل.

ولكن لا بد أن نتذكر أن رحلات الحج المقدسة فى الشرق لا تقتصر على المسلمين. فعلى الأقباط كذلك أن يسعوا لزيارة القدس، وإلى الاستحمام فى نهر الأردن. وفى مصر يتبع كل منهما دون أن يدرى عادة من عادات القدماء؛ ذلك أن الحج إلى أحد المعابد كان فرضاً واجباً ومغامرة مقدسة؛ وكان يُصوّر كذلك على المنازل.

حين كان الضيوف يأتون فى الماضى كان يقدم لهم قدح صغير من الخمر وباقة صغيرة من الزهور. والآن هناك فنجان القهوة الذى لا بد منه والسيجارة. والقبطى الحديث جداً الذى اكتسب خبرة من الأسفار هو الذى يتخلى عن هذه العادة الشائعة بين المسلمين والمسيحيين على السواء، ويأمر بإحضار قارورة الويسكى والسيفون.

ينبغى أن يغار الأقباط من اتباع عادة شرب القهوة، حيث يشير التراث إلى أن فضل اكتشافها يعود إلى راهب قبطى؛ فقد قادته تجاربه للعثور على شىء يمكنه من البقاء مستيقظاً من أجل صلواته الطويلة بالليل إلى تقرير أن حبوب البن هى ما يبحث عنه على وجه الدقة.

ليس من الأدب تقديم فنجان ممتلئ لآخره بالقهوة، ونادراً ما رأيت فنجاناً ثانياً يقدم؛ وقيل لى إن عرض فنجان ثالث يُفهم على أنه إهانة متعمدة. «الثالث للسيف» كما يُقال.

مضيفنا من الطراز القديم، ولذلك ارتشفنا قهوتنا على الجانب المشمس من الفناء، حيث وضعت المقاعد وبثت السجاجيد من أجلنا، بينما الحياة فى المعقل الإقطاعى تستمر حولنا لا يقطعها شىء.

توجد وسط الفناء شجرة جميز نشرت فروعها التى تقف عليها أعداد من الطيور التى تزقزق. جلست فى ظلها مجموعة أو اثنتان من أطفال الخدم الذين يحملقون فى الضيوف ويتبادلون التعليقات التى تبعث على الضحك بخصوصنا. وقد أضفت ملابسهم ذات الألوان الزاهية نبرة مرحة على المشهد. البعض منهم زنوج، وهم أولاد البوابين الجالسين فى صمت عند البوابة فى نوبة حراسة، حيث بيوتهم فى الغرف المفردة الصغيرة على جانبى المدخل. ولا تعنى الخدمة فى مصر العزوبة بحال من الأحوال؛ ومغزى كلمة «الأعباء الثقيلة» المشئومة غير معروفة لدى أى من السيد أو الخادم. إنه ذلك النوع من الحياة الذى نقرأ عنه فى الصفحات الأولى من الكتاب المقدس، حيث توجد إشارات كثيرة إلى أطفال الخدم «ابن أمَتك».

كان الشرقيون القدماء ينظرون إلى العزوبة بكراهية شديدة، باعتبار أن عدم وجود ذرية بلاء رهيب. ومع أن الرهبانية الدينية كانت النمو المبكر للكنيسة القبطية، فهى لم تؤثر على آراء الناس بشأن هذا الأمر. كما يكره الشرقى الرجل الأجرد.

تشبه مكانة مضيفنا مكانة اللورد الإقطاعى ويلجأ الناس إليه للحصول على العون والحماية، ويقدمون له الاحترام والتبجيل، كما كان يفعل الأقنان فى الماضى. وليس لدى البواب الذى يحرس البوابة الكثير مما يقوم به، ذلك أن دخول البوابة مباح من الناحية العملية، ليس بالنسبة لمن يتظاهرون بالعمل فحسب، بل كذلك بالنسبة لأى شخص يرغب فى أن يغذى عينيه بعظمة سيده الإقطاعى، أو مجرد رغبته فى التمتع بشرب الماء من القلة أو الزير الذى تظله الشجرة، والاستراحة فى وضع القرفصاء فوق إحدى الحصر الموجودة على الأرض؛ أو يخلع نعليه إذا أراد الجلوس على أحد المقاعد الخشبية المتوفرة، حيث تكون الساقان باستمرار تقريباً مرفوعتين على المقعد والذراعان ملتفتين حولهما. وهكذا كان يجلس قدماء المصريين، كما تبين الآثار.

وهناك شكل من أشكال الجثو نهى عنه الإسلام والمسيحية على السواء. فنشاهد على الآثار القديمة رجالاً جثوا على ركبة واحدة، وخاصة فى وجود الأكابر؛ ولكن منذ أيام الرسول وهناك اعتقاد عام بأنه من الخطأ أن يسجد إنسان لغير الله وحده.

وقد رأيت رجلاً فى ضائقة يطلب معروفاً من الباشا وقد أخذ التراب من أرض الفناء وضمه على شفتيه علامةً على الاحترام والتبجيل؛ ولكن الرجل نفسه لا يمكن أن يركع لأحد، ولو للخديو نفسه.

الفناء هو ملتقى الكل. الرجال والنساء والأطفال. فى الناحية ممن لديهم وقت فراغ طوال النهار. ويمضى الرجال المسنون الذين لم يعودوا يعملون الساعات الطوال هنا كل يوم، مستمتعين بمنظر الأنشطة فى المكان، مسبحين بمسابحهم إذا كانوا مسلمين؛ ومتمتمين بصلواتهم «أبانا الذى» و«كيرياليسون» إذا كانوا أقباطاً، وكذلك بالمسبحة؛ حيث

فى قلب القاهرة زرت أقباطًا من الطبقات كافةً، من مضيفى القروى الثرى، ومن المهنيين الشباب، إلى الكهنة والشمامسة فى الكنيســـة، دون أن أرى قــط أثرًا لزوجات العائلات وبناتها



يتبادلون الحديث عن ذكريات الأيام الخوالى حين كانت الحياة أقسى مما هى عليه الآن، ويحمل ظهر كل رجل من طبقتهم آثار سوط الطاغية.

الخفراء بنبابيتهم الطويلة موجودون هنا لتقديم تقريرهم؛ والصبية الحمارون محيو المرح ينتظرون الأوامر وفى أيديهم سياطهم.

بصورة عامة هناك مجموعة من الشباب والعجائز على الأرض يلعبون ألعابًا بسيطة بالحجارة كان القدماء يلعبونها. وإذا ظننا أنها ألعاب صبيانية، فقد نستنتج أن هؤلاء الناس البسطاء جميعهم أطفال.

يخيم باستمرار سكون ووقار يختص بهما الشرقيون. ويجب ألا يظن أحد أن هؤلاء الناس حزانى، لكونهم غير صاخبين. فهناك إشراق يحيط بهم لا يقل بهجة لكونه مكبوتًا. وتقديرهم للفكاهة والمرح لا خلاف عليه. وهم يقدرون كثيرًا أى رجل يمكنه «تقديم إجابة طيبة»، أو يتفوق فى التقليد، أو لديه أى لمسة من سرعة البديهة أو الفكاهة.

ولأن مرح الفلاح المصرى لا يعتمد بحال من الأحوال على أية درجة من درجات السُكْر، فهو ليس صاخبًا؛ إنك تسمع الضحكة المرحة، وإن ندر أن تكون عالية جدًا؛ ولكن القهقهة والضحكات الرنانة والصياح الصادر عن العامة المجتمعين فى المشارب بالبلاد الغربية لا تسمعها هنا أبدًا. فهم يعلمون الشرقى منذ حداثة شبابه أن كل شكل من أشكال الإفصاح عن المشاعر قلة أدب ولا بد من استهجانه.

لا يعيش المصرى، مهما كانت ثروته وتحت أية ظروف، فى الدور الأرضى من أى منزل أو فندق، سواء فى المدينة أو الريف؛ فهو يظن أن النوم فى هذا المكان على نحو خاص يضر الصحة ضررًا بليغًا. ولذلك توجد غرف الاستقبال التى يأخذوننا إليها الآن فى الطابق الأول.

توجد هناك الأرائك الشرقية المغطاة بألوان زاهية وقد رُصّت حول الغرفة، وغُطّيت الأرضية بالسجاد الجميل والغالى. وهناك الكثير من النوافذ، وهى غالبًا فى حاجة إلى إصلاح؛ فالبعض منها لا يغلق، أو أن زجاجه مشروخ أو محطم. وهذا مثال على أن المصرى يمكن أن يصنع ثوبًا رائعًا، ولكنه لا يخيط الزر الأخير. من حسن الحظ أنه يحب الهواء النقى فى غرفه. وبعد أن يلف نفسه فى المساء حين يجلس فى الداخل، فإنه يستنشق «الهواء البحرى الذى يرد الروح» بنفس البهجة التى كان يستنشقه بها أسلافه الأوائل الذين كانوا يستخدمون التعبير نفسه فى وصف الرياح الشمالية. وفى سفر أيوب «ومن الشمال البرد».

تقتصر كراهية العرب للريح، وهو الأمر الذى يشاركهم فيه الرسول نفسه، على الخماسين، وهى رياح حارة محملة بالرمال تأتى من الصحراء، وهى بالفعل أمر يخشاه الناس عندما يقترب موسمها.

هناك جناحان كبيران من الغرف بطول المبنى كله: كل غرفة من الغرف بها باب يؤدى إلى الأخرى. ولذلك فلكى تذهب إلى الغرفة التى فى آخر الجناح، لا بد لك من المرور فيه كله. وهو ترتيب كان معتادًا فى مصر منذ أقدم العصور. أحد الجناحين مفتوح للضيوف، والآخر هو «الحرملك»، أو «المكان المعزول»، وهى الكلمة التى جرى تشويهها على نحو شرير فى الغرب. فالحرملك فى هذه الحالة مجرد جناح من الدار تعيش فيه الأسرة؛ وهو مخصص للزوجة والأطفال ولا يمكن لأى ذكر خارج درجة معينة من القرابة زيارته.

كثيرًا ما يسألون عمّا إذا كان الأقباط يتبعون العادات ذاتها التى يتبعها المسلمون فيما يتعلق باعتزال النساء وحجابهن أم لا؟ وهذا السؤال يحتاج إلى إجابة متأنية: لأن عددًا معينًا من المسيحيين المصريين المتعلمين والمستنيرين قد تخلوا منذ الاحتلال البريطانى عن العادات القديمة التى كان الأقباط يتبعونها حتى ذلك العهد كالمسلمين سواء بسواء.

فقد هجرت سيدات أسيوط القبطيات الثريات، على سبيل المثال، الحجاب بالمرة ويتنقلن بحرية كما لو كن فى إنجلترا، لولا ذلك القدر الضئيل من التنازل الذى يفرضه كون رؤيتهن فى الأماكن العامة فى بلد الاحتجاب فيه هو القاعدة أمرًا يثير التعليق عليهن.

فى الفيوم كذلك تجمع عدد قليل من السيدات من الطبقتين العليا والوسطى معًا لتحسين أوضاعهن على الطريقة الغربية. وفى القاهرة والإسكندرية هناك عائلات لا تعرف فى الحياة المنزلية شيئًا عن الاحتجاب أو الغرف المعزولة، فالأصدقاء من الجنسين يُدعون إلى مائدة الغداء والعشاء، وأصبحت حرية الاختلاط التامة هى القاعدة.

لقد قابلت بهذه الطريقة عددًا من السيدات القبطيات شديدات الذكاء. وهن فى الغالب جميلات ويتمتعن بسحر رقيق وليد الحياة الخفية التى خرجن منها للتو، يدعمه اعتزاز بالنفس رباه فيهن التعليم الممتاز على أيدى مربيات أجنبيات من فرنسا وإنجلترا. وهن يتحدثن لغتنا بطلاقة، ويعرجن بطلاقة سهلة إلى الكلام الذى يستخدمنه فى رحلات التسوق التى يقمن بها سنويًا فى باريس، حيث يشترين ملابسهن كلها. الواقع أن فصاحة لغتهن العربية الأم لا تصل فى فصاحتها إلى فصاحة تلك اللغات المكتسبة.

صديقة قبطية لزوجتى على قدر كبير من الأدب والثقافة والجاذبية لا تكتب بفضل تخرجها من «جيترون» النثر الإنجليزى فحسب، بل تكتب النظم الإنجليزى الذى يجد فيه خيالها الشرقى تعبيرًا ثريًا.

ولكن كما أنه من المثير أن نجد مثل هذا التقدم، فلا بد من الاعتراف كذلك بأنه مقصور على طبقة صغيرة جدًا. فما زال من الواجب وصف الاحتجاب الصارم والحجاب المُحكم بأنه القاعدة القبطية؛ وأنه ليس كذلك بين أبنـــاء الريف والجهلة فحسب. فهناك شباب مصممون، رغم التعليم فى مراكز العلم الأوروبية وربما لهذا السبب، على أن العادات الشرقية، فيما يخصهم، سوف يُحافظ عليها. وأعرف أكثر من قبطى شاب من خريجى الجامعات الإنجليزية عادوا إلى مصر مصممين على إبقاء زوجاتهم الشابات على قدر كبير من الحجاب والاحتجاب.

بالنسبة للأكثرية من الناس، أغنياء وفقراء، نادرًا ما يكون هناك شك فى هذا الأمر. ففى قلب القاهرة زرت أقباطًا من الطبقات كافةً، من مضيفى القروى الثرى، ومن المهنيين الشباب، إلى الكهنة والشمامسة فى الكنيسة، دون أن أرى قط أثرًا لزوجات العائلات وبناتها. وكما هو الحال فى الأسر المسلمة، فإنهم يأخذون زوجتى بمفردها إلى الحرملك، ومن خلالها سمعت عن الحياة المثيرة التى تجرى خلف تلك الأبواب المحمية.

يجب ألا نفترض أن النســـاء باحتجابهن يصبحن طيورًا محبوسة داخل أقفاص تضرب بأجنحتها قضبان سجنها الذهبية. فقد كُتب من الكلام الفارغ عن الحرملك أكثر مما كُتب عن أى من تفاصيل الحياة الشرقية الأخرى، وهو الأمر الذى أبدع فيه الكُتّاب الغربيون أيما إبداع فى الاستنتاجات الزائفة، والداعرة فى كثير من الأحيان، التى يغطون بها ما ينقصهم من معرفة دقيقة.

أحد الافتراءات التى يقبلها الناس بأسهل ما يمكن فى البلاد الغربية أن ارتداء الحجاب واحتجاب الحريم من اختراع النبى (محمد)، وقد حافظ عليه أتباعه رفيقو الحال، وأن المسيحيين فى مصر اضطروا لتبنى العادات الضارة من غزاتهم العرب.

الأحرى هو أنه لا بد من إرجاع وضع النساء هذا إلى مصر القديمة وإلى عصور العهد القديم، كما تشير هذه الأشياء. فالمرأة السورية كما صورها رينان كانت تمامًا كالمرأة فى مصر القديمة، تنأى بنفسها عن الأنشطة العامة والاهتمامات الاجتماعية الخاصة ببعلها، وكانت راضية برعاية رفاهيته عن بعد، واستقباله برقة حين يزورها، والحصول على متعتها بألف طريقة نسائية، وقد أحاط بها أطفالها المحبوبون؛ واستقبال صديقاتها ورد زيارتهن، ومناقشة أمر الملابس التى سوف

يرتدينها، والأخبار الأسرية كافة، بتفاصيل دقيقة، كما تفعل النساء جميعاً.

سيدات الحرملك فى مثل هذه الدار التى نزورها لسن عاطلات، كما يفترض بصورة عامة. فرعاية أسرهن تشغلهن إلى حد كبير؛ ومهارتهن فى تفاصيل معينة تتعلق بالطهو أمر يجدن فيه متعة. وهن جديرات بأسلافهن القديمات فى اتقان ما لا يحصى من الفطائر التى يصنعنها فى المآدب الكبيرة التى يستمتع بها بعولتهن وأصدقاؤهم.

بالنسبة لمسألة الزى، هناك فحص مطول وجاد للأقمشة الغالية وللمجوهرات التى يرسلها تجار المدينة للاطلاع عليها. والأقمشة الحريرية والساتان التى يخترنها تكون ذات ألوان زاهية أو لامعة أو متقزحة اللون، مع أنسجة من الذهب والفضة. وبالنسبة للمجوهرات، لا تجد بلداً الصانع الماهر للمعادن النفيسة والأحجار الكريمة على هذا القدر من الأهمية التى عليها هذا الصانع هنا؛ وإذا عرفت أين تبحث عنها سوف تجد فى القاهرة جواهر أندر وأجمل ترصيعا مما فى باريس. ويستمر الصانع المفضل فى العمل حتى من أجل السيدات ذوات الثروة المتواضعة؛ ذلك أنهن إذا لم يكن يضفن إلى ممتلكاتهن شيئاً، فإنهن يعدن تشكيل التاج الثمين، أو القلادة الثقيلة، أو الأساور، لكى يجددن سرورهن بما لديهن من ماس ولؤلؤ وياقوت وزمرد، وهى الأحجار الكريمة المفضلة.

وعندما لا تكون السيدة من هذه الطبقة مشغولة بتلك الأمور، يكون إطار التطريز فى يديها، حيث تحقق نتائج تتسم بالمهارة والجمال. وجمع الكثير من العطور الشرقية التى تستخدمها هى وبناتها أحد أنشطتها الصغرى: وهى حكَمٌ جيد. وبما أن زوجها يستخدم كذلك عطراً مفضلاً. قد يكون الياسمين. فهى تختار هذا العطر له. وهى تستخدم الحنة لتخضيب أظافر قدميها ويديها لتضيف إلى جمالها جمالاً. إلى جانب استخدامها بسخاء أكثر فى الطقوس. وتستخدم (الأنتيمون) فى جعل عينيها تبدوان طويلتين.

إذا كانت السيدة المصرية تحظى بحب زوجها، فإنها لا تطلب أكثر من ذلك كى تشعر بالسعادة التامة؛ والواقع أنه إذا فكّر فى إزالة الحدود التى تجعل منها سجينة فإنها ستظن أنه لم يعد يحبها ويهتم بها، ويبدو لها العالم بأسره ولأنه ينهار ويتحطم.

الكثير جداً من الزيجات على قدر كبير من السعادة؛ وإذا ما ظهرت الإشارة القديمة إلى أن النساء مجرد لُعَبٍ يلهو بها الرجال، فإنى أقول: إنى أعرف أعداداً كبيرة من النساء الماهرات اللائى يحترم أزواجهن ذكاءهن وشخصياتهن. والحرملك هو الملاذ المفضل فى كل الأوقات لدى الزوج والأبناء الذين لا يتخذون بحال من الأحوال أية خطوة مهمة فى حياتهم بدون الحصول على الاستشارة الحكيمة من السيدة التى تتسم بالكياسة صاحبة السيادة فى هذا المكان. تلك السيدة التى تظل وقد تقدمت فى العمر محتفظة بالتوقير والاحترام من الرجال كافة الذين لهم حق الدخول فى منطقة نفوذها.

عندما وصلنا إلى الفناء كنا متأكدين تماماً أن وراء شيش نوافذ غرف النساء الكثير من العيون الفضولية التى تراقبنا، وأن الألسنة الثرثارة تناقش بحدة كل تفصيلة من تفاصيل مظهرنا وتفاصيل أمتعة سفرنا.

كنت متأكداً من أن السيدات قد سررن من البهجة التى أبديناها فى تحياتنا للأطفال الذين نزلوا لينضموا إلى أبيهم فى الترحيب بنا، ذلك أننا تعلمنا منذ زمن بعيد ما يكفى من التراث الشرقى بحيث نعرف كيف نستخدم الفطنة والحصافة فى أن ننقل للآباء الفخورين إعجابنا بذريتهم الجميلة بحيث لا نثير فيهم كل تلك المخاوف من عين الحسود الرهيبة التى لم تخف قيد أنملة بمرور الزمن. والاعتقاد فى «عين الحسود» قديم جداً وموجود فى كل مكان، وهو فى بلاد كثيرة الآن بالقدر الذى كان عليه فى عصور ما قبل التاريخ. ونحن نقول حين نحيى الأطفال «ما شاء الله»؛ «الحمد لله»، «ربنا يحميهم لك!»، «ما شاء الله! ربنا يطول فى عمرهم ويبارك فيهم!»، ونجعل الآباء يعرفون أننا كذلك لدينا الكثير من الأطفال، على نفس ما عليه هؤلاء تقريباً من جمال، ذلك أنه بهذه الطريقة فحسب سوف يسرهم إعجابنا.

وقد رأيت بنفسى أطفالاً، وأولاداً بصفة خاصة، لأشخاص أغنياء يتركون يجرون ويلعبون شعثاً قذرين اتقاء لعين الحسود. ومع ذلك فإن هذه العادة آخذة فى الانقراض، خاصةً فى المدن، حيث يرتدى الأطفال فى الغالب هذه الأيام الملابس الجميلة وترعاهم مربيات ومعلمات فرنسيات وإنجليزيات. ■

.. لمـاذا هـذا الكتـاب؟

■■ ربما يسأل سائل عما دعانى إلى ترجمة كتاب ألفه رجل إنجليزى عن الأقباط فى أوائل القرن العشرين. الإجابة ببساطة هى أن تلك فترة مهمة من تاريخ مصر انعكس ما جرى فيها على ما أعقبها من فترات، كما أنه عندما كان المؤلف س.هـ. ليدر يتحدث عن الأقباط، لم يكن ذلك بمعزل عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى مصر إبان تلك الفترة، وذلك فى المقام الأول لأن الأقباط مصريون ويسرى عليهم ما يسرى على سائر طوائف الشعب المصرى، رغم ما لهم من خصوصية دينية.

الواقع أننى أود أن أبرز فى مقدمتى السريعة هذه تناول الكتاب لثلاث نقاط مهمة: هى علاقة الأقباط بأبناء وطنهم المسلمين، وعلاقة الأقباط بالحكام المسلمين، وعلاقة الأقباط بسلطات الاحتلال البريطانى.

ففى معرض حديثه عن الدكتور فانوس، الذى يصفه بأنه «ذلك الرجل المثقف وربما يكون أعظم خطيب حى فى مصر»، يقول المؤلف: إنه هو الذى أعلن أمام حشد كبير من أبناء بلده المسيحيين فى أسيوط أن الأقباط والمسلمين «قسّموا بالفعل، ومع ذلك فالواقع أنهم شعب واحد وموحد، والاختلاف الوحيد هو اختلاف العقيدة. ومن وجهة النظر هذه ليس من الإنصاف النظر إليهم على أنهم عنصران مميزان. فمهما كانت تسميتهم، فالمسلمون والأقباط أحفاد شعب مصر الذى عاش قبل سبعة آلاف سنة».

والواقع أنه فى تلك الفترة، وما قبلها، وما بعدها بقليل، لم تكن هناك تلك الحساسية الملحوظة حاليًا بين المسلمين والمسيحيين. ويقول ليدر إن الولع بالقديسين فى مصر أمر يشترك فيه الأقباط والمسلمون، حيث يبجل كل طرف منهم قديسى وأولياء الطرف الآخر قدر تقديسه لأوليائه وقديسيه. ويروى أنه عند مرور سيدة إنجليزية، هى الليدى داف، فى قرية بيا بمديرية بنى سويف أثناء زيارتها الأولى لمصر، ذهبت إلى الكنيسة القبطية ووجدت عامل بناء يقوم ببعض الترميمات. قال لها الرجل بكل فخر إنه مسلم مؤمن من القاهرة زاره القديس المدفون فى كنيسة بيا لثلاث ليال متوالية وأمره أن يترك عمله ويذهب إلى القرية البعيدة لترميم كنيسته. وحكى عامل البناء كيف أطاع الأمر، وكيف عرض أن يعمل بدون أجر إذا أحضر الأقباط مواد البناء. وقد تحدث بفخر واضح باعتباره شخصاً تلقى أمراً سماويًا. وأكد الأقباط جميعًا القصة، حيث أسعدتهم تلك المعجزة. ويصف ليدر هذه القصة بأنها «تلقى فيضاً من النور على الطابع المتعصب الذى ينسب عادةً للمسلمين والأقباط بحيث لا يصدق أحد بحال من الأحوال أن هذا البنّاء، المعروف بأنه مشغول باستمرار بالعمل، يتلقى هذا الأمر ويطيعه بتلك البساطة. بينما كان الكاهن يحاول الحصول على بنّاء ولو من بين الأقباط ولم يفلح فى ذلك».

ومن القصص التى يرويها ليدر عن علاقة المصريين المسلمين والمصريين المسيحيين، تلك القصة التى تتحدث عن المُدَرِّسة الإنجليزية التى كانت تعمل بالقاهرة وتذهب إلى الأقباط فى القرى «حاملة ضياء الكتاب المقدس إلى الفقراء والجهلة». وبينما كانت تلك المُدرِّسة جالسة فى يوم من الأيام فى قرية سكانها جميعًا من المسلمين، جاءها اثنان من البدو فى الصحراء المجاورة. كانت تقرأ لهما الكتاب المقدس من قبل، بصديق لهما قائلين إنه جاء لكى «يسمع كتابك». كان الرجل قبطيًا يعيش هو وعائلته فقط وسط المسلمين فى قرية نائية، وكان البدو يمرون خلالها. وكانوا قد حكوا له عن قراءة ميس واتلى، وتمنيا أن يستمتع بهذه القراءة باعتباره قبطيًا، مثلما يجدان هما متعة فى سماع قرآنهما. سحر الرجل بسماعه الكتاب المقدس بلغة يمكنه فهمها، واعترف بشعوره بالخجل من نفسه بسبب جهله التام بالكتاب المقدس.

يخصص ليدر فصلاً من الكتاب عن الأنبا أبرام أسقف الفيوم الذى اشتهر بزهده وقدرته على علاج الأمراض. وكانت تتوافد عليه أعداد كبيرة من الناس كل يوم التماساً لشفاء البدن أو النفس. ويتعجب ليدر لأنه بين تلك الحشود التى كانت تلجأ يوميًا إلى رجل الدين المسيحى هذا للحصول على مباركته الشخصية، كان عدد المسلمين يتساوى مع المسيحيين. ذلك أنه «لا اختلاف فى الإيمان المتلهف على قدرته على مساعدتهم فى كل أحزانهم ومشاكلهم. وهى الحقيقة التى تجعل الذين تعلموا النظر إلى التعصب على أنه السمة الأولى من سمات أتباع محمد يغيّرون رأيهم. وعندما يسأل كل هؤلاء الناس البسطاء عما لديهم من أسباب للظن بأن بإمكانهم الحصول على خير من أسقف مسيحى، يقولون إنه رجل طيب، وإن الرجال الطيبين جميعاً مقبولون من الله: فالأسقف يصلى لله كما يصلون، وهو تلميذ لـ «سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام»».

وهناك حدث مهم يذكره الكتاب ويدل على وحدة مشاعر الشعب المصرى بعنصريه. فعندما عاد البابا كيرلس الخامس من منفاه فى دير البراموس، شهدت القاهرة ترحيبًا شعبيًا حماسيًا قوبل به البطريرك عند عودته. «فقد ملأت الجماهير شوارع المدينة، وأزال بحر الحماس الضخم كل فكرة ما عدا فكرة الابتهاج الشديد بعودته، حيث احتفلت الجماهير المسلمة بهذا الحدث الكبير جنبًا إلى جنب مع الأقباط! وبكى الناس من الفرح وغنوا مادحين المنفيّ، كأن إلهًا قد أُعيد إليهم، وكان الأعداء التقليديون لقرون يتعانقون مهنئين بعضهم بعضاً».

كما يورد الكتاب شهادة قالها اللورد كرومر عندما انتهت مدة خدمته فى مصر، أوضح فيها رؤيته للمسلمين والمسيحيين. فقد أشار كرومر فى كتابه «مصر المعاصرة» إلى أن الفرق الوحيد بين القبطى والمسلم هو أن الأول مصرى يتعبد فى الكنيسة والثانى مصرى يتعبد فى المسجد.

ويؤكد المؤلف أن المسلمين والمسيحيين كانوا باستمرار شركاء فيما تتعرض له مصر

من محن. ففى الأزمنة القديمة «كانت الأمة كلها تصلى للرب كى يعيد ملء النيل بالماء، صائحين فى نفس واحد «كيرياليسون» بينما يصيح المسلمون «الله أكبر» وهم يرغبون بشدة فى الإلحاح على الله العظيم بالسؤال». وعندما استولت الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس فى عام ١٠٩٩منع الصليبيون أبناء الكنيسة القبطية من دخول المدينة المقدسة، وبذلك لم يكونوا يفرقون كثيرًا بين المسلمين المصريين الذين هزموهم فى عسقلان، والمسيحيين الشرقيين أبناء دينهم. وعندما غزا الصليبيون مصر فى عام ١٢٠٤، ذبحوا السكان دون تفريق بين مسيحى ومسلم.

ورغم كون المؤلف إنجليزيًا، فهو ينتقد الكُتّاب الإنجليز «لأنهم سجلوا كل ما قيل لهم على نحو غير نقدى». وهو يرى كذلك أن هؤلاء الكُتّاب فى واقع الأمر هم من ألحق أكبر ضرر بالأقباط. كما يتهمهم بأنهم من «يبقى إلى الأبد على كراهية المسلمين بتركيز الاهتمام على الماضى. بينما يتملقون الأقباط بأن ينسبوا إليهم فضائل ليست لهم. فرغم أكثر النوايا ودًا التى يبديها هؤلاء الكُتّاب تجاه الأقباط، فإنهم لم يفشلوا فى مساعدة القضية القبطية فحسب، بل أعاقوها». كما يرى أن تاريخ الصدع الذى بين القبطى والمسلم، الذى ازداد اتساعًا بذلك، يعود إلى فترة الاحتلال البريطانى فحسب: فالطائفتان ليست بينهما عداوة فطرية أو متأصلة. وهو ما أثبته التاريخ مرارًا وتكرارًا. ولم يحصل القبطى من الإنجليز على شىء من خلال الصدع، بل إن ما ادعاه من المعاملة الخاصة أدى إلى حد ما إلى إنكار العدالة المجردة. إذ لم يكن تأكيد الذات يعجب الحاكم الإنجليزى: فعندما كان يقوم على أية أفضلية «لإخواننا المسيحيين» يصبح بغيضًا؛ وكان الموظف الإنجليزى فى سعيه لبيان أنه برىء من أى تحيز، كان يفخر بأنه يبعد نفسه كثيرًا جدًا عن نقطة الحياد الأساسية».

ويورد ليدر كلامًا للبروفيسور سايس يؤكد ما كان عليه الحال قبل الاحتلال البريطانى. فهو يقول: «عندما عرفت مصر لأول مرة، فى أيام ما قبل الاحتلال، لم يكن هناك وجود للعداء الدينى بين الأقباط والمسلمين؛ فقد كانوا جميعًا على السواء، مصريين».

ويعقّب ليدر على ذلك بقوله: «لقد رأيت بنفسى كنائس قبطية بناها المسلمون، ومسجدًا بناه صاحب أطيان قبطى قبل الاحتلال بعام أو عامين. وفى المدارس العلمانية القبطية، التى بنيت على نفقة أهل الخير فى أنحاء مختلفة من البلاد، لم يحدث قط أننى لم أجد بها تلاميذ مسلمين؛ ولا يفكر أحد فى استبعاد الأطفال الأقباط من المدارس المشابهة التى بناها مسلمون، وخاصةً فى المناطق الريفية».

يشير ليدر إلى أن الشواهد التاريخية تؤكد أن الأقباط كانوا «يرقّون إلى أرفع المناصب وأكثرها مسئولية فى الدولة، وكانوا يترقبون باستمرار قيادة الجيش ومنصب الحاكم. لم يكن محمد على (السياسى والجندى العظيم، ومؤسس الأسرة الحاكمة الحالية) ليقبل الحكم بعدم أهلية أى رجل تثبت مقدرته فى خدمة الدولة الخاصة، سواء أكان قبطيًا أم يهوديًا؛ فلم يكن فى عهده أى دليل على الاستياء الدينى الذى يقال حاليًا إنه قد ينشأ فى ظل التعيينات التى قام بها هو وخليفته». كما يقول إنه «فى عهدى سعيد وإسماعيل، ظل الأقباط يشغلون مناصب مشابهة، مما جعل القاعدة هى تعيين قبطى فى منصب النائب العام فى كل مديرية، وهو منصب له قدر كبير من السلطة، حيث كان الرجال الذين يشغلونه يتولون منصب القضاء فى أوقات معينة». كما يقول: «وفى عهد إسماعيل (الذى كان يؤكد باستمرار أن «المصريين جميعًا سواء») خدم الأقباط الدولة فى كثير من المناصب العليا، والحقيقة الأكثر لفتًا للنظر هى أن نظارة الجهادية تولاها قبطى لأول مرة (كان محمد على أول من أزال الموانع التى تحول دون خدمة الأقباط فى الجيش) وكانت لعيّاد بك حنا السلطة الكاملة».

ولكن بعد مجىء الاحتلال الإنجليزى وخلال أقل من ربع قرن من سيطرة البريطانيين على البلاد، «اختفى رؤساء المصالح الأقباط كلهم تقريبًا. فقد كانوا ممثلين تمثيلاً تامًا على منصات القضاء، ولكن شيئًا فشيئًا وصل العدد إلى صفر؛ وكذلك الحال بالنسبة لمصالح الدولة الأخرى، حيث استمرت عملية عزلهم وإغلاق الباب فى وجه التعيينات الجديدة».

كانت تلك لقطات من الكتاب اقتضى منى الظرف التاريخى الذى نعيشه أن أبرزها، كى ألفت نظر القارئ إليها، وأدعوه إلى سماع صوت يأتينا عبر عشرة عقود تقريبًا يوضح لنا بعض الحقائق التى ربما تكون قد خفيت على البعض، وكان من مصلحة البعض الآخر إخفاؤها لغرض ما فى نفسه، لا يقصد من ورائه خيرًا بطبيعة الحال.

وأترك القارئ يطالع بنفسه تلك الصفحات التى تتحدث عن الأقباط فى كل نواحى حياتهم، حيث تتناول حياتهم الدنيوية بأفراحها وأتراحها وعلاقاتها الاجتماعية، وحياتهم الدينية بمعتقداتها وطقوسها وتجلياتها الروحية. إنه كتاب كانت المكتبة العربية بحاجة إليه. ومما يدعو للعجب أننى رأيت إشارات عديدة إليه فى الأدبيات القبطية وتلك التى تتناول تاريخ الأقباط الحديث وتاريخ الكنيسة القبطية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ومع ذلك فهذه هى الترجمة العربية الأولى له. ومن المصادفة أن الشىء نفسه حدث مع كتاب وينيفريد بلاكمان Fellahin of Upper Egypt الذى صدر فى عام ١٩٢٦ وكان معروفًا بين دارسى علم الاجتماع والفولكلور والأنثروبولوجيا. وكانت ترجمتى له فى عام ١٩٩٤ بعنوان «الناس فى صعيد مصر» هى الأولى منذ صدور الكتاب بالإنجليزية. ■

أحمـد محمـود (المترجـم)

كتـــاب الـزاويــة

رحيل أنطون الجميل

الكاتب المصرى

كان خطبًا فادحًا، ذلك الذى ألم بالأدب العربى والسياسة الشرقية والصحافة المصرية، حين توفى المغفور له أنطون الجميل باشا، رئيس تحرير «الأهرام» فى الثالث عشر من شهر يناير(١٩٤٨).

وقد كانت وفاته فجاءة غير منتظرة: إذ كان الفقيد عشية اليوم الذى توفى فيه كأحسن ما يكون الإنسان صحة، وكأقوى ما يكون قوة، وأكمل ما يكون نشاطًا.

فقد شهد جلسة المؤتمر بمجمع فؤاد الأول للغة العربية، وعمل فى «الأهرام» كما تعود أن يعمل إلى أن قارب الليل ثلثيه، وعاد إلى داره فإذا الموت ينتظره فيها.

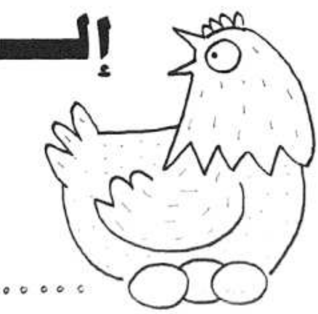
وكان أنطون باشا الجميل أديبًا مترف الأدب رفيع الفن صافى الذوق مرهف الطبع.

ظهر ذلك فى شبابه حين أصدر مجلة «الزهور» واتصل ذلك فى حياته كلها، فكان أروى الناس لبيت جيد وأحفظهم لفصل رائع كما كان أرقهم منطقًا وأعذبهم حديثًا.

وقد عمل فى مناصب الدولة، فكان نموذجًا للموظف المتقن لعمله فى أمانة وحذق وفطنة. ثم ترك مناصب الحكومة وتولى رياسة تحرير «الأهرام» فكان مثالاً للصحفى البارع الفطن والسياسى الماهر اللبق نفذ ب«الأهرام» فى رشاقة أى رشاقة من أشد المواقف السياسية فى مصر والشرق دقة وحرجًا. وعين فى مجلس الشيوخ، فكان برلمانيا ماهرًا لبقًا موفقًا بين المختصمين مؤلفًا بين المختلفين. وعين فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية، فكان ابتسامة متصلة فى جوه الذى يأخذه الجد من جميع أقطاره.

(فبراير ١٩٤٨)

عـودة إلـى



الهجمـة الصـربية على البوسـنة وما حـدث فيهـا من انتهاكات إنسانية مروعة وجرائم حرب سجلتها لجنـة دوليـة استغرقت تحقيقاتها عـامين

محمـد يوسـف عـدس

قدر لي أن أعيش قضية كوسوفا وهي تتخلق جنينًا في رحم الأيام، وأعني بالتحديد بداية التسعينيات. لم تكن هي الجهة التي قصدت في بادئ الأمر حيث كانت وجهتي في البحث مأساة البوسنة، ولكن البوسنة أسلمتني إلى طريق كوسوفا، «فالموضوعان متصلان»، وقد تحققت أنه لكي تفهم ما حدث في البوسنة لابد من أن تدخل إليها من باب كوسوفا، ذلك لأن مهندس المأساتين واحد هو الزعيم الصربي الراحل سلوبودان ميلوسيفتش، وأصل الداء واحد أيضاً وهو انطلاق القومية الصربية من مرقدها بعد وفاة تيتو، وهي نزعة عنصرية مدمرة ترفض التعايش مع الآخرين وتستبيح استئصالهم وإبادتهم.

كان الزعيم اليوغسلافي جوزيف بروز تيتو يعلم هذه الحقيقة ويدرك خطرها على الوحدة اليوغسلافية وعلى نسيجها الفسيفسائي، لذلك كان حريصاً على كبحها فلما مات انبعثت القومية الصربية على يد مجموعة من السياسيين والكتاب المتطرفين، انعكست في مذكرة أصدرتها الأكاديمية الصربية للعلوم والآداب ترسم الطريق نحو إقامة صربيا الكبرى، وبدأت تتردد في الصحافة الشعبية الصفراء ثم انتقلت بعد ذلك إلى الصحافة الرصينة التي تغير خطابها الاشتراكي الجاد إلى أسلوب غوغائي هابط.. في هذه الأثناء كان ميلوسيفتش يعمل في صمت من خلال أعوانه على تكبيل الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى بسلسلة من القوانين والقرارات حتى أحكم قبضته عليها وطرد جميع الصحفيين والقياديين أصحاب الرأي والمواقف الجادة، وطغى على أجهزة الإعلام جيش من المنافقين والأبواق المؤيدة لسياسة ميلوسيفتش. ولأول مرة في تاريخ يوغسلافيا استخدم ميلوسيفتش وسائل الإعلام والغوغاء المستأجرين للتشهير بخصومه السياسيين تمهيداً لإزاحتهم من طريقه واحداً بعد الآخر، ولم يسلم من هذا المصير «إيفان ستامبوليتش» أستاذ ميلوسيفتش وولي نعمته.

تزييف التاريخ والحرب:

من عادة الصرب - على مر العصور - أنهم إذا لم تسعفهم الحقائق التاريخية المؤيدة لموقفهم يلجأون إلى الأساطير والملاحم الشعبية التي أصبح لها في عقولهم قداسة تفوق قداسة الأديان. هذه الأساطير لها نفوذ سحري عندهم حتى أصبحت طلسماً في أعماق هويتهم القومية لا يجرؤ أحد على مناقشتها أو الشك فيها - تماماً مثل قداسة الهولوكوست التي أصبح من يناقشها اليوم يعتبر مجدفاً، ويقدم للمحاكمة كما حدث لرجاء جارودي.

وإذا كان تزييف التاريخ بهذا المعنى أمراً مفهوماً وشائعاً في كتابات الصرب التاريخية، فإن عبارة «تزييف حرب» قد لا تكون بهذا الوضوح. وأنا أستعير هنا المعنى الذي قصده «مارك تومسون» في كتابه الذي يحمل هذا العنوان: «تزييف حرب: وسائل الإعلام في صربيا وكرواتيا والبوسنة».. وهو يعني بهذه العبارة استخدام وسائل الإعلام لخلق عدو وهمي غير حقيقي متمثل في شعب أو فئة من الناس، وشحن عقول فئة أخرى أو شعب آخر بمشاعر الخوف والكراهية والرغبة في الانتقام من هذا العدو، والوسيلة إلى ذلك تكون عادة بحشد الأكاذيب واختلاق وقائع وافتعال مواقف، مع التعتيم الكامل على كل ما يتصل بالفئة العدو من حقائق وأخبار والحيلولة بينها وبين الإعلام لعرض قضيتها على الوجه الصحيح.

وبمعنى آخر يهدف التزييف هنا إلى خلق حالة حرب في العقول تمهيداً لشن حرب حقيقية على الأرض. وكان تزييف التاريخ وتزييف الحرب وراء المسلسل المأساوي الذي شاهدناه في كوسوفا كما كان وراء المأساة الدموية في البوسنة.

وفي هذا تبدو تجليات العبقرية الصربية التي لا يضارعها في هذا المجال سوى العبقرية الصهيونية. فإن التشابه بينهما لا يمكن أن تخطئه عين الخبير.. من أبرز الأساطير الصربية وأهمها على الإطلاق أسطورة «معركة كوسوفا التاريخية»، وأسطورة «الخروج الكبير»، وقد عالجتهما بالتفصيل في كتابين أحدهما عن البوسنة والآخر عن كوسوفا، كما تناولتهما في مقالين سبق نشرهما سنة ١٩٩٩ لذلك لا أجد عندي رغبة في تكرار الكلام عن هذه الأساطير برغم اعتقادي أن الذي لا يستوعبها يصعب عليه فهم الكثير من الأحداث التي جرت، والمزاعم الصربية التي لا حدود لها، ويصعب بصفة خاصة أن يفهم طبيعة القومية الصربية في تطرفها وميلها إلى تزييف الواقع وإلى معالجة مشكلاتها مع الأغيار بوحشية منقطعة النظير، تصل إلى حد قتل الجار البريء والتمثيل بالجثث ودفن الأحياء في مقابر جماعية.. وقتل الأطفال وحرق المنازل وتدمير القرى والمدن.. والمعالم الأثرية والثقافية النادرة كما حدث في البوسنة وكما حدث في كوسوفا.

دعـايـات صـربيـة

ألمحت فيما سبق إلى التحول الفكري والسياسي الذي حدث بعد رحيل تيتو نتيجة لانبعاث القومية الصربية التي أزاحت في طريقها تراث تيتو وأغرقت سيرته في الأوحال، ثم تحولت إلى الإسلام والمسلمين في يوغسلافيا تكيل لهما تهم الأصولية والخيانة وتنسب إليهما مؤامرات وهمية ضد الصرب.. وكنموذج لهذا الاتجاه أشير إلى خمسة عناصر رئيسة هي خلاصة مقال نشرته مجلة دوجا في عددها رقم ٩ بتاريخ ٢٢ كانون الأول - ديسمبر ١٩٨٩، على هيئة لقاء صحفي مع «ميروليوب إيفتيتش» وهو أستاذ مساعد بكلية السياسة في جامعة بلجراد ومؤلف كتاب بعنوان «الجهاد الإسلامي كحرب»:

١- أن هناك إحياء إسلاميا أصوليا قد انطلق في يوغسلافيا..

٢- أن هذا الإحياء الإسلامي قد جاء نتيجة العلاقات التي أقامها تيتو مع الدول العربية والإسلامية في إطار التوجه السياسي لتيتو نحو الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، وهكذا يتحول بعض الهجوم الصربي إلى تيتو نفسه، وتجريم سياساته والسخرية بصداقته لعبد الناصر وللعرب.. وهم أقوام متخلفون ورجعيون..

٣- أن العرب والمسلمين لديهم استراتيجية للسيطرة على العالم لإقامة دولة إسلامية عالمية موحدة، وأنهم لكي يحققوا الهدف يحاولون إحياء الإسلام في يوغسلافيا..

٤- أن الإسلام بطبيعته يحث على إبادة الآخرين المخالفين له في العقيدة.. (ومن ثم يصبح تصور سيطرة المسلمين في يوغسلافيا هاجساً مرعباً)..

٥- أن المسلمين في يوغسلافيا باعتناقهم الإسلام قد خانوا جنسهم وتاريخهم.. وهذا أخطر الاتهامات، حيث أصبح المسلمون بمقتضاه مسئولين عن أخطاء أجدادهم الذين اعتنقوا الإسلام منذ أربعمائة أو خمسمائة عام مضت.

كانت الحملات الإعلامية التي أطلقها الصرب في الثمانينيات تحمل شعاراً أطلق عليه «الثورة الثقافية الصربية»، وكان الهدف من هذه الثورة هو استثارة شعب تقوقع في سلبيته وقد تمكنت منه الكراهية والنفور للسياسات المخادعة وللساسة المخاتلين، ومن ثم جاء وصف «ميلوسيفتش» لهذه الحملات بأنها ليست من السياسة في شيء: فإن ما نناقشه اليوم - على حد قوله - «إنما هو مسألة أرض الآباء والأجداد».. ويعلق على هذه الحملات صحفي صربي مستقل هو «ميلوس فاسيتش»، حيث يقول «لو حدث مثل هذا في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، فقامت عصابات الكوكلوكس كلان بالاستيلاء على جميع محطات الراديو والتلفاز فإن اندلاع حرب أهلية في الولايات المتحدة يصبح واقعاً لا محالة في غضون خمسة أعوام»، ولذلك فإنه من السذاجة بمكان أن يقال إن حرب البوسنة أو حرب كوسوفا من بعدها انطلقتا تلقائيا بسبب الأحقاد التاريخية الدفينة بين شعوب يوغسلافيا، أو أن محاولات الانفصال والاستقلال كان وراءها قوى أوروبية أو أمريكية كما يردد الصرب ويتابعهم فيه كتّاب سذّج عندنا، يتحدثون بما لا يفقهون ولا

كـــــوســــوفـــــا!!

يعقلون، وإنما كان باعثها ومشعل نارها هو التلاعب الإعلامى بالتاريخ والتلاعب بعقول الجماهير وإغراقهم فى طوفان من الأكاذيب لتخويفهم من أخطار قادمة من عدو وهمى هو جيرانهم المسلمون الأبرياء.

وقد سجلت الهجمة الصربية على البوسنة وما حدث فيها من انتهاكات إنسانية مروعة وجرائم حرب لجنة دولية استغرقت تحقيقاتها عامين، ورفعها الأمين العام للأمم المتحدة إلى مجلس الأمن بخطاب مؤرخ فى ٢٧ آيار- مايو ١٩٩٤ استجابة لقرار مجلس الأمن رقم ٧٨٠ لسنة ١٩٩٢ .

استمعت لجنة الخبراء فى هذه التحقيقات إلى خمسة وستين ألف شهادة من الضحايا وشهود العيان، وجمعت مئات من وثائق الإدانة وتسجيلات فيديو بلغت ثلاثمائة ساعة. هذه الوثيقة تعتبر أخطر وثيقة إدانة فى تاريخ الأمم المتحدة. وكان رئيس اللجنة هو «شريف بسيونى» أستاذ القانون بجامعة «دى بول» فى شيكاغو، له أكثر من ٢٣ كتابًا فى القانون الدولى وحقوق الإنسان.

ولعل من أهم ما جاء فى تقرير الخبراء أنه أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الجرائم الوحشية التى ارتكبها الصرب فى البوسنة لم تكن كما زعم قادتهم مجرد انتهاكات فردية قام بها أفراد منحرفون أو غير منضبطين، وإنما كانت جرائم مخططة بتدبير سابق وضعها خبراء وتم تنفيذها بأسلوب منظم، وطبقت فى جهات مختلفة بطريقة نمطية ثابتة. وكان التنسيق بين المجموعات التى شاركت فى تنفيذها على أعلى مستوى.. واستطاع المحققون أن يتتبعوا مصادر التوجيه والأوامر إلى أعلى مستويات فى القيادات السياسية والعسكرية الصربية.

وبعد عامين من تقديم هذه الوثيقة إلى مجلس الأمن وإلى محكمة جرائم الحرب اليوغسلافية فى لاهاى التقت الصحفية «سيسليا جابيزون» من شبكة الإعلام الدولية (WMN) فى ١٩٩٩/٦/٢٤ شريف بسيونى لتسأله عن مدى فاعلية هذه الوثيقة فقال: «لقد تقدمنا إلى محكمة جرائم الحرب بأسماء رادفان كراجيتش زعيم صرب البوسنة وقائد قواته الجنرال راتكو ملاديتش. ولم يتم القبض عليهما حتى الآن». ويمضى شريف بسيونى فيقول: «هناك قائمة أخرى تشتمل على أسماء رؤساء دول ووزراء فى حكومتى صربيا وكرواتيا وأسماء جنرالات كبار فى الجيش ومديرى معسكرات الاعتقال، هؤلاء جميعًا لابد من تقديمهم إلى العدالة لأن السلام فى يوغسلافيا لن يسود إلا بتحقيق العدالة».

وفى آخر سؤال وجهته الصحفية إليه قالت: «أى الأفكار ترسب عندك أكثر من غيره عن حرب البوسنة؟» فقال: «من هذه الحرب تعلمت درسًا شاهدت فيه نظم الضبط الاجتماعى تنهار على أيدى أشرار المجتمع، فعندما يتمكن السفاحون وقطاع الطرق من امتلاك السلطة المطلقة فى أى مكان، وخصوصًا إذا كانت تسيطر على عقولهم عقيدة قومية عنصرية فإن كل شىء يصبح ممكنًا».. وهؤلاء هم الذين صنعوا جرائم حرب البوسنة على أوسع نطاق، استهانت بجرائمهم الدول الغربية وفرضت على البوسنة تسوية ظالمة كافأت فيها المعتدين بتمكينهم من نصف أرض البوسنة التى استولوا عليها بقوة السلاح. ثم تغافلت عن تقديمهم إلى العدالة فاستمرأوا جريمتهم، وعادوا مرة أخرى يكررونها فى كوسوفا واثقين أنهم سيفلتون من العقاب كما أفلتوا من قبل.

«حـرب الـتـحـريـر»

لم يكن الغزو الذى قام به الصرب على كوسوفا سنة ١٩١٢ .. حرب تحرير كما زعموا، وإنما حرب إبادة اتخذت شكل مذابح مروعة قتل فيها عشرات الألوف من المدنيين: المسلمين والكاثوليك على السواء، وعلى رغم الحظر الإعلامى الذى فرضته القوات الصربية استطاعت الكنيسة الكاثوليكية فى كوسوفا تسريب أخبار إلى صحيفة الديلى تلغراف البريطانية عن مذابح وقعت فى مدينة فريزاى، حيث دعا الجنرال الصربى جميع الرجال إلى العودة إلى منازلهم فى سلام وعندما استقروا فيها أحاطت بهم القوات الصربية ثم أخرجتهم واحداً واحداً وأطلقت النار عليهم أمام أعين ذويهم، فقتلوا بذلك أربعمائة رجل.

أما أبشع هذه المذابح فقد جاء على لسان رئيس أساقفة كاثوليك «سكوبيا».. فى تقرير موجه إلى البابا بتاريخ ٢٤ كانون الثانى- يناير سنة ١٩١٣ قال فيه: «لم يبق فى مدينة فريزاى من المسلمين الألبان فوق سن الخامسة عشرة سوى ثلاثة أشخاص، أما فى جيلان فقد ذبح جميع سكانها فلم يبق منهم أحد.. وأصبحت جياكوفا خالية من سكانها وبدت مدينة بريزرن بعد انحسار الصرب عنها كأنها مدينة الأموات.. وعمت الفوضى فى المدينة وجرت أعمال السطو والاغتصاب على أوسع نطاق، فقد استباح الصرب كل شىء فى المدينة: حياة الناس وأموالهم وأعراض نسائهم، ولم يكن الأمر مباحًا فحسب ولكن كانت تشجع عليه القيادات الصربية وتأمر به جنودها علنًا..

ومع كل هذه الجرائم المروعة أجبر القائد العسكرى «بوجو يانكوفيتش» من بقى من أعيان المدينة ومسدسه مصوب إلى رؤوسهم أن يبعثوا ببرقية شكر إلى بيتر ملك الصرب فى بلجراد على تحريرهم من العثمانيين».

وفى سنة ١٩١٤ شكلت مؤسسة كارنيجى الأمريكية لجنة تحقيق فى كوسوفا أكدت فى تقريرها أنه قد تبين لها بالأدلة وجود سياسة مخططة يتم تنفيذها فى كوسوفا، وأنها شاهدت منازل بل قرى بأكملها قد تحولت إلى رماد بسبب إشعال الحرائق فيها على نطاق واسع، وأن أعداداً هائلة من المدنيين الأبرياء تعرضوا لمجازر وحشية.. وأن هذه الوسائل استخدمت ولا تزال تستخدم بواسطة القوات الصربية وقوات الجبل الأسود بهدف تغيير المعادلة السكانية والخصائص الإثنية فى المناطق التى يسود فيها الوجود الألبانى.

لم يقتصر الأمر على المجازر والإبادة الجماعية بل شمل أيضًا عمليات إرهابية لإجبار المسلمين والكاثوليك الألبان على اعتناق الأرثوذكسية، وكان السبب المباشر لهذه العمليات الإجرامية هو تغيير إحصاءات السكان بحيث يبدو الصرب على أنهم هم الأغلبية السكانية فى كوسوفا، وبالتالى تعزيز الجهود الدبلوماسية فى مؤتمر لندن لتأييد حق الصرب المزعوم فى أراضى كوسوفا.

البرنامج الاستيطانى فى عهد يوغسلافيا الملكية:

كان الاحتلال الاستيطانى للصرب فى كوسوفا ظاهرة مركبة استهدفت تحقيق مجموعة من الأهداف:

أولاً: تغيير التركيبة السكانية لصالح الأقلية الصربية بحيث يتحول الألبان إلى أقلية ضعيفة فقيرة مضطهدة حتى تصبح حياتهم فى وطنهم مستحيلة فيلجأون إلى الهجرة من كوسوفا.

ثانيا: محاولة إيقاف ظاهرة تدفق المهاجرين الشباب من صربيا والجبل الأسود إلى أمريكا الشمالية وذلك بإغرائهم بتملك أراض فى كوسوفا والبقاء مع ذويهم.

ثالثًا: معاقبة قادة وأعضاء حركة الألبان الثورية «كاتشاك» التى قاومت الغزو الصربى لبلادهم ببسالة نادرة لبضعة عقود.

رابعاً: تدعيم السياسة الأمنية للصرب فى كوسوفا باستزراع مستوطنات صربية فى مواقع استراتيجية على طول الطرق الرئيسية للمواصلات بحيث يسهل تحصينها وحمايتها ووصول النجدات العسكرية إليها عند اللزوم (على غرار المستوطنات الصهيونية فى فلسطين تمامًا...)

لم تسم صربيا برنامجها الاستيطانى هذا باسمه الحقيقى وإنما أطلقت عليه وصف «إصلاح زراعى لوضع عثمانى بائد»... بدأ برنامج الاستيطان الصربى فى كوسوفا قبل الحرب العالمية الأولى بقانون يسمى «قانون استعمار الأرض المحررة» فى فبراير ١٩١٤.. وفى فبراير سنة ١٩١٩ صدر قانون جديد تحت اسم «الإصلاح الزراعى»، أعلن تفتيت الملكيات الكبيرة التى كانت فى حوزة الألبان، وأمم أراضى الغابات، وخصص مساحات شاسعة تُمنح للجنود الصرب وأعضاء الميليشيات الإرهابية التابعة لمنظمة «شيتنك».. ثم صدر قانون آخر سنة ١٩٢٠ يحدد الأراضى التى يمكن توزيعها على المستوطنين الصرب على النحو الآتى:

١- الأراضى الخالية التى تخضع لملكية الدولة..

٢- الأراضى المملوكة للجمعيات والمؤسسات الأهلية..

٣- الأراضى غير المزروعة أو التى هجرها أصحابها. وكان أصحابها من القيادات الوطنية الألبانية فى المنفى خارج كوسوفا.

٤- الأراضى التى تمت مصادرتها بمقتضى قانون الاستيطان فى فبراير ١٩١٩.

وفى سنة ١٩٣٥ بدأت تظهر موجة جديدة من المصادرات للأراضى الباقية فى حوزة الألبان على أساس قاعدة جديدة وهى أن أى أرض لا يملك الفلاح وثيقة يوغسلافية بملكيتها تصبح ملكًا للدولة.. ومعنى هذا إسقاط شرعية ملكية الأراضى التى يحمل أصحابها وثائق عثمانية.

ونتيجة لهذه القوانين الجديدة التى بدأ تنفيذها سنة ١٩٣٨ جرّدت السلطات الصربية ألبان كوسوفا فى ٢٣ قرية فى وادى «درينتشا» من أرضهم، وأصبح ٦٠٤٦ أسرة ألبانية مسلمةً من الفقراء المعوزين بضربة صربية واحدة.

فما الذى يمكن أن نستخلصه من كل ما سبق؟:

أولاً: إن الوصف الذى جاء على لسان شهود العيان من الصحفيين وورد فى تقارير قادة الكنيسة الكاثوليكية إلى البابا وفى تحقيقات مؤسسة كارنيجى فى كوسوفا على أثر الغزو الصربى سنة ١٩١٢، يعكس سيناريو الجرائم الصربية المروعة.. هذا السيناريو القديم تكرر أمامنا مرة أخرى على أرض كوسوفا.. قامت فيه القوات الصربية بعمليات التطهير العرقى والطرد الجماعى للألبان.

ثانيا: إن الاحتلال الاستيطانى كان ولا يزال هو العلاقة الوحيدة المؤكدة بين صربيا وكوسوفا، وهى علاقة تنهار أمامها كل المزاعم الصربية التى تدعى أن كوسوفا جزء من دولة واحدة هى صربيا، وأن الألبان مجرد مواطنين عاديين

متساوين فى الحقوق مع المواطنين الصرب. هذه المزاعم كلها مجرد خرافات لا يمكن أن تنطلى على أحد له عيون ينظر بها وعقل يفكر به..

ولكى نتبين حقيقة استمرارية العلاقة الاستعمارية للصرب بكوسوفا سننظر فيما يلى إلى بعض التفاصيل فى برنامج ميلوسيفتش الاستيطانى الذى صدر فى سنتى ١٩٩٠و١٩٩١. وهو أمر لا يمكن إخفاؤه أو إنكاره لأنه منشور فى الصحف والوثائق غير السرية.

استيطان ميلوسيفتش:

كانت بداية هذا البرنامج إلغاء دستور يوغسلافيا الفيدرالى لسنة ١٩٧٤ الذى ضمن لكوسوفا حكماً ذاتيا موسعاً فى إطار الاتحاد اليوغسلافى (وليس فى إطار صربيا).. لذلك ألغى ميلوسفيتش هذا الدستور ثم أتبعه بمجموعة من الإجراءات التعسفية نفذتها الشرطة الخاصة والقوات المسلحة كان من نتيجتها إلغاء حكومة كوسوفا وإلغاء دستورها وبرلمانها ونظامها القضائى الخاص وشرطتها المستقلة. ثم تلا ذلك سنة ١٩٩٠ صدور سلسلة من القوانين والإجراءات الصربية استهدفت تدمير البنية الأساسية للشعب الألبانى وتعزيز سيطرة الأقلية الصربية عليه..٠ من هذه الإجراءات:

١- إنشاء مجالس محلية فى كوسوفا مقتصرة على المناطق التى تسود فيها الأقلية الصربية، وممنوع على الألبان ترشيح أنفسهم فيها. (لاحظ أن الصرب من سكان كوسوفا لا يزيد عددهم على مائتى ألف وأن تعداد الألبان أكثر من مليونين....!)

٢- تركيز جميع الاستثمارات فى المناطق الصربية فقط.

٣- بناء منازل جديدة للصرب تشجيعاً لمن هاجر منهم على العودة إلى كوسوفا وجذب صرب آخرين للإقامة فيها..

٤- إقامة مراكز لتحديد النسل مقتصرة على المناطق التى يسود فيها الألبان المسلمون (لتقليص عددهم)..

٥- إلغاء شرعية امتلاك الألبان لأى عقارات أو أراض سبق لهم شراؤها من الصرب..

٦- من حق أى صربى يرغب فى الإقامة فى كوسوفا أن يمتلك خمسة هكتارات من الأراضى بالمجان..

فلما اندلعت المظاهرات الألبانية احتجاجاً على هذه الإجراءات التعسفية نزلت الدبابات الصربية إلى الشوارع وأعلنت الأحكام العسكرية، وأصدرت السلطات الصربية سلسلة أخرى من القرارات الاستعمارية المتعسفة فى ٢٦ يونية ١٩٩١ .. أطلقت عليها الحكومة الصربية «إجراءات مؤقتة»، ولكنها استمرت لسنوات لاحقة:

- منع صدور الصحف المنشورة باللغة الألبانية.
- إلغاء المدارس الألبانية والمناهج الألبانية وإغلاق جامعة بريشتينا وتشريد طلابها وأعضاء هيئة التدريس فيها.
- إغلاق أكاديمية العلوم والآداب الكوسوفية.
- إغلاق محطة التلفاز والإذاعة الألبانية.
- طرد جميع المدرسين العاملين فى المدارس الألبانية.
- طرد الموظفين المسلمين من القطاع العام للدولة.
- طرد ثمانين ألف عامل ألبانى من وظائفهم فى المصانع.
- طرد جميع الأطباء والعاملين الألبان فى الخدمات الصحية.
- إلغاء التحصين الدورى لأطفال المسلمين.. مما تسبب فى رفع نسبة الوفيات بينهم من أمراض بسيطة مثل الحصبة. وهكذا بفرمان استعمارى واحد أحال ميلوسيفتش شعباً بأكمله إلى الاستيداع ليلحق بجيش العاطلين والمتسولين فى وطنهم الذى ترتع فيه وتنعم بخيراته أقلية صربية مدللة تحرسها دبابات الجيش الصربى.. ولكى تكتمل الدائرة الجهنمية أغلقت السلطات مؤسسة الأم تريزا الخيرية التى كانت تطعم ٢٥ ألف جائع ألبانى...

وفى أثناء تنفيذ هذه الإجراءات ارتكبت السلطات الصربية أبشع الجرائم ضد الأفراد لمجرد الاشتباه فى المقاومة. وتحفل سجلات منظمة العفو الدولية بتقارير مفصلة عن أنواع الجرائم التى شملت قتل أطفال المدارس.. وضرب مدير أكاديمية العلوم والآداب الكوسوفية (الألبانى) حتى تحطمت عظام فكه وأنفه، وأغمى عليه، ثم ألقى به فى عرض الطريق ينزف دماً...

ألـبـان وعـثـمـانـيـون

لقد غزت صربيا أراضى كوسوفا فى العصور الوسطى واحتلتها لمدة قرنين، ولكنها كانت خاضعة قبل ذلك للبلغار لمدة قرنين، وكانت قبل البلغار ضمن أراضى الإمبراطورية البيزنطية لعدة قرون. وبعد الصرب جاء العثمانيون فحكموا الجميع وأصبحت كوسوفا جزءاً من أراضى الدولة العثمانية، وحدث خلال القرنين الأولين ـ على الأقل ـ امتزاج رائع بين الألبان والعثمانيين فقد أسلم ألبان كوسوفا وأصبحوا من أقوى المدافعين عن الدولة العثمانية وكان منهم الوزراء العظام والمستشارون المقربون من السلطان، والولاة الذين لم يحكموا بلادهم فقط ولكنهم حكموا أيضاً بلاداً أخرى فى الدولة العثمانية، ومحمد على باشا رأس الأسرة الملكية التى حكمت مصر حتى قيام الثورة مثال على ذلك.. فإذا كانت صربيا ترتب على تاريخها الاستبدادى فى حكم كوسوفا خلال العصور الوسطى حقوقاً تاريخية وروحية مقدسة فإن البلغار يقولون الشىء نفسه، والأتراك أحق من الجميع لأنهم احتووا كوسوفا لمدة تقرب من خمسة قرون استمرت حتى بداية القرن العشرين، ولذلك فإن إغلاق صفحة القرون الوسطى نهائيا أولى من الجدال بالباطل والتمحك بكنيسة مقدسة هنا أو هناك أو ملك دفن فى بلدة كذا، فالسلطان مراد مدفون فى أرض كوسوفا وأصبح جزءاً من تراب هذه البلاد.

ونحن لا نسمع فى هذا الزمن حكاية الحقوق التاريخية المقدسة إلا من جهتين: من الصرب ومن الصهيونية، وقد عقدت مقارنة بالفعل فى مقدمة كتابى عن كوسوفا رداً على تصريح صحفى أدلى به ميلوسيفتش نفسه عندما صرح بأن كوسوفا بالنسبة للصرب مقدسة مثل القدس بالنسبة لإسرائيل.. لننس إذن صفحة القرون الوسطى وننظر فى علاقة الصرب بكوسوفا فى العصر الحديث:

أصبحت كوسوفا مستعمرة صربية بعد غزوها سنة ١٩١٢ وخضعت بقوة السلاح لا برغبة أهلها ولا بمشورتهم لصربيا. وبعد ثلاثة أعوام فقط طرد النمساويون والبلغار الصرب من كوسوفا ثم عادوا إليها على أكتاف الحلفاء الأوروبيين المنتصرين فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ .. واستمرت كوسوفا تابعة ليوغسلافيا الملكية إحدى وعشرين سنة أخرى حتى قيام الحرب العالمية الثانية عندما احتلها الألمان وطردوا منها الصرب مرة أخرى حتى نهاية الحرب سنة ١٩٤٥ .

فلما قامت يوغسلافيا الجمهورية الشيوعية أصبحت كوسوفا جزءاً من هذه الدولة الفيدرالية الجديدة. وقد علمنا أنها حصلت على نوع من الحكم الذاتى يتساوى عمليا بوضع الوحدات الجمهورية الأخرى.. وخلاصة التحليل أن كوسوفا تبعت صربيا كارهة لمدة ٣٣ سنة وتبعت يوغسلافيا «تيتو» لمدة ٤٥ سنة، وحتى لو تجاهلنا اختلاف وضعها السياسى فى عهد تيتو وأضفناه إلى حساب صربيا لوجدنا أن مجموع هذه السنوات كلها لا يزيد على ٧٨ سنة.. ويجب أن نتوقف كثيراً عند هذه النقطة لأن هذه المدة لا تزيد كثيراً على الفترة التى خضعت فيها مصر للاحتلال البريطانى.. والاحتلال الفرنسى كان أطول من ذلك بكثير فى الجزائر.. وقد زعمت فرنسا بالفعل أن الجزائر جزء لا يتجزأ من دولة فرنسا، ولكن هذا الزعم لم يغير حقيقة أن الجزائر كانت مستعمرة فرنسية، ولم يمنع من استقلال الجزائر وإنهاء الاحتلال الفرنسى فيها.

كوسوفا فى الإعلام الغربى:

حول قضية كوسوفا قدر لى أن أساهم فى عدد من الندوات وحلقات النقاش لاحظت فيها أن كثيراً من الناس يصعب عليهم أن يفهموا حقيقة أن شعب كوسوفا الذى يطلق عليه اسم الألبان هو ألبانى حقاً، ولكنه ليس متحدراً ولا مجلوباً من الدولة المجاورة التى اسمها.. ألبانيا والتى يرجع تاريخ إنشائها إلى قرار من مؤتمر لندن صدر سنة ١٩١٣. وكانت المناسبة هى عملية تقسيم أملاك الدولة العثمانية فى أوروبا.

وهكذا ضمت ألبانيا جزءاً من الألبان الذين تصادف وجودهم فى هذه المنطقة من البلقان، ولكن بقى ألبان كوسوفا ومقدونيا نهباً موزعاً على دول أخرى. ولست أدرى ما هى الصعوبة العقلية فى فهم حقيقة بسيطة كهذه؟

لقد وجد الألبان فى قلب هذه المنطقة واستقروا فيها قبل أن يأتى العثمانيون وقبل أن تطأ أرض البلقان أقدام الصرب السلافيين بقرون عديدة؟

إننا نقول عرب فلسطين وعرب مصر وعرب المغرب، ولا نقول عن هؤلاء إنهم المتحدرون من أصل عربى. فلماذا لا نقول ألبان كوسوفا دون «تحدر»؟ فهذه صياغة صربية دعائية تبنتها أجهزة الإعلام الغربية ونقلتها أجهزة الإعلام العربية لأنها لا تملك وسائل للبحث والتدقيق وليس لدينا مراكز للدراسات البلقانية ولا حتى كتاب واحد جيد يحتوى على دراسة جادة يشرح هذه الألغاز. وإنما أصبنا ببعض كتاب استسهلوا ما تلقيه إليهم وزارة الإعلام الصربية مترجماً فى بعض الأحيان باللغة العربية فرددوه كالببغاوات وهم لا يعلمون أنهم يخوضون فى بحر من الأكاذيب.

وجد فى بلغراد مركز للدعاية الصربية مخصص للوطن العربى يسمى «مكتب الصحافة العربى فى بلغراد» يصدر نشرة تحت عنوان: «نشرة العالم العربى ويوغسلافيا اليوم» يديره عربى فصيح تستثيره الإذاعات والفضائيات العربية ويطالعك بصوته وصورته فى كل برنامج إخبارى مدافعاً عن الأكاذيب الصربية بصفاقة لا نظير لها. والناس يستمعون كارهين لأنهم لا يملكون وسيلة للمراجعة



ولا سابق معرفة بجذور القضية، ولا بأصولها التاريخية أو القانونية.

لم يستطع أحد أن يخدعنا بأن الجزائر جزء من فرنسا لأننا كنا نعرف تاريخ الجزائر العربية وتاريخ احتلال الفرنسيين لها، ولم يستطع أحد أن يخدعنا عندما ادعى أن فلسطين هى أرض إسرائيلية. ولم يخدعنا عندما زعم أنها لأرض بلا شعب، ولا عندما ادعى بأن له حقوقًا تاريخية مقدسة فى أرض فلسطين.. لأن الأجيال التى شهدت الاحتلال الاستيطانى لفلسطين لا تزال حية ترزق ولا يزال الفلسطينيون الذين طردوا من وطنهم ولا يسمح لهم بالعودة إليه يعيشون بين ظهرانينا. أما عندما قيل لنا إن كوسوفا جزء من صربيا أوشكنا أن نصدق هذه الأكذوبة لأننا نجهل أصل القضية وجذورها التاريخية.

وشاعت فى إعلامنا أفكار خاطئة عبرت عنها مصطلحات وعبارات خاطئة. وعندما اشتعلت الحرب فى كوسوفا تدخل شمال الأطلسى (الناتو) بالقصف الجوى على صربيا، وشاعت على الأقلام وفى التصريحات السياسية إشكالية السيادة الوطنية وعدم شرعية التدخل العسكرى للناتو، وانتهز الصرب هذه الهستيريا فربطوا بين قصف الناتو لهم بالقصف الجوى على العراق وليبيا والسودان لإثارة الرعب فى البلدان العربية. فارتفعت صيحات التحذير من التمادى فى البلطجة الأمريكية التى قد تطول دولنا فى المستقبل القريب أو البعيد.

وكثرت تصريحات المعلقين والمحللين الاستراتيجيين حول الناتو حتى غرقت القضية فى معارك أكاديمية. وبدلاً من أن نتوقف لحظة لنذرف دمعة على الشعب المطرود من أرضه تعاطفنا مع المعتدى ونسينا جرائمه الجارية فى كوسوفا وجرائمه السابقة فى البوسنة والهرسك، وذرفنا الدموع على يوغسلافيا ميلوسيفتش آخر حصن للاشتراكية فى أوروبا. ووريثة تيتو العظيم بطل الحياد الإيجابى وصديق عبد الناصر، وصدقنا خرافة أن أمريكا تتدخل لأن بينها وبين يوغسلافيا ثأرًا مبيتًا.. وأنها تريد تفكيك يوغسلافيا، بينما كانت أمريكا متعاطفة مع يوغسلافيا وكانت ضد تفكيكها من البداية. ومن أراد أن يفهم هذه النقطة بالذات عليه أن يقرأ كتاب السفير الأمريكى الأسبق فى بلجراد «وارين زيمرمان»: جذور الكارثة، ليعرف بالتفصيل الموثق الموقف الأمريكى الحقيقى فى ذلك الوقت...

والحقيقة التى لا تحتاج إلى ذكاء كبير لفهمها وإنما لمجرد أعين ترى وتبصر أنه لا يوجد فى يوغسلافيا المزعومة اشتراكية ولا قلعة حصينة لها فى بلغراد، ولا توجد حتى يوغسلافيا حقيقية اللهم إلا بالاسم فقط.. وأن ما هو موجود على الساحة هو صربيا الكبرى التى كانت تضم على مضض وكراهية من الشعوب كيانًا صغيرًا لا يزيد سكانه على نصف مليون يسمى جمهورية الجبل الأسود، وإقليم بالحجم نفسه تقريبًا اسمه فويفودينا، ثم كوسوفا التى علمنا من أمر مصيبتها ما علمنا. أما يوغسلافيا تيتو فقد اندثرت، وأصبح تراث تيتو تدوسه أقدام القوميين الصرب العنصريين فى بلغراد، ويلعنون أيامه. لابد أن أضيف هنا حقيقة يجهلها أو يتجاهلها كتابنا عندما يخوضون فى تاريخ يوغسلافيا المعاصر.. وهى أن الجبل الأسود انسحبت من الاتحاد اليوغسلافى المزعوم وآثرت أن تنفصل عن بلجراد رغم أن ٤٥٪ من سكانها صرب سلافيون أرثوذكس.. ليسوا مسلمين كما هو الشأن فى كوسوفا.. لم يلتفت إلى هذا أحد ولم يعلق على هذا «الاستقلال» ولم يسمه «الاستقلال الزائف» ولا أثاروا حوله وحول دوافعه الشكوك كما فعلوا مع استقلال كوسوفا.. استسلمت صربيا ولم تغضب ولم تهدد.. فلماذا تتشنج وتثير الدنيا من حولها.. وتتوعد بالويل والثبور؟ ويتابعها كتابنا المتنورون جدًا فى هذا الغضب ويرددون مزاعمها بلا خجل عن حكاية الحقوق التاريخية وأرض الأجداد ومهد الصرب الأرثوذكس.. لماذا؟

لكى تعرف السر حقا.. اعلم أن أرض كوسوفا تضم فى جوفها ثروات معدنية كبيرة لا غناء عنها فى الصناعة.. وعلى الأخص الصناعة العسكرية: فيها أكبر مصادر الرصاص والزنك فى أوروبا، وكانت تنتج نصف منجنيز يوغسلافيا.. وكل نيكل يوغسلافيا.. بحيث اعتبرت ثالث أكبر دولة منتجة لهذا المعدن.. وإلى جانب ذلك هناك مناجم بها كميات هائلة من البوكاسيت والحديد والنحاس..

هذه الثروة الطبيعية جعلت كوسوفا هدفًا لغزو الجيوش الأجنبية منذ العصر الرومانى إلى العصر الحديث.. وقد حرص هتلر أثناء احتلاله ليوغسلافيا فى الحرب العالمية الثانية أن يضع شرق كوسوفا تحت سيطرة قواته العسكرية.. وكانت القطارات الألمانية تنقل يوميا خمسمائة طن من معدنى الرصاص والزنك من مناجم كوسوفا إلى مصانع ألمانيا الحربية..

هذا إذن هو السبب الحقيقى لأن تعض صربيا عليها بالنواجذ وتثير الضجيج حول استقلالها.. وتنفق ملايين الدولارات على أجهزة دعايتها وعلى أبواقها فى مصر وفى البلاد العربية.. وتشترى ضمائر الكتاب الصغار والكبار فى كل مكان.. وكل أسباب أخرى مدعاة إنما هى من قبيل المفتريات والحكايات الأسطورية تغطى بها على أهدافها الحقيقية... ■

كتاب الزاوية

تربية سلامة موسى

الكاتب المصرى

هذا الكتاب هو ترجمة حياة الكاتب المصرى والباحث الاجتماعى الأستاذ سلامة موسى بقلم نفسه. وترجمة الحياة التى يكتبها الكاتب لنفسه، فن غير مألوف كثيرًا بين الكتابات فى الأدب العربى الحديث وإن كان الأدب العربى القديم يحتوى على درر قليلة منه. ولكنه فن مألوف وواسع الانتشار فى الآداب الغربية؛ فهو فى بعض الأحيان يبلغ فى يد الكاتب مبلغ القصص. وفى بعض الأحيان يكون صورة للحياة الاجتماعية فى عصره. وفى بعض الأحيان يكون حديثًا معادًا يتلهى به القراء. وهو فى كل هذه الأحوال يكون عبرة وموعظة.

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا يجمع مزايا الأنواع جميعها. ففيه القصص. وفيه صورة لحياة العصر الذى نشأ فيه الأديب، وفيه من الحديث ما يتلهى به القارئ. ولئن أراد الأستاذ سلامة موسى أن يقصره على تربيته، كما قد يفهم من عنوانه، فإنه لم يوفق فى حصر الموضوع، ونستطيع أن نقول إنه لم يوفق فى اختيار العنوان؛ فإن الكتاب أشمل وأكبر من أن يكون وصفًا لتربية الأستاذ سلامة موسى وحدها، ولا يزال منفردًا به فى كتبه الأخيرة.

فما هو طابع سلامة موسى فى آرائه؟ طابعه فى رأيى ـ وقد أكون مخطئًا ـ أنه يسبق الفكر الشرقى إلى الآراء الأوروبية. فهو قد نادى فى كتبه بآراء اجتماعية جديدة، حين كانت الأمة المصرية لا تلتفت ولا تهتم إلا للأدب القديم، وشىء من الأدب الحديث البعيد عن الإصلاحات الاجتماعية.

(مارس ١٩٤٨)

محاضــــرة أليســـــتير هـــــورن

"اشتعلت حرب أكتوبر بينما كانت واشنطن وموسكو تحاولان نقل علاقتهما من حالة المواجهة إلى التفاوض"

الروس وحرب أكتوبر

السـيد أمـين شـلبى

كان الموضوع الأساسى فى محاضرة السير أليستير هورن التى ألقاها فى الجامعة الأمريكية بدعوة من مؤسسة هيكل للصحافة العربية، وأعادت «وجهات نظر» نشرها فى عدد مارس ٢٠٠٨، هو دور وزير الخارجية الأمريكية الأسبق هنرى كيسنجر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ . وليس غريباً أن يركز السير هورن على هذا الدور فهو من الأدوار التى حولت مجرى الصراع فى الشرق الأوسط، وكانت بداية ترسيخ الدور والدبلوماسية الأمريكية فى المنطقة. وعندما يؤرخ لدبلوماسية هنرى كيسنجر وأساليبه فى السياسة الخارجية الأمريكية، فإن دوره فى صراع الشرق الأوسط وتوجيهه للأحداث فى أعقاب حرب أكتوبر، تقف فى المقدمة، إلى جانب أدواره الدبلوماسية الأخرى التى صنعت مكانته الدولية مثل إنهاء الحرب فى فيتنام، والانفتاح على الصين، وأهم من هذا إعادة ترتيب العلاقات مع الاتحاد السوفيتى. لذلك استمعت وأعدت قراءة محاضرة السير أليستير هورن فى سياق أشمل وهو العلاقات السوفيتية الأمريكية، وعملية الوفاق التى شرع فيها نيكسون، وقدم هنرى كيسنجر أساسها الفلسفى والدبلوماسى.

وكما نعلم فإن حرب أكتوبر قد اشتعلت والقوتان تعيدان بناء علاقاتهما من أجل نقلها من حالة المواجهة إلى مرحلة التفاوض والتعاون وهى العملية التى عرفت بسياسة الوفاق، فى هذا السياق سبق اشتعال حرب أكتوبر مؤتمران للقمة الأمريكية السوفيتية، قمة موسكو فى يوليو ١٩٧٢ وقمة واشنطن فى أغسطس ١٩٧٣، وهما القمتان اللتان صدر عنهما العديد من الاتفاقيات وبشكل خاص اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية (SALT I) ثم اتفاق إعلان المبادئ (Declaration of Principles) وهو الإعلان الذى كان مقصوداً به أن تهتدى به القوتان فى التعامل مع الأزمات الإقليمية والدولية بشكل لا يؤدى إلى مواجهة بينهما. وأذكر أنه خلال عملى فى سفارة مصر فى



هـــــورن

موسكو خلال اشتعال حرب أكتوبر أن السفير السويدى فى موسكو جورانج يارنج قد طلب فى اليوم الثانى لاشتعال الحرب مقابلة السفير المصرى آنذاك فى موسكو يحيى عبد القادر ونبهه إلى أن كلا من واشنطن وموسكو سوف يلجآن إلى استخدام إعلان المبادئ لإدارة هذه الحرب وهو ما تحقق حين زار هنرى كيسنجر موسكو يوم ٢٠ أكتوبر بناء على دعوة من برجينيف، وفى هذه الزيارة تم الاتفاق على الأسس والمبادئ التى صدر على أساسها قرار مجلس الأمن ٣٣٨ فى ٢٢ أكتوبر الذى دعا إلى الوقف العاجل لإطلاق النار وتنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢ وهو ما لم تلتزم به إسرائيل وأدى إلى تحركات عسكرية سوفيتية فسرها وزير الدفاع الأمريكى سلزنجر ب:

- مضاعفة حجم الأسطول السوفيتى فى البحر المتوسط.
- إعلان حالة التأهب لقوات الإنزال السوفيتية.
- إعداد طائرات نقل القوات.

وهو التطور الذى أدى إلى قرار أمريكى برفع حالة التأهب الاستراتيجى وقد رد الاتحاد السوفيتى على هذا الإعلان ببيان شديد اللهجة بقوله: «إن هذه الخطوة من جانب الولايات المتحدة



كيســـنجر

لا تخدم بأى حال الوفاق الدولى وأنها قد اتخذت بشكل واضح لإخافة الاتحاد السوفيتى، ولكن هؤلاء الذين وراء هذه الخطوة يجب أن يقال لهم إنهم اختاروا العنوان الخاطئ».

ويبدو أن السبب الرئيسى لإعلان حالة التأهب الأمريكى كان «دبلوماسيا» لذلك وبعد اتصالات أمريكية سوفيتية وتحرك فى مجلس الأمن قضى بعدم مشاركة دول مجلس الأمن الدائمين فى قوات حفظ سلام، رفعت الولايات المتحدة حالة التأهب بشكل جزئى، وهكذا وكما عبر الرئيس الأمريكى نيكسون تلاشت «أصعب أزمة واجهت البلدين منذ الصواريخ الكوبية».

وقد أثار الدور السوفيتى فى حرب أكتوبر جدلا واسعا فى الولايات المتحدة حول دلالات وتأثير الحرب على بناء الوفاق الأمريكى السوفيتى ومستقبله، فقد انتقد البعض السلوك السوفيتى واعتبره خرقاً لإعلان المبادئ، وفى مقابل هذا رد القادة السوفييت بأنهم بالعكس عملوا وفقاً لهذه المبادئ حين حذروا قبل الحرب من الموقف الخطير والمتفجر فى الشرق الأوسط، بل وذهبوا إلى التحذير أنه ما لم تنسحب إسرائيل من الأراضى العربية فإن حرباً جديدة فى الشرق الأوسط قد لا يمكن تجنبها.

ويتساءل المؤرخون حول ما إذا كانت هذه الإشارات تعتبر تحذيراً ؟ ويأخذون على الاتحاد السوفيتى بأنه لم يكن محدداً وأن البيانات السوفيتية تلك بمزاوجتها التأكيدات بالحالة المتغيرة فى الشرق الأوسط بمطالبة إسرائيل بالانسحاب ودعوة الأمم المتحدة للقيام بعمل ما فإن الاتحاد السوفيتى لم يكن يحذر الولايات المتحدة بشكل أكيد أكثر من محاولة إقناعها بالضغط على إسرائيل من أجل التسوية وباعتبار استعداد الولايات المتحدة لاستبعاد احتمال هجوم عربى على إسرائيل فإنه لم يكن مدهشا أن تتجاهل هذه التحذيرات أو أن تأخذها مأخذ الجد. وقد أجاب كيسنجر على سؤال حول ما إذا كان السوفييت يعلمون مقدماً بالنوايا العربية فى الهجوم وأنهم على هذا كان عليهم تحذير الولايات المتحدة وقال «إنه من المبكر جدا إصدار حكم نهائى حول كل هذه المسائل، فإذا كان الاتحاد السوفيتى قد شجع هذا الهجوم وهو الأمر الذى ليس لدينا الآن أى شهادة عليه، فإن هذا يجب أن يؤخذ من جانبنا كمسألة خطيرة جداً، ما إذا كان الاتحاد السوفيتى قد علم عن هذا الهجوم من خلال مخابراته الخاصة أو بطريقة أخرى ولم يخبرنا فهذه مسألة أخرى، وفى عالم تحكمه المثاليات فإن المرء يمكن أن يتوقع مشاورات وثيقة ولكن باعتبار اهتزاز الوضع فى الشرق الأوسط فإنه سيكون من المسئولية الثقيلة إعلان معلومات حصل عليها».

أما عن المبدأ الذى التزم به الطرفان فى معاهدة منع الحرب النووية التى صدرت عن قمة واشنطن من ضرورة تفادى خلق الظروف التى قد تؤدى إلى زيادة التوتر الدولى ومن ثم تفاقم علاقاتهم الدولية فإنه فى تقدير

المحللين الأمريكيين أن الاتحاد السوفيتى بإمداده العرب بالأسلحة الضرورية قد جعل الحرب أمرا ممكنًا وأن المعدات التى زود السوفييت العرب بها قد مكنتهم من التغلب على التفوق النوعى الإسرائيلى. كما أن كمية المعدات بدت مؤكدة للعرب القدرة على الصمود للخسائر الثقيلة بل وحتى التفوق على الدفاعات الاستراتيجية أو كسب حرب استنزاف، كما يؤكدون أنه كان من الواضح أن مصر وسوريا لم تكونا لتحصلان على أهدافهما بالوسائل العسكرية بدون مساعدة متماسكة ومستمرة وعلى نطاق واسع والتى ذهبت أبعد من مستوى إمدادات ١٩٧٠ - ١٩٧٢ بحيث احتوت على أنواع جديدة من الأسلحة لم تكن تزود بها القوات العربية من قبل.

والواقع أن هناك عدداً من الكتابات والبيانات السوفيتية وبعض التصريحات المصرية التى يمكن لأصحاب هذا الرأى الاستناد إليها. فقد كتب «ميرسكى» الباحث فى شئون الشرق الأوسط فى معهد العلاقات الدولية والاقتصادية فى موسكو يقول «.. إنه قد أصبح واضحا أن القوات المصرية والسورية مزودة بأنواع من الأسلحة لا تملكها إسرائيل، وكما أشارت الصحافة الأجنبية فإن أغلب الطائرات التى فقدتها إسرائيل قد أصيبت بصواريخ ذات تصميم جديد والتى وقفت إزاءها الفانتوم والسكاى هوك عاجزة بينما حطمت الصواريخ المضادة للدبابات مئات الدبابات الإسرائيلية». وفى الاتجاه أيضا يشار إلى أن البيانات السوفيتية حول أساليب حل الصراع فى الشرق الأوسط بدأت تشير إلى اتجاه جديد، فبعد أن كان واضحا التركيز على ضرورة تحقيق حل بالوسائل السلمية بدأت البيانات السوفيتية وبالتحديد بعد زيارة حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى المصرى لموسكو فى فبراير سنة ١٩٧٣ تتجه إلى الإشارة إلى حق العرب فى استخدام كافة الوسائل لتحرير أراضيهم، فقد ذكر البيان الذى صدر عن الزيارة «أن الدول العربية لها الحق فى استخدام أى أشكال من النضال لتحرير أراضيها» وفى أبريل سنة ١٩٧٣ أجاب رئيس الوزراء السوفيتى كوسيجين عن سؤال عما إذا كان الاتحاد السوفيتى قد استأنف تزويد مصر بالأسلحة بقوله: «إننا نعتقد أن لمصر الحق فى امتلاك جيش قوى من أجل الدفاع عن نفسها ضد العدوان وتحرير أراضيها».

أثار الدور السوفيتي
فى حرب أكتوبر جدلا واسعا
فى الولايات المتحدة حول دلالات وتأثير الحرب
على بناء الوفاق الأمريكى
السوفيتى ومستقبله

في نفس الوقت وفى نطاق الجدل الأمريكى حول السلوك السوفيتى خلال حرب أكتوبر ثمة عدد من الأمريكيين لا يعتقدون أن الاتحاد السوفيتى قد تصرف بشكل يمثل ابتعاداً عن مبادئ الوفاق ويقدمون فى هذا الحجج الآتية:

١ . أن هناك مبالغة فى تقدير قدرة القوتين على الضغط على حلفائهما ففى حالة إسرائيل وبسبب التأييد الذى تتمتع به فى الولايات المتحدة فإنها قد قاومت بنجاح أن توكل مسئولية أمنها القومى للولايات المتحدة وأثبتت أنها محصنة نسبيا ضد الضغوط من جانب واشنطن ونفس الموقف ينطبق على علاقة الاتحاد السوفيتى فى مصر.

٢ . أن القادة السوفييت قد التزموا بشكل أساسى بالمبادئ التى وقعوها فى موسكو وواشنطن بما فيها التحذير المستمر للولايات المتحدة من احتمال اشتعال الحرب فى الشرق الأوسط، وهو الأمر الذى تجاهلته الولايات المتحدة. كما قد تطلع الاتحاد السوفيتى بحق وبأمل فى تغيير سياسة الولايات المتحدة بشكل يمكن أن يجعل من التسوية عن طريق المفاوضات مقبولة من العرب.

٣ . أن الاتحاد السوفيتى ربما قد تحقق من التكاليف العالية التى ستصيب الموارد السوفيتية وربما مكانتها إذا ما أيد محاولة أخرى لحل عسكرى للصراع العربى الإسرائيلى وهى المحاولة التى قد يصعب أن تحقق نتائج حاسمة.

٤ . وبعبارات أخرى، فيما يعتقد أصحاب هذا الرأى، فإن حرب الشرق الأوسط كانت انحرافًا تناقض مع المصالح السوفيتية وأولويات السياسة السوفيتية الناتجة عن عدم الاستقرار العميق فى المنطقة.

٥ . على أنه بوجه عام وعلى الرغم من أن الضغوط التى عرضت لها حرب أكتوبر علاقات القوتين كانت قاسية إلا أنه فى النهاية فإن هذه العلاقة قد صمدت لهذه الضغوط وخرجت منها شبه سليمة.

وأكثر من هذا وبغض النظر عن النقد الذى ثار فى الولايات المتحدة حول سلوك الاتحاد السوفيتى خلال الأزمة وبأنه فضل مصالحه وارتباطاته على الوفاق، فإن الإدارتين فى كلا البلدين قد اعتبرتا أن المحصلة النهائية لهذه الأزمة كانت فى صالح الوفاق، ففى حديث إلى مؤتمر صحفى تحدث الرئيس الأمريكى نيكسون حول هذه النقطة فقال: «كحقيقة فإنه يمكن أن أقول إنه بدون وفاق فإنه كان من الممكن أن نواجه صراعاً كبيراً فى الشرق الأوسط ولكننا تفاديناه بالوفاق». وفى موسكو تحدث برجنيف وهو يخاطب مؤتمر قوى السلام الذى انعقد فى ٢٧ أكتوبر ١٩٧٣ بشكل إيجابى عن العلاقات السوفيتية الأمريكية وزيادة على ذلك فإنه فى هذا الخطاب تطلع للزيارة المقبلة لرئيس الولايات المتحدة إلى موسكو «كما هو معروف فإن رئيس الولايات المتحدة ينتظر أن يقوم بزيارة للاتحاد السوفيتى عام ١٩٧٤ وأننا نود أن تتميز هذه الزيارة بخطوات كبيرة جديدة على طريق تقدم علاقات السلام بين دولتينا وتحسين الموقف الدولى». وحين تحققت هذه الزيارة بالفعل قال بريجنيف إن العلاقات السوفيتية الأمريكية قد خلقت ظروفا لقدر ما من التقدم نحو تسوية سلمية فى الشرق الأوسط.

كما احتوى تعليق سوفيتى أكثر بقوله: يستطيع المرء أن يقول بشكل له ما يبرره أنه إذا كان انفجار أكتوبر فى الشرق الأوسط قد حدث فى موقف من التوتر الدولى والانقسام بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فإن نزاع الشرق الأوسط ربما كان قد أصبح أكثر خطورة بل واتخذ نطاقًا يهدد السلام العالمى. وكما صرح بريجنيف فى نوفمبر سنة «١٩٧٣ أن المرء يمكن أن يقول بشكل أكيد إنه فى مثل هذه الحالة وبدون الوفاق فإن المبادرة المشتركة من جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى التى أدت إلى قرارات مجلس الأمن حول الشرق الأوسط وقدمت فرصة لوقف إطلاق النار ربما لم تكن ممكنة».

وهكذا يمكننا القول من خلال هذا العرض لأدوار القوتين خلال حرب أكتوبر أن علاقاتهما قد أخذت شكلين علاقة الخصوم، وهو ما بدا فى تزويد كل منهما لحلفائه وأصدقائه فى الحرب بكميات كبيرة من السلاح. وقد كاد هذا الشكل من العلاقة أن يوصلهما إلى حافة المواجهة. أما الشكل الثانى فهو الذى تصرفوا فيه كشركاء Partners واسترشدوا فيه بمبادئ وقواعد العلاقات التى التزموا بها منذ وقت قريب قبل الأزمة ثم قبل هذا فى الواقع بمنطق علاقاتهم الاستراتيجية الذى يفرض عليهما تفادى احتمالات مواجهة عسكرية يمكن أن تأخذ الطابع النووى. زيارة كيسنجر علاقة الشركاء، تلك اجتمعت القوتان مع بعضهما البعض - زيارة كيسنجر لموسكو فى ٢٠ أكتوبر - واجتمع كل منهما مع أصدقائه من أطراف الصراع المباشرين - زيارة كوسيجين للقاهرة فى ١٦ أكتوبر وبزيارة كيسنجر لتل أبيب عقب زيارته لموسكو مباشرة. وهى الاتصالات التى نتج عنها قرارات مجلس الأمن التى أدت إلى وقف إطلاق النار. على أنه فى خلال هذه المرحلة التى اتجهت فيها القوتان إلى التعاون لدرء الأخطار البعيدة اللازمة برز العنصر المحلى فى الصراع. وعلى غير إرادة القوتين فى الواقع. لا للتأثير السلبى على اتجاه التعاون هذا فحسب بل إلى إثارة عناصر فى الموقف تحول هذا التعاون إلى إمكانية المواجهة والصدام. ذلك أن التطور الذى أدى إلى إعلان الولايات المتحدة حالة التأهب العسكرى كان أساسا نتيجة للموقف الذى خلقته حليفتها إسرائيل فى عدم الانصياع لقرار مجلس الأمن - الذى تبنته الولايات المتحدة - بوقف إطلاق النار. ومن هذه الواقعة تنشأ حقيقة دور أطراف النزاع المحليين فى علاقات القوتين الأعظم وإرادة هذه الأطراف النسبية التى يصعب ضمان السيطرة المطلقة عليها من جانب القوتين.

المعنى الحقيقى لحرب أكتوبر بالنسبة لعلاقات القوتين هو أنها أوضحت بالتجربة العملية حدود الوفاق الحقيقية. فهو لم يلغ عنصر الخصومة وصراع المصالح بين القوتين وأنه رغم ما يقدمه من إطار جديد، ربما كان أكثر أمانًا للمنافسة بينهما، إلا أنه لم يحول هذه المنافسة إلى تعاون شامل، وقد أشار ريتشارد نيكسون فى مذكراته وهو يتعرض لتجربة القوتين فى حرب أكتوبر إلى حدود الوفاق تلك بقوله: «... كان فشل الوفاق إنما دليل على الحدود الضيقة له وهى حدود كنت أدركها تمام الإدراك»..

وهكذا فإن إدارة الولايات المتحدة لحرب أكتوبر وتطوراتها، والتى تركها نيكسون لوزير خارجيته هنرى كيسنجر، كانت تجرى فى السياق الأشمل لعلاقات القوتين الأعظم أنذاك. ولم يكن غريبا أن يقول السير اليستير هورن إن أول اتصال أجراه كيسنجر بعد أن علم باشتعال الحرب كان مع السفير السوفيتى فى واشنطن اناتولى دوبرينين، وتنبيهه أن الوفاق لا يمكن أن يصمد أمام التصرفات غير المسئولة فى مناطق العالم بما فيها الشرق الأوسط. ■

القاهرة ٢٠٥٠



التنميــة المبتــورة

أبـــــوزيـــــد راجـــــح

تشكر «وجهات نظر» الذين استجابوا لدعوتها إلى حوار معمق حول مشروع القاهرة ٢٠٥٠ الذي طرحه وزير الإسكان المهندس أحمد المغربي على صفحات المجلة عدد أغسطس الماضي.

وهنا نوالي نشر المشاركات بمقال لأحد المتخصصين في مجال بحوث الإسكان والبناء والتخطيط العمراني ومساهمة من قارئ مهتم بالقضية.

المحــــرر

يمكن أن توصف تجارب التنمية التى تحققت على أرض مصر خلال الحقبة الحالية بأنها فى مجموعها تنمية متناثرة ومتعثرة بل يمكن أن توصف أيضا بأنها تنمية مبتورة.

وللدلالة على ذلك يكفى ذكر الظواهر الآتية والتى تمثل السمات الأساسية للتنمية فى مصر:

أولا: القفز المكانى المستمر لمشروعات التنمية

غالبا ما ينتقل الاهتمام العام للدولة بمشروعات التنمية جغرافيا من مكان لآخر قبل أن يستكمل المكان الأول مقوماته التنموية الكافية ليصير قادرا على النمو الذاتى دون ما حاجة إلى دعم إضافى منها. أو بتعبير آخر فإنه كثيرا ما تنصرف الدولة عن الاهتمام بتنمية إقليم معين وهو لا يزال فى مراحل التنمية الأولى ولم يبلغ بعد ما قد يسمى «بسن الرشد التنموى» وتوقف الصرف عليه وتتجه نحو تنمية إقليم آخر دون ما سبب واضح.

ففى خلال الثمانينيات كان الاهتمام العام منصبا على تنمية إقليم سيناء. وكان لهذا الاهتمام ما يبرره، فالأسباب الأمنية معروفة ولا داعى لذكرها. ولكن الأسباب الموضوعية كثيرة ومتنوعة، منها أن هذا الإقليم غنى بإمكاناته التنموية المتنوعة والتى بها يمكن أن تتحقق فيه تنمية شاملة متكاملة. كما أن العائد من الاستثمارات فى مشروعات تنمية هذا الإقليم ليس عائدا بعيد المدى بل هو فى حقيقة الأمر عائد سريع قصير المدى. كما أن النواة البشرية أو ما يسمى بالقاعدة السكانية والتى تبدأ التنمية بها متوافرة به بدرجة كافية.

وما أن بدأنا نلمس الثمار الأولى لتنمية هذا الإقليم الواقع فى الركن الشمالى الشرقى للبلاد حتى انصرف الاهتمام عنه - بعد تنفيذ ٢٧٪ فقط من الخطة الاستثمارية لتنميته. واتجه الاهتمام نحو إقليم آخر يقع فى الاتجاه المضاد تماماً فى الركن الجنوبى الغربى لمصر فى توشكى وشرق العوينات، ويكاد يختلف عن الإقليم الأول فى كل شىء. فليست به قاعدة بشرية مستقرة يمكن أن تبدأ التنمية بها. كما أنه فى تنميته أحادى النشاط وهو النشاط الزراعى وليس متعدد الأنشطة مثل إقليم سيناء، ويحتاج إلى استثمارات ضخمة والعائد منها ليس قريب المدى.

وهذا التحول شبه المفاجئ ليس له ما يبرره وكان يجب أن ينتظر بعض الوقت حتى يستكمل إقليم سيناء مقوماته التنموية الأساسية. ويجب الإشارة إلى أن إدارة التنمية فى سيناء فى ذلك الوقت كانت إدارة واعية ومستنيرة، فقد أشركت معها أهالى سيناء فى كل مراحل التنمية تخطيطا وتنفيذا. وكان ذلك هو السبب الرئيسى وراء النجاح الكبير الذى تحقق على أرض سيناء. والانصراف عن تنمية سيناء شمل أيضا - وهذا ما يدعو للأسف - الانصراف عن تجربة رائدة وفريدة فى إدارة التنمية كان من الواجب أن تكون نموذجا يحتذى فى كل مناطق التنمية الأخرى.

وعندما ظهرت بعض الصعاب التى تواجه مشروع توشكى بدأ الحديث يتجه نحو محور تنموى جديد وهو المحور الذى يقترحه فاروق الباز فى الصحراء الغربية والممتد طوليا بمحاذاة الحيز الحالى من الشمال إلى الجنوب. ويعطى هذا المشروع الآن نفس البريق الذى أعطى لمشروع توشكى من قبل.

ثانيا: ضياع دم التنمية العمرانية بين القبائل:

ونسوق للدلالة على ذلك الأمثلة التالية:

اشتد الصراع فى يوم ما بين وزارة السياحة ووزارة التعمير والإسكان عن أيهما أحق بتنمية سواحل مصر. وقد تم تقسيم السواحل بينهما بالتساوى إرضاء للطرفين المتنازعين، فأعطى ساحل البحر الأحمر لوزارة السياحة وأعطى ساحل البحر الأبيض لوزارة التعمير والإسكان. ورضى كل منهما بنصيبه من الغنيمة، فأقامت وزارة السياحة ما هى متخصصة فيه وتجيد صناعته وهو إقامة سلسلة شبه متصلة من القرى السياحية بطول البحر الأحمر. كما أقامت وزارة التعمير ما هى متخصصة فيه وتجيد صناعته وهو إقامة سلسلة متصلة من المدن السكنية بطول البحر الأبيض.

ولذا فقد جاءت تنمية كل من الساحلين تنمية قاصرة ومبتورة، فساحل البحر الأحمر برمته أصبح أحادى النشاط المتمثل فى السياحة وهو نشاط بطبيعته غير مستقر وغير آمن. وتنقص المشروعات السياحية القائمة به البعد العمرانى القادر على الجذب السكانى والاستقرار البشرى الدائم.

أما ساحل البحر الأبيض فقد تحول إلى سلسلة من المدن السكنية للإقامة المؤقتة وينقص المشروعات التى تمت به البعد السياحى تماما. ويعتبر هذا الساحل الفريد من أكثر مناطق العالم امكانات للسياحة العالمية لمدة لا تقل عن ثمانية أشهر فى العام. وهكذا ضاع على مصر مصدر هام من مصادر الدخل القومى كان يمكن أن يضخ فى اقتصادها الوطنى دما جديدا بصفة مستمرة.

صار لدينا فى البحر الأحمر سياحة بلا إسكان وفى البحر الأبيض إسكان بلا سياحة. ولو تعاونت الوزارتان لتنمية الساحلين لتغير وضعهما تماما ولاختلفت صورة التنمية فيهما عما هى عليه الآن

وباختصار صار لدينا فى البحر الأحمر سياحة بلا إسكان وفى البحر الأبيض إسكان بلا سياحة. ولو تعاونت الوزارتان لتنمية الساحلين لتغير وضعهما تماما ولاختلفت صورة التنمية فيهما عما هى عليه الآن.

والمثال الثانى هو ميناء دمياط، فقد اشتد الصراع أيضا بين وزارة النقل والمواصلات ووزارة التعمير والإسكان حول من هو أحق بإقامة الموانى فى مصر. ولسبب ما كسبت وزارة التعمير الجولة الأولى بإنشاء الميناء بكل ما يلزمه من أرصفة ومخازن وخدمات، رغم أن مسئولية إقامة مثل هذه المشروعات تقع بداهة على كاهل وزارة النقل والمواصلات وليس على وزارة التعمير والإسكان. ولكن الميناء ظل غير مستخدم لسنوات عدة، ذلك لأنه لم تكن هناك شبكة طرق رئيسية تربطه بباقى مدن وأقاليم مصر حتى يمكن نقل البضائع منه وإليه. ولم تقم وزارة النقل بإنشاء شبكة الطرق الإقليمية هذه فى الوقت المناسب ربما ردا على ما أصابها من هزيمة فى الجولة الأولى من المبارزة. وقامت هذه الوزارة بإنشاء هذه الشبكة من الطرق فقط عندما تدخل رئيس الدولة وطالب بتنفيذها حتى يمكن الاستفادة من الميناء بعد أن ظل ميناء أشباح لسنوات طويلة.

أما المثال الثالث فهو يتعلق بمدينة السادات والتى يطلق عليها عادة مدينة الأشباح. فقد تم الاتفاق عند تخطيط المدينة فى مراحلها الأولى أن ينشأ بها مجمع كبير للحديد والصلب والصناعات المكملة له ليكون القاعدة الاقتصادية الصلبة التى ستقوم عليها المدينة. وبناء على ذلك أقيمت المدينة بمساكنها وخدماتها ومرافقها استعدادا لاستقبال هذا المجمع الكبير. ولكن فى اللحظة الأخيرة غيرت وزارة الصناعة رأيها وآثرت أن تقيم هذا المجمع الصناعى على شاطئ البحر الأبيض فى منطقة الدخيلة بمنطقة العجمى بالإسكندرية. وأقامت ما يلزمه من مدينة سكنية ومرافق وخدمات فى مناطق مجاورة لها وتركت مدينة السادات بمساكنها ومرافقها وخدماتها «تنعى من بناها». ونحن نعلم أن شواطئ البحار تستخدم فى أغراض معروفة ليس بينها قطعا إقامة الصناعات الثقيلة عليها. ولو أقيم هذا المجمع فى الموقع الذى خصص له أصلا لكانت مدينة السادات اليوم «مدينة عامرة» وليست «مدينة أشباح» كما يحب البعض أن يسميها. أما الأسباب التى دعت وزارة الصناعة إلى إقامة هذا المجمع بالدخيلة فى منطقة العجمى وليس بمدينة السادات كما كان مخططا له، فلم تكن فى حقيقة الأمر أسبابا موضوعية بل تكاد أن تكون أسبابا شخصية. ويعبر هذا التحول عن التنافر الذى يسود أحيانا علاقات الوزارات والوزراء بعضهم ببعض.

والمثال الرابع يتمثل فى أن مصر أقامت خلال الثلاثين سنة الماضية ١٨ مدينة جديدة على ثلاثة أجيال متعاقبة، منها مدن مستقلة ومدن تابعة ومدن توائم للمدن القائمة. وحسب مخططاتها الأصلية فإنه كان يجب أن تستوعب هذه المدن فى الوقت الحالى أكثر من ٦ ملايين نسمة. ولكن مجموع عدد سكانها حاليا لا يتجاوز ١,٥ مليون نسمة، وذلك حسب بيانات وزارة الإسكان. (وهناك من يشكك فى صحة هذا الرقم - وأنا أحدهم - ذلك لأنه يعتمد على عدد المشتركين فى عدادات الكهرباء وليس على حصر حقيقى للسكان المقيمين فعلا فى هذه المدن). ويرجع عدم نجاح المدن الجديدة فى جذب السكان لأسباب عدة معروفة لا داعى لذكرها. ولكن من أهم هذه الأسباب هو عدم توافر الخدمات الاجتماعية الضرورية للحياة الحضرية بدرجة كافية وعلى الأخص المستشفيات بتخصصاتها والمدارس بأنواعها. وتقع مسئولية توافر هذه المنشآت دستوريا على الوزارات المختصة بها، ولكن هذه الوزارات امتنعت عن إقامتها فلم تجد وزارة الإسكان بداً من بناء بعضها حتى تتيح لسكان المدن الجديدة جزءاً ولو يسيراً من هذه الخدمات الأساسية. وبعد الانتهاء من إنشائها دعت وزارة الإسكان الوزارات المعنية باستلام المنشآت التى تتبعها والقيام بتشغيلها. ولكن هذه الوزارات امتنعت عن الاستلام والتشغيل كما امتنعت من قبل عن الإنشاء والتشييد. ونظرا لأن تشغيل وإدارة مثل هذه المنشآت يخرج تماما عن نطاق قدرات وزارة الإسكان فقد ظل العديد من هذه المستشفيات والمدارس خاويا على عروشه لسنوات طويلة. وفقدت المدن والمجتمعات الجديدة - وما زالت - عنصرا هاما من عناصر الجذب السكانى إليها وهو توافر الخدمات الاجتماعية: الطبية والتعليمية والثقافية وغيرها حتى فى حدها الأدنى اللازم للمقيمين فيها. ويرجع ذلك أساسا كما سبق توضيحه إلى عدم مشاركة وزارات الدولة الخدمية والإنتاجية فى عمران وتعمير المدن الجديدة مع وزارة الإسكان، وتركت العبء كله على عاتق هذه الوزارة، حتى ناءت به وأصبحت عاجزة عن القيام به. وتعثرت تبعا لذلك تنمية هذه المدن رغم ما صرف عليها من مبالغ طائلة تعد بمئات البلايين من الجنيهات.

هذه أمثلة أربعة عن فقدان التعاون بين الوزارات المسئولة عن التنمية، وكأن لا منها تعمل فى دولة مختلفة خاصة بها ولا تعمل جميعها فى دولة واحدة اسمها مصر.

ثالثا: أرض مصر «سداح مداح»:

مرت حيازة أرض مصر خارج الوادى والدلتا بالمراحل التالية:

المرحلة الأولى:

فى عام ١٩٨١ صدر القانون رقم ١٤٣ لسنة ١٩٨١ بشأن الأراضى الصحراوية والذى بموجبه يتم الآتى:

- تقوم وزارة الدفاع بتحديد المناطق ذات الأهمية العسكرية واستغلالها والتصرف فيها للأغراض العسكرية

- بعد أن تقوم وزارة الدفاع بتحديد المناطق العسكرية تقوم الوزارة المسئولة عن استصلاح الأراضى بتحديد المناطق اللازمة لمشروعات استصلاح الأراضى وتقوم بالتصرف فيها واستغلالها بعد أخذ رأى وزارة الدفاع.

- تقوم هيئة المجتمعات العمرانية الجديدة باستغلال والتصرف فى المواقع غير الواقعة فى المناطق العسكرية أو فى مواقع الاستصلاح بالتنسيق مع وزارة الدفاع.

وبذلك أعطيت الأولوية فى استغلال الأراضى الصحراوية لوزارة الدفاع تليها وزارة استصلاح الأراضى ثم تأتى فى المرتبة الثالثة هيئة المجتمعات العمرانية. ولكن فى واقع الأمر أعطيت لوزارة الدفاع هيمنة شبه كاملة على أراضى مصر كلها خارج الوادى والدلتا.

المرحلة الثانية:

فى عام ١٩٩١ صدر القانون رقم ٧ لسنة ١٩٩١، وقد نص هذا القانون على إجراءات مختلفة لتحديد استخدامات الأراضى الصحراوية. فلم يعد يتم هذا التحديد بصورة منفردة تقوم به كل وزارة على حدة كما كان الحال حسب القانون السابق بل يتم بموجب قرارات جمهورية بعد موافقة مجلس الوزراء وبناء على عرض الوزير المختص. ولكن بقيت أولويات الترتيب فى تحديد استخدامات الأراضى كما كانت عليه فى القانون السابق. إذ أعطيت الأولوية الأولى للأغراض العسكرية ثم يتم بعد ذلك تحديد مناطق استصلاح الأراضى ومناطق إقامة المجتمعات الجديدة والمناطق السياحية بعد أخذ رأى وزارة الدفاع. أى أن وزارة الدفاع بقيت لها الوصاية على أرض مصر بموجب هذا القانون كما كان عليه الحال بموجب القانون السابق.

المرحلة الثالثة:

فى هذه المرحلة صدرت ثلاثة قرارات جمهورية متتالية كالآتى:

- القرار رقم ١٥٢ لسنة ٢٠٠١: بموجب هذا القرار تم تحديد المناطق الاستراتيجية ذات الأهمية العسكرية من الأراضى الصحراوية.

- القرار رقم ١٥٣ لسنة ٢٠٠١: بموجب هذا القرار تم إنشاء مركز وطنى لتخطيط وتحديد استخدامات الأراضى يتبع لمجلس الوزراء ويتولى بالتنسيق مع الوزارات المختلفة حصر أراضى الدولة وإعداد التخطيط العام لاستخداماتها. ثم تصدر قرارات جمهورية بتخصيصها للوزارات بعد موافقة مجلس الوزراء على هذا التخصيص. أى أن هذا المركز يمثل الجهاز الفنى التخطيطى الذى يتولى تحديد استخدامات الأراضى للأنشطة المختلفة.

- القرار رقم ١٥٤ لسنة ٢٠٠١: بموجب هذا القرار تم تخصيص المساحات الموضحة الحدود والمعالم على الخريطة المرفقة بالقرار لاستخدامات أراضى الدولة حتى عام ٢٠١٧ فى الأغراض والأنشطة الزراعية والصناعية والتعدينية والعمرانية وخدمات النقل والكهرباء والطاقة. وقد أعدت هذه الخريطة وزارة الإسكان والمرافق والتنمية العمرانية.

والتناقض واضح بين

ما يجرى باسم التنمية فى حقيقة الأمر هو تنفيذ مجموعة من المشروعات غير المتسقة وغير المترابطة. فكل مشروع منها يتم التفكير فيه ودراسته وتنفيذه على حدة منفصلا عن غيره وكأنه كيان قائم بذاته

القرارات الجمهورية السابق ذكرها. فبصدور القرار رقم ١٥٤ لسنة ٢٠٠١ لم تعد هناك حاجة لإنشاء جهاز لتحديد استخدامات الأراضى. فقد تم تحديد استخداماتها بالفعل بموجب هذا القرار. أو بمعنى آخر فإنه بصدور هذا القرار الأخير أصبح القرار رقم ١٥٣ لسنة ٢٠٠١ السابق له والخاص بإنشاء المركز الوطنى لتخطيط وتحديد استخدامات الأراضى غير ذى موضوع. ولكن من الملاحظ أن المركز الوطنى قائم بالفعل حتى الآن ويقوم بتحديد استخدامات أراض سبق تحديد استخداماتها بموجب قرار جمهورى لاحق لقرار إنشائه.

وفى هذا الشأن يجب ملاحظة ما يلى:

١- أنه فى مجال تخصيص الأراضى أعطيت الأغراض العسكرية أولوية مطلقة على الأنشطة والأغراض التنموية. كما أن وزارة الدفاع أعطيت هيمنة كاملة على جميع أراضى مصر خارج الوادى والدلتا.

٢- عندما ترك للوزارات تحديد مواقع ما تحتاجه من أراض لتحقيق أهدافها فإنها بالغت كثيرا فى تحديد مساحة هذه الأراضى ووضعت يدها على مواقع أكبر مساحة مما تحتاجه فعلا.

٣- إن بعض هذه الجهات سعت إلى تحويل استخدام بعض الأراضى المخصصة لها إلى تحقيق منافع خاصة للعاملين فيها مثل إنشاء مدن سكنية أو مدن ساحلية لهم ولعائلاتهم أو بيعها بالمزاد العلنى وإيداع حصيلة هذا البيع فى صناديق خدمات خاصة بهؤلاء العاملين.

٤- تعدد الجهات المنوط بها تحديد استخدامات الأراضى كما هو موضح فى القرارات الجمهورية الخاصة بهذا الشأن. ومثل هذا التعدد يمثل تداخلا وتضاربا فى المسئوليات بين هذه الجهات. وسوف ينتهى الأمر حتما إلى عدم تحديد استخدامات أراضى مصر حسب تخطيط قومى سليم ويستمر الأمر - كما هو عليه الآن - أشبه بتناطح بين جهات مختلفة أيهما يحظى بنصيب الأسد من أرض مصر.

تصرف الدولة فى أراضيها:

تسعى الدولة إلى تحويل أراضى مصر خارج الوادى والدلتا من ملكية عامة إلى ملكية خاصة وهى فى سبيل ذلك تسلك مسلكين متناقضين.

أولهما: بيع الأراضى للأفراد والشركات الخاصة إما بسعر مسبق أو أن يتم البيع بالمزاد العلنى.

فإذا ما تم البيع بسعر مسبق فغالبا ما يكون هذا السعر حوالى ٢٠٠ جنيه للمتر المربع. ولكن سرعان ما يصل السعر السوقى للمتر بعد سنوات قليلة إلى ٢٠٠٠ جنيه أى عشرة أمثال سعره الأصلى.

أما إذا بيعت الأرض بالمزاد العلنى فغالبا ما يصل سعر البيع إلى ما يزيد على ٤٠٠٠ جنيه للمتر الواحد أى ما يزيد كثيرا عن سعر السوق السائد للأراضى. وبعد إتمام المزاد مباشرة ترتفع أسعار الأراضى بصفة مفاجئة لكى تلحق بالسعر الجديد.

وهكذا فى كلتا الحالتين تصير الأرض سلعة قائمة بذاتها يفوق معدل الزيادة فى أسعارها المعدل العام للزيادة فى أسعار السلع الأخرى بدرجة كبيرة. وبذا تصير مجالا للمضاربة ووسيلة للتربح السريع.

وثانيهما: إتاحة مساحات شاسعة من الأراضى لرجال الأعمال تعد بملايين الأمتار أو بآلاف الأفدنة بسعر منخفض أو بسعر رمزى. فقد بيعت أراض فى ساحل البحر الأحمر بقروش قليلة للمتر وبيعت أراض بسيناء بسعر جنيه ونصف للمتر وبيعت أراض بمدينة ٦ أكتوبر بخمسة عشر جنيها للمتر كما بيعت أراض واسعة بطريق مصر - إسكندرية الصحراوى بأسعار زهيدة. وفى ذلك ما يشبه منح هذه المساحات الشاسعة من الأراضى بدون مقابل حقيقى لرجال الأعمال المقربين ولغيرهم من المستثمرين. وهذا مثل ما حدث تماما للأراضى المصرية عندما أقطع ولاة مصر فى منتصف القرن التاسع عشر الأبعاديات والشفالك والوسايا والعزب لعملائهم وعمالهم وأتباعهم.

إن الأرض وما تحتويه تمثل رأس مال الدولة الدائم وهى ليست ملكا لجيل واحد بل ملك للأجيال كلها. ولذا فيجب أن تبقى ملكا للمجتمع وتتاح للأفراد والشركات بحق الانتفاع لمدد معينة طالت أو قصرت بدلاً من أن تترك نهباً للوزارات من ناحية وللأفراد والشركات الخاصة من ناحية أخرى.

رابعا: ضياع المسئولية:

جاء فى قرار إنشاء المركز الوطنى لتخطيط استخدامات أراضى الدولة وهو القرار رقم ١٥٣ لسنة ٢٠٠١ السابق الإشارة إليه أن يقوم هذا المركز بالآتى:

- حصر وتقويم أراضى الدولة خارج الزمام وإعداد التخطيط العام لتنميتها واستخدامها.

- إعداد الخرائط التفصيلية لتخطيط استخدامات أراضى الدولة من واقع خريطة التخطيط العام.

- الاشتراك فى اختيار وتحديد المواقع اللازمة للمشروعات الرئيسية للدولة (طرق - سكة حديد - مناطق صناعية وغيرها).

أى أن هذا الجهاز سيتولى إعداد التخطيط الشامل والذى بموجبه سيتم تحديد استخدامات الأراضى للأغراض الزراعية والصناعية والسياحية والعمرانية. كما سيتولى الجهاز إعداد المخططات القطاعية والمخططات التفصيلية لهذا المخطط الشامل.

وقد قامت من جانبها وزارة الإسكان والمرافق والتنمية العمرانية ممثلة فى الهيئة العامة للتخطيط العمرانى بإعداد الدراسات والتخطيطات الإقليمية لمعظم أقاليم مصر وذلك بموجب القانون رقم ٣ لسنة ١٩٨٢ الخاص بإنشاء هذه الهيئة والذى تنص مادته الأولى على ما يلى:

«وتكون الهيئة العامة للتخطيط العمرانى جهاز الدولة المسئول عن رسم السياسة العامة للتخطيط العمرانى وإعداد خطط وبرامج التنمية العمرانية على مستوى الجمهورية».

ولكن كل هذه المخططات التى أعدتها الهيئة العامة للتخطيط العمرانى لأقاليم مصر معطلة ولم توضع موضع التنفيذ وذلك لأن الوزارات - سواء أكانت وزارات إنتاج أو وزارات خدمات - غير ملزمة بتنفيذ كل أو بعض ما جاء بمخططات وزارة الإسكان. إذ إن هذه المخططات لم يتم إعدادها بمشاركة فعالة من هذه الوزارات بل قامت بها وزارة الإسكان منفردة. فضلا عن أن أغلب وزارات الإنتاج والخدمات لديها خططها القومية لتنفيذ برامجها. ولكن هذه الخطط هى خطط قطاعية مثل خطة النقل والمواصلات وخطة الطاقة وخطة الصناعة وخطة السياحة. وقد أعدت كل خطة منها بمعزل عن الخطط الأخرى دون تنسيق فيما بينها.

وقبل ذلك قامت وزارة التخطيط بتقسيم المسطح الجغرافى المصرى بحيزه المعمور الحالى وبصحراواته وسواحله إلى سبعة أقاليم تخطيطية وذلك بموجب القرار الجمهورى رقم ٤٧٥ لسنة ١٩٧٧. وقد نصت المادة الثانية من هذا القرار على ما يلى:

«تنشأ بكل إقليم لجنة عليا للتخطيط الإقليمى تشكل من محافظى المحافظات التى يتكون منها الإقليم».

كما نصت المادة الثالثة على ما يلى:

«تنشأ بكل إقليم هيئة للتخطيط الإقليمى تابعة لوزارة التخطيط تختص بالقيام بالبحوث والدراسات اللازمة لتحديد إمكانات موارد الإقليم الطبيعية والبشرية ووسائل تطويرها واستخدامها الاستخدام الأمثل وكذلك إعداد التخطيط الإقليمى للإقليم».

وبعد مرور ثلاثين عاما على صدور هذا القرار والذى بموجبه أصبحت وزارة التخطيط هى المسئولة عن إعداد التخطيط القومى والإقليمى لمصر لم تقم الوزارة بتنفيذ شىء يذكر مما جاء فيه حتى الآن.

مما سبق يتضح وجود تداخل شديد فى الاختصاصات بين الأجهزة الموكل إليها إعداد التخطيط القومى والإقليمى خصوصا بين وزارة التخطيط من ناحية ووزارة الإسكان والمرافق والمجتمعات العمرانية من ناحية ثانية والمركز الوطنى لتحديد استخدامات الأراضى التابع لمجلس الوزراء من ناحية ثالثة. وقد جاء هذا التداخل والتضارب كنتيجة حتمية للتداخلات بين نصوص القوانين والقرارات الجمهورية المختصة بالعملية التخطيطية. وباختصار فإن التخطيط القومى والإقليمى تقوم به ثلاث جهات منفصلة تعمل كل منها بموجب قانون أو قرار جمهورى خاص بها. كما تعمل كل جهة على حدة دون تنسيق أو تعاون مع الجهات الأخرى. والنتيجة الحتمية لهذا التشابك فى الاختصاصات أن مصر حتى الآن ليس لها تخطيط إقليمى قومى تتم التنمية على هداه.

الأحادية والانفرادية والتشابكية

إن تعثر التنمية فى مصر هذا التعثر غير المقبول يرجع إلى أسباب ثلاثة: الأحادية والانفرادية والتشابكية. أحادية المشروع وانفرادية صانع القرار والتشابكية فى المسئوليات والاختصاصات.

أولها: أحادية المشروع

إن ما يجرى باسم التنمية فى حقيقة الأمر هو تنفيذ مجموعة من المشروعات غير المتسقة وغير المترابطة. فكل مشروع منها يتم التفكير فيه ودراسته وتنفيذه على حدة منفصلا عن غيره وكأنه كيان قائم بذاته.

إن ما يجب التفكير فيه هو خطة استراتيجية للتنمية القومية الشاملة ثم تأتى «المشروعات» لكى تحققها فى مراحل متتالية. أى أن كل مشروع منها غير منفصل عما يسبقه وعما يتبعه من مشروعات فالكل يجب أن يقع فى منظومة تخطيطية واحدة متكاملة.

ولا أظن أن الدول التى يضرب بها المثل فى النجاح التنموى الاقتصادى والاجتماعى كانت تفكر فى «إقامة مشروعات» بقدر ما كانت تفكر فى التنمية الشاملة بكل أطيافها كتوجه قومى عام.

وإذا كان التوجه العام يركز على مشروع أحادى فغالبا ما يجرى تنفيذه فى إطار «سياسى» وليس فى إطار «تنموى». ويكون تنفيذ هذا المشروع عادة مرتبطا إما بفرد أو بطبيعة مرحلة ما. ويستمد المشروع بقاءه من بقاء الفرد أو من بقاء المرحلة وينتهى عادة بانتهائها.

وثانيها: انفرادية صانع القرار



كثيرا ما شاهدنا انفراد مسئول ما باتخاذ قرار مصيري مهم في التنمية العمرانية دون أن يستند في اتخاذ هذا القرار إلى دراسات علمية يقوم بها المتخصصون في مجال العمران، بل يستند إلى رؤى شخصية ذاتية تتسم عادة بقصر النظر وتهدف أساسا لتحقيق مصالح شريحة اجتماعية واحدة ومحددة على حساب شرائح المجتمع الأخرى. توضيحا لذلك نسوق المثال التالي: جاء في استراتيجية تخطيط القاهرة الكبرى التي أعدها خبراء مصريون وفرنسيون في منتصف السبعينيات من القرن العشرين إنشاء عشرة تجمعات سكنية خارج القاهرة بهدف وقف امتداد العشوائيات بها وأيضا نقل بعض الأنشطة من داخل القاهرة إلى خارجها وخلخلة الكثافة السكانية بأحياء المدينة العالية الكثافة. ولكن تم اتخاذ قرار مفاجئ في التسعينيات بتغيير الهدف من إنشاء التجمعات العشرة وتجميع بعضها في شرق القاهرة في تجمع كبير أطلق عليه «القاهرة الجديدة» بمساحة قدرها ٤٥٠٠٠ فدان (يمكن أن تسع ٤,٥ مليون نسمة)، وخصص هذا التجمع الضخم للإسكان الفاخر وفوق المتوسط، وصرف النظر عن نقل الأنشطة الصناعية والإدارية من داخل القاهرة إلى خارجها وخلخلة الكثافة السكانية بها ووقف الامتدادات العشوائية المنتشرة حولها من كل جانب وبقيت مشاكل المدينة كما هي بل ازدادت سوءا.

كما صدر قرار وزاري آخر بزيادة الحيز العمراني لمدينة ٦ أكتوبر غرب القاهرة لتسع أيضا ٤,٥ مليون نسمة. وقد اتخذت هذه القرارات رغم اعتراض مجموع المخططين العمرانيين ومجموع المعماريين. وسوف تؤدي هذه القرارات إلى مزيد من التركيز السكاني الشديد في إقليم القاهرة عكس ما ينادي به المخططون من ضرورة وقف النمو السكاني بالمراكز الحضرية الكبرى وتوجيه الاهتمام بعمران المدن الصغيرة والمدن المتوسطة في الحيز الحالي وبعمران محاور التنمية الواعدة في الحيز الجديد بهدف إعادة التوزيع السكاني على المسطح الجغرافي المصري بصورة متوازنة. وتبلغ الانفرادية المطلقة والتوغل في الذاتية لمتخذ القرار في أنه يرفض تماما التعاون مع غيره وعدم الاستماع إلى رأي قد يخالف رأيه.

وثالثها: التشابكية في المسئوليات والتخصصات

اتضح مما سبق مدى التشابك بل التضارب في التشريعات الخاصة بإدارة العمران وعلى الأخص في مجال تخصيص الأراضي وإعداد التخطيط القومي الشامل للتنمية. ونتيجة لهذا التضارب والتداخل في المسئوليات، وتكليف أكثر من وزارة بأداء نفس العمل بنص القوانين والقرارات الجمهورية كان لابد أن يحدث ما تعاني منه مصر حاليا وهو التضارب في الإدارة والتنفيذ. ويحسم الأمر في النهاية لصالح من له النفوذ الأكبر والغلبة في صراع القوى بصرف النظر عن مدى أهليته للقيام بهذا العمل.

ولما كانت التنمية العمرانية - شأنها شأن مجالات التنمية الأخرى - لا تتم إلا بتعاون مشترك فعال بين جميع الأطراف ذات الصلة بهذه التنمية فإن التشتت الحالي في القوانين والقرارات الجمهورية وفي الإدارة لن يؤدي إلى تنمية حقيقية بل يؤدي في النهاية إلى تنمية متناثرة ومبعثرة ومبتورة وفي أغلب الأحيان غير مجدية.

ويمكن إيجاز ما سبق في أن التنمية الحقيقية المستدامة تستلزم الأخذ بالتفكير «التنموي الشامل» وليس التفكير «المشروعاتي الأحادي» مهما كان حجم المشروع ومهما كان بريقه. كما تستلزم الأخذ بالتفكير الجماعي أو تفكير الفريق وليس التفكير الانفرادي الذاتي. وتستلزم أيضا تحديد المسئوليات والاختصاصات تحديداً واضحا لكل طرف من الأطراف المشتركة في العملية التنموية مركزيا وإقليميا ومحليا، وجمع استراتيجية وسياسة وخطط التنمية بكل أبعادها وعلى كل مستوياتها في منظومة واحدة.

السؤال الحائر

في عام ١٩٧٧ وأثناء انعقاد مؤتمر دولي خاص بالقاهرة ومشاكلها وقفت إحدى المشتركات وسألت سؤالا محددا وهو «أريد أن أعرف من هو متخذ القرار في شئون القاهرة؟». وقد وجهت سؤالها هذا بعد أن صار واضحا أن هناك عدة جهات تتقاسم فيما بينها الشأن القاهري. وفي لقاء خاص عقب هذه الجلسة مع اللواء سعد مأمون محافظ القاهرة وقتئذ أخبرني أنه منذ أن طرح هذا السؤال وهو في حيرة شديدة من أمره. ثم تساءل بدوره «إنني كمحافظ لست متخذ القرار في أمور القاهرة، إذن فمن المسئول عن اتخاذ مثل هذا القرار؟».

أظن أن هذا السؤال ظل حائرا منذ أن طرح وحتى الآن وأظن أنه سيبقى حائرا طالما بقينا على ما نحن عليه: أن نضع الانفرادية فوق الجماعية، وأن يقف اهتمام أغلبنا على حدود الذات دون أن يمتد إلى حدود الوطن، وأن يقتصر وعينا الزمني على الحاضر بمشاكله وليس على المستقبل بآفاقه الواسعة. ■

رأي

«ازدادت مشاكل القاهرة عاصمة مصر المحروسة عن حد القبول والتحمل سواء بالنسبة للمواطنين أو بالنسبة للمسئولين عن إدارتها أو المترددين عليها، وكلما ازدادت هذه المشاكل شراسة كان لها أثر سلبي شديد، سواء على حالة المواطنين العصبية والنفسية أو الصحية لأسباب معروفة أو على حالة المدينة الاقتصادية والإدارية. وفي الأونة الأخيرة كثر الحديث عن الحلول التي تكفل للسكان معيشة هادئة وانتقالاً مريحًا وللإدارة سلاسة ونجاحًا وللمترددين عليها حسن الخدمة والترحاب المطلوبين.

ولقد كان الحزب الوطني مبادرًا إلى تقديمه تصورًا عن ماذا ستكون عليه القاهرة عام ٢٠٥٠ لو ظل الأمر على ما هو عليه والبدائل المقترحة لما نصبو لأن تكون القاهرة عليه في هذا التاريخ، وهو اتجاه محمود، ففي كافة دول العالم يفكر المخططون لبلادهم للخمسين عامًا القادمة ويصوغون البدائل المختلفة التي تؤدي إلى رخاء ورفاهية مواطنيهم.

ومبادرة القاهرة ٢٠٥٠ سترسم للدولة خطوات تحويل القاهرة من عاصمة إدارية إلى عاصمة إما ثقافية أو سياحية أو ترفيهية حسبما تصل إليه الدراسات وهو ما سيؤدي إلى إنشاء خطط توجيه للأنشطة الجديدة المعتمدة لتسير كافة الخطط القطاعية نحو نفس الهدف الذي تم الاستقرار عليه.

ويتكامل مع هذه الخطط ما تقدمت به الحكومة من خطة لنقل العاصمة الإدارية لمصر لمدينة جديدة يتم إنشاؤها لهذا الغرض وبهذا يتم تفريغ القاهرة من العديد من المنشآت أو تغيير نشاطها بما يتلاءم مع الدور الجديد الذي ستلعبه القاهرة وستجذب الاستثمارات الأجنبية والعربية سواء للأنشطة الجديدة في القاهرة أو لإنشاء العاصمة الجديدة بما سيكون متاحًا لها من فرص استثمارية كبرى.

ولا يخفى على أحد أن هذين المشروعين على اختلاف بينهما سيحققان الآلاف من فرص العمل سواء في القاهرة أو في إنشاء المدينة الجديدة أو في ربط هذه العاصمة الجديدة بباقي مدن الجمهورية وكل هذه المشروعات مشروعات كثيفة العمالة بما يستوعب العديد من الشباب الباحث عن عمل كما يستتبع ذلك إنشاء المعاهد لتأهيل هؤلاء الشباب للحصول على فرص العمل هذه.

وسيكون أكثر فائدة من كافة النواحي أن نختار موقع العاصمة الجديدة في منطقة يحددها الخبراء في صعيد مصر بعيدًا عن الوادي الضيق لما سيكون له من تبعات تنمية وتطوير المناطق المحيطة، وهي أشد ما تكون احتياجًا لذلك. وكذلك ربط العاصمة الجديدة بباقي مدن الجمهورية وبما سيترتب عليه من توفير الآلاف من فرص العمل وكم هائل من الفرص الاستثمارية في كافة المجالات.

وكما نعلم جميعًا فإن الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الأولى وتدفق مقاتليها من ميادين القتال بدون عمل اتخذت نفس هذا المنهج لاستيعابهم في إنشاء شبكة الطرق القومية والتي كانت السبب الأول في ربط الولايات المتحدة بعضها ببعض مما أتاح للاقتصاد الأمريكي هذه النهضة الشاملة خلال القرن الماضي وتبوؤها مقعد الاقتصاد الأكبر في هذا العالم.

لذا فإننا نخشى أن يكون مصير كلا المشروعين هو الحفظ في الأدراج كما جرى لمشروعات كثيرة سابقة.»

مهندس عادل لطفي

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

أرز باللبن لشخصين. عايزة أتجوز. أما هذه فرقصتي أنا

مدونات الشروق
رحاب بسام - غادة عبدالعال - غادة محمود
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨





كانت مفاجأة كاملة، حتى بالنسبة لهؤلاء الذين تحمسوا لإصدار هذه المدونات، أن تحظى بهذا الإقبال الجماهيري والتشجيع النقدي بصورة فاقت كل توقع. كانت مؤشرات البيع في معرض القاهرة الدولي للكتاب، تشير إلى نفاد الكميات التي تم طرحها، وضرورة إعادة الطبع لتلبية حاجات القراء الذين أقبلوا على شراء «عايزة أتجوز» و«أرز باللبن لشخصين» و«أما هذه فرقصتي أنا»، على الرغم من أن مؤلفاتها الثلاث لسن معروفات، وهذه هي تجاربهن الأولى في عالم النشر الورقي، فإذا بمبيعاتهن تتجاوز أرقام مبيعات كتاب ذوي تجربة وخبرة معتبرة.

غادة عبدالعال صيدلانية من المحلة الكبرى، اختارت أن تشرك أكبر عدد ممكن من الأصدقاء في تجاربها مع العرسان، أنشأت مدونة لها على شبكة الإنترنت وأطلقت صيحتها على هذا النحو «عايزة أتجوز»، وهو أمر يبدو غريباً خصوصاً بالنسبة لفتاة جامعية تنتمي إلى أسرة محافظة، لكنها فعلتها، عرضت تجاربها مع العرسان بطريقة لا تخلو من سخرية جميلة، وبين السطور صورة لفارس أحلامها الذي لم يظهر حتى الآن. فإذا بالمدونة تحقق شهرة كبيرة، بل ويعتبرها كثيرون أفضل مدونة عربية، والحكايات التي تسردها غادة ربما واجهتها فتيات كثيرات، لكنها تعاملت معها بشجاعة ومرح وهو ما يتبدى في تعريفها لذاتها في ختام الكتاب: «تقدس الحياة الزوجية وتشارك في الأثاث». أما رحاب بسام صاحبة «أرز باللبن لشخصين»، فهي متخرجة في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة عين شمس، عملت في مجالات البحوث والتسويق وكتابة الإعلانات والترجمة، وقد بدأت مدونتها «حواديت» عام ٢٠٠٤، وهي لم تكتب من قبل بالعربية، وهذه المدونة هي أولى محاولاتها للكتابة باللغة العربية، ومدونة رحاب يمكن اعتبارها قصصاً قصيرة تتميز بسخرية بديعة وإبحار محبب في الطفولة بعوالمها السحرية، كما لا تخلو من تجارب حب وصداقة ورؤى بسيطة، لكنها شديدة الحكمة للأجواء المحيطة بها، وتميزها شقاوة من نوع خاص، وأسلوب أدبي يشي بكاتبة قصة مميزة على الطريق.

مدونة غادة محمود صاحبة «أما هذه فرقصتي أنا»، تحمل اسم «مع نفسي» وكتابتها أيضاً أقرب للقصص القصيرة المبشرة منها للكتابة بغرض البوح والفضفضة، وإن كانت لا تخلو أيضاً من بساطة وتلقائية، وما يميزها عن زميلتيها أنها متزوجة وستصبح أماً قريباً، وتشي كتابتها بأن ثمة مشروعاً إبداعياً لديها، ربما يثمر رواية في القريب.

■

اللغة العربية والوحدة الوطنية في لبنان

محمد علي موسى
بيروت: دار السلام، ٢٠٠٧، ٢٢١ صفحة



يرى المؤلف أن ثمة رابطاً أكيداً بين وحدة لبنان وإعلاء شأن اللغة العربية، وهو يستند إلى مواد الدستور اللبناني التي تؤكد على أن لبنان وطن عربي الهوى والانتماء، وهو ما يعني أن تكون اللغة العربية هي الوعاء المعبر عن هذا الانتماء، ويرى أن تقدم الطائفة على الوطن في لبنان جعلت اللبنانيين يجهدون أنفسهم لإعداد أبنائهم أفراداً متميزين في طوائفهم ويهملون بناء الوطن، ولا صيانة للأوطان إلا بصيانة الأجساد وحفظها.. «الثوب المستعار لا يدفئ، وثوب الوطن هو اللغة، وثوب لبنان هو اللغة العربية».

ويعيب المؤلف في فصول كتابه على كثيرين من مدعي الحداثة والمرتبطين بالثقافة الغربية، إهمالهم بل وسخريتهم من اللغة العربية التي يعتبرونها نقيضاً للمعارف والعلوم الحديثة، ويرى أنها من أهم أسس التوحيد الوطني في لبنان، وأن القول بعجز اللغة العربية عن استيعاب العلوم هو قول خاطئ، والترويج له يفتت وحدة لبنان ويقسمه شيعاً متناحرة، ويقدم نماذج لصحة اعتقاده، يبرهن فيها على أن قضية اللغة العربية كانت هي الشغل الشاغل لكثيرين سبقوه من رواد النهضة في لبنان وفي الشام كله.

■

كتاب المدن

عبدالعزيز المقالح
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٧، ١٨٣صفحة



مدن الأرض مثل النساء/ ومثل البحيرات/ غاضبة/ صلفات/ وأخرى/ كما الضوء في همسه/ ناعمات/ هنا مدن في عراء الجنون/ هنا مدن في صفاء السكون/ وخلف المدى مدن/ لا تثير اشتهاء الكلام/ ولا ترتقي في كتاب الهوى/ لتكون إذا جئتها وردة/ أو قصيدة.

بهذا المفتتح يقدم المؤلف كتابه، قصائده وذكرياته عن نحو عشرين مدينة عربية وأجنبية: القاهرة، مكة، أثينا، روما، لندن، مراكش، بيروت، باريس، دمشق، برلين، الإسكندرية، بغداد وغيرها.

بعض هذه المدن زارها عدة مرات، ومدن أخرى، مثل بغداد، زارها مرة وحيدة. وكثير مما عبر عنه المؤلف شعراً أو نثراً، لا يمثل في حقيقته واقع الحال في المدن التي زارها تمثيلاً دقيقاً، لأنه في الحقيقة يستدعي التاريخ، ويستلهم من رائحة الكتب ما يجمل أحياناً مدنه التي يرى، وخصوصاً حين يتعلق الأمر بالمدن العربية.. فالقاهرة هي الأزهر والأهرامات ومراكب الشمس وطه حسين وصوت عبدالناصر، يقول المقالح: القاهرة لا تقارن بسواها، سيدة مكتملة، شديدة التهذيب، مستعدة لتعطي قلبها، لا لأبنائها وحسب بل لكل عابر سبيل، في القاهرة، أنت لست وحدك، فقد توحدت مع نفسك ومع الآخر، وتوحدت مع الماضي والحاضر، وتوحدت مع الناس، كل الناس.

وينثر فوق صدرها هذه اللآلئ شعراً: هنا القاهرة/ وهنا مصر/ أحتاج حبراً/ بمقدار ماء المحيط/ لأكتب أفراحها، ومواريث أحزانها، فهنا يرقد السادة المتعبون/ وقد فرغوا من بناء الظلال/ على صدر آخر أهرامها/ سوف يدخل الأهل/ والغرباء/ فلا ينفد الخبز يا سيدي/ عن موائدها.

وعن أثينا يقول: من هنا/ اندلع اللهب السرمدي/ وفي هذه الجزر استوت الشمس/ والشعر/ والفلسفات.

ويقول عن روما: دلفت إليها/ وفي العين جوع/ وفي القلب أسئلة/ كان تاريخها يتوكأ واحدة/ من دعائمها/ وهو يجلس بالقرب مني/ ومن شغفي بالزمن الأثير.

وعن دمشق: نمت ثم حلمت/ بأن دمشق/ التي حملت راية الله/ والضاد في البدء/ عادت لتحمل راية أمتها.

وعن بغداد: هنا مر صوت الرشيد/ وسارت مواكبه نحو مكة عاماً/ ونحو الفتوحات عاماً/ وفي هذه الدرب/ صلت ملائكة الله/ تندب عرش الخلافة.

عشرون قصيدة وحكاية، لعشرين مدينة، تمثل لوحات جدارية في العشق والترحال.

■

حيرة العائد

محمود درويش
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧، ١٦١صفحة



مجموعة من الدراسات نشرت في دوريات عربية وأجنبية، وكلمات ألقيت في مناسبات مختلفة، يكتب عن الخروج من تونس وعن جامعة بيرزيت وعن مدرسة كفر ياسين التي درس فيها في الجليل وعن تحرير الجنوب، كما يكتب في ذكرى عدد من أصدقائه المبدعين: توفيق زياد وإميل حبيبي وإبراهيم أبولغد وفدوى طوقان وممدوح عدوان وياسر عرفات ومحمد الماغوط وسمير قصير وجوزيف سماحة.

يتساءل درويش في ورقة ألقاها بمناسبة ندوة أقيمت في تونس لتكريمه: هل مازال الشعر ضروريا؟ ويجيب: أعرف كيف أموت وأولد في سياق قصيدة لا تبحث وهي تكتب عن هدف سوى شعريتها التي لا تستطيع أن تتحرر من ضغط تاريخها إلا في تجدد تاريخيتها من خلال الاندماج فيها لا الاغتراب عنها.

ويقول في مناسبة منحه الدكتوراة الفخرية من جامعة لوفان البلجيكية: صحيح أن التحولات الاجتماعية المتسارعة وهيمنة وسائل الإعلام، وانتهاك اللغة بتحويلها إلى لغة استهلاكية، قد أسهمت في تراجع الإصغاء إلى الشعر، ولكن الصحيح أيضاً هو أن الشاعر قد أسهم في هذه الظاهرة منذ أصبح مفتوناً إما بعزلته المعقدة وإما بجماهيريته البسيطة. في الحالة الأولى جعل الغموض صورة لـ «أنا» لا تحتوي على غيرها ولا تذهب من الذات

إلى العالم. وفى الحالة الثانية جعل الوضوح رسالة نهائية تقتل المتعة التى نبحث عنها فى الشعر، وتترك القارئ عاطلاً عن العمل. هنالك إذاً، ما هو أسوأ من الغموض المعتم، هو الوضوح التعليمى الذى يحرم القارئ من المشاركة فى عملية الإبداع، وإعطاء حياة ثانية للقصيدة.

يطرح محمود درويش أسئلة عديدة ويثير إشكالات نقدية وسياسية وثقافية كبرى، حتى وهو يرثى صديقاً أو ينثر فى وداع مبدع. وهذه هى القيمة الحقيقية التى تقدمها لنا هذه الكتابات النثرية التى لا تقل أهمية عن كتاباته الشعرية.

■

تاريخ ضائع

مايكل هاميلتون مورجان

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٨، ٣٠٠ صفحة



تناهض الفكرة التى يقوم عليها هذا الكتاب، الفكرة البائسة التى نادى بها صمويل هنتنجتون فى كتابه ذائع الصيت عن صدام الحضارات. هنا محاولة للتأكيد على تكامل الحضارات وتلاقحها، وعبره يحاول المؤلف أن يعيد الاعتبار للحضارة الإسلامية وتراث المسلمين الذين يمثلون برأيه، الجذور العميقة لحضارة أوروبا، ومن ثم تظهر أسماء مثل ابن سينا وابن الهيثم والخوارزمى والغزالى والطوسى وغيرهم، بوصفهم آباء لنظرائهم فى حضارة الغرب، نيوتن وكوبر نيكس وجاليليو وسواهم. وهو فى سعيه هذا يستعرض تاريخ الدولة والحضارة الإسلامية منذ دولة الرسول عليه الصلاة والسلام، مروراً بالخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، والدويلات الإسلامية التى قامت فى مشارق الأرض ومغاربها، وكان لها بالغ الأثر فى الحضارة الإنسانية. وهو يستهل معظم فصوله بترحال ما فى مدينة من المدن الإسلامية التى عاش بها أحد العلماء، منتبهاً إلى أن طراز المدينة المعمارى وأجواء الحكم فيها تمثل خلفية المشهد الذى عاش فيه العالم أو المخترع العربى، وهو يقدم تصوراً مهماً فى الختام للأسباب التى قادت إلى هذه النهضة ذات الطابع التنويرى فى تلك الحقب السالفة، وبرأيه فإن القيادة الإسلامية المستنيرة للإمبراطورية الأولى كانت سبباً فى ظهور العصور الذهبية العديدة، وهذه الرؤية للقيادة بالرغم من صعوبات عديدة، استطاعت لمدة ثمانية قرون إلهام مناخ من الاختراع المتميز والثورة الفكرية الفريدة، والتى تمثلت فى المكتبات والجامعات النموذجية وروح العدالة والمساواة الاجتماعية وتقبل الآخر المختلف مذهبيا وعقائديا. وهى المبادئ الكبرى التى ساعدت فى تشكيل رؤية مستقبلية للقيادة الحديثة فى أوروبا فيما بعد.

ليس هذا عملاً جديداً على كل حال، فكثيرون من علماء الغرب ومن المستشرقين قاموا به من قبل، وربما على نحو أفضل، وربما يكون توقيت نشر الكتاب فى ظروف تشتد فيها الحملة على الإسلام والمسلمين، وانتماء مؤلفه إلى مؤسسة «أسس جديدة للسلام»، الهادفة إلى تعزيز السلام بين الحضارات، هو ما يمنح الكتاب أهمية فى تلك الفترة.

■

كيرياليسون

هانى عبدالمريد

القاهرة: الدار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ١٢٠ صفحة



تضعك الصفحات الأولى من الرواية فى مواجهة الحالة، شاب ضائع يسكن فى حى الزرايب بمنشية ناصر، إحدى العشوائيات بعاصمة المعز التى تضم أكثر من ٧٠ منطقة عشوائية، أبوه الشيخ تيسير أحد هؤلاء الذين يتشبثون بخرافات ظناً منهم أنها من صلب الدين، أو لأن هذا التمسح بالدين يجلب عليهم منافع شتى، ثمة صدام واضح بين الابن وأبيه، فحين غاب الابن فى عزلة اختيارية وزع الأب ورقة بأوصاف هذا الذى خرج ولم يعد، كتلك التى تصف المرضى النفسيين أو المتخلفين عقليا، الابن الذى تخرج فى الجامعة نهشته البطالة، قبل أخيراً أن يعمل حارساً لعمارة بها عديد من الشقق المفروشة التى تمارس فيها الدعارة، قرر أن يدخل فى اللعبة وأن يجارى الجو ليعيش، صار يحصل «رسم مرور» من الفتيات اللائى يصعدن إلى هذه الشقق، بالابتزاز حيناً وبالرضا حيناً آخر. سنكتشف بعد قليل، أن الشيخ تيسير فلاتى لا يتورع عن فعل الفاحشة، فرض حمايته على أبو عامر وبناته بدعوى أنه شهم، لكنه تناوب مضاجعة البنات فى غرفة المخزن.

تتداخل الشخوص والأحداث بعد ذلك بطريقة تغيب معها ملامح السرد الذى يتشظى هنا وهناك، ذكريات عن فترة التجنيد، أخرى عن علاقات بنات فرز القمامة وخصوصاً جوليا وشربات، ثم قفزة أخرى يحكى فيها الراوى عن بدايات شعوره برجولته واللحظات العصيبة والأخرى السعيدة التى صادفها، وأصدقاء المدرسة الإعدادية الذين كانت معاناتهم من صنف معاناته.

فصل آخر عن الخال، الذى كان يحب القراءة ويكتب الشعر ويرتاد المسارح، لكنه صار بعد فترة مجرد مواطن يلهث خلف لقمة العيش. ومن خلال الخال سنعرف شيئاً عن يحيى، الشاب الطيب الذى دهسته الدنيا والحاجة فتحول إلى «قواد»، وعن «العفشى» الذى فر من الزرايب إلى فرنسا، وعن سلوى الإخصائية الاجتماعية التى صارت متاحة أكثر من ذى قبل، وينتهى به الحال فى عزلته داخل غرفته المظلمة وقد استعد للصلب متمثلاً حالة المسيح عليه السلام الذى افتدى بعذاباته المضنية البشر أجمعين، ظل يردد بلا توقف: كيرياليسون.

■

حياة زوجية رائعة

رضوان شابسيغ

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٤١٤صفحة



مؤلف الكتاب يعمل أستاذاً للمسالك البولية بجامعة كولومبيا بنيويورك، وخلال ستة عشر عاماً من ممارسة المهنة، شهد آلاف الحالات التى يشكو أصحابها من فتور العلاقات الجنسية أو شعورهم بالقصور الجنسى لأسباب مختلفة، وكانت النتيجة المؤكدة التى انتهى إليها هى أن الطريقة الوحيدة لعلاج تدنى الرغبة الجنسية والأداء هى فى تحسين الصحة العامة للرجال والنساء على السواء، وأن العلاقة بين القصور الجنسى والتقدم فى العمر ليست حتمية، واقترح المؤلف ٧ خطوات لمساعدة الرجال على تحسين حياتهم الجنسية، والخطوة الأولى هى تخطى الموانع التى تحول بينك وبين الاعتراف بقصور الوظيفة الجنسية، وهى فى معظمها راجعة إلى الخجل أو الخوف من الصدمة عند العرض على طبيب، إذ إن ملايين الرجال يعانون فى صمت، لكن المشكلة لن تحل من تلقاء نفسها، وعليهم الاعتراف بها لتحقيق ما ينشدونه من متعة.

الخطوة الثانية هى وضع أسلوب صحى للحياة، يتضمن الإقلاع عن التدخين والكحوليات وإنقاص الوزن واتباع نظام غذائى سليم وممارسة الرياضة بشكل منتظم وتقليل الضغط العصبى وإدارة الوقت بطريقة تمنحك فرصة للاستمتاع بالحياة.

الخطوة الثالثة أن تدع الجسم كله يشارك فى تحسين صحتك الجنسية، ويعنى ذلك إجراء فحوصات شاملة لكيفية أداء أجهزة الجسم كلها، القلب والجهاز الهضمى والجهاز العصبى والأوعية الدموية، فسلامة أداء الأجهزة لوظائفها يضمن سلامة الأداء الجنسى وأى قصور فى أى منها يؤثر بالضرورة على الوظيفة الجنسية.

الخطوة الرابعة تتعلق بالسلامة النفسية، ولعل عبارة «المخ هو أكثر الأعضاء جنسية» ليست مجازية، «فالجنس العظيم»، بتعبير المؤلف، يتطلب كلا من الجسم والعقل... «حيث تتحقق المتعة الناتجة عن التوقع والإحساس وتلبية الرغبة(...) والثوران الذى يحدث فى مخك فى لحظة الذروة هو ما يصل بك إلى القمة». من المهم إذن أن تسيطر على قلقك، وأن تقلل من مساحات اكتئابك، وأن تصر على الاستمتاع بإجازات قصيرة، وأن تقلل من الأحمال التى تفرضها على نفسك فى كثير من الأحيان دون مقتضى.

الخطوة الخامسة يضعها المؤلف تحت عنوان «لابد للتانجو من راقصين»، وهو عنوان يشير إلى أن الجنس ليس نشاطاً منفرداً إذ يلزمه بالضرورة شريك، وبقدر تفاعل الشريكين وحسن أدائهما، يكون الاستمتاع، وفى هذه الخطوة يقدم المؤلف نصائح عديدة لتحقيق جماع مثالى.

أما الخطوة السادسة فهى علاجية، وتعنى بتقديم وصفات طبية لعلاج القصور فى أداء الوظيفة الجنسية، مثل سرعة القذف وضعف الانتصاب وفتور الرغبة والانتصاب المستمر واحتباس القذف وغيرها.

والخطوة الأخيرة هى وصفة لوضع الخطوات السابقة كلها موضع التنفيذ، والحقيقة التى يؤكد عليها المؤلف فى الختام هى أن بإمكان الغالبية من البشر تحسين حياتهم الجنسية دون تدخل طبى.

■

مقالات غاضبة

جابر عصفور

القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٨، ٣٣٨ صفحة



دون شك، فإن ما يغضب فى واقعنا العربى أكثر كثيراً مما يبعث على البهجة، عنف وتطرف وتغييب مقصود للعقل والحرية، وحضور ضاغط للخرافة والاستبداد والقمع. وأول صيحة غضب تواجهك، تلك التى يطلقها المؤلف فى مواجهة المشهد الثقافى العربى الذى يراه مأزوماً، ويعانى تناقضاً فاضحاً بين ظاهره وباطنه، إذ فى وقت تنتشر فيه الجامعات وتشيد الأكاديميات، يتراجع مستوى التعليم ويتدهور البحث العلمى، وفى وقت ينفق فيه ببذخ على الفضائيات، تزيد مساحة المسكوت عنه وتغيب تماماً الجرأة

فى نقد الذات وكشف عيوبها. وفيما يتصايح الحكام والمسئولون بشعارات الديمقراطية والتعددية، يمارسون أقصى درجات قهر الشعوب وتكميم أفواه المعارضين. والأمر كذلك ينسحب على المثقفين الذين لا يكفون عن إعلان تقديسهم للاختلاف فى الرأى والحوار مع الآخر، أيا كان هذا الآخر، فى وقت يضجرون من مخالفيهم وينعتونهم بأبشع النعوت، بل ويحرضون على تصفيتهم معنويا وجسديا بزعم أنهم خونة وخارجون على الملة.

صيحة غضب أخرى يطلقها المؤلف لغياب العلم من حياتنا، مستعيداً مقولة العالم الباكستانى محمد عبدالسلام الحائز على جائزة نوبل فى الطبيعة، والتى يؤكد فيها أنه: «ما من حضارة على الأرض ضعف فيها العلم كما ضعف فى أرض الإسلام». ويبحث عصفور فيما وراء المقولة، لينتهى إلى أن ضعف العلم كان نتيجة منطقية لغياب الحرية عن عالمنا الإسلامى أو تغييبها عمداً، خصوصاً مع تقلص المشروع الليبرالى فى مصر عقب قيام ثورة يوليو ٥٢. فمع غياب الحرية خضعت الثقافة العربية لشروط الدولة التسلطية، وانتعشت الأصولية الدينية، فشاعت الخرافة والغيبة وتقلصت مساحة الاجتهاد وحوصر العلم والعلماء، واختنق الإبداع والمبدعون.

صيحات غضب متتالية عن غياب ثقافة حقوق الإنسان، وتراجع حرية الفكر والتعبير، واتساع دوائر المنع والمصادرة فى مجالات الفنون والآداب على وجه الخصوص، والانحدار الهائل والمستمر فى مجالات التعليم والبحث العلمى، التناحر الذى لا يتوقف بين المثقفين على عطايا ومنح صغيرة هنا أو هناك. فإذا لم تكن هذه كلها مما يغضب كاتبا، فما الذى يغضبه؟

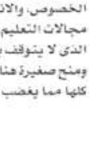
■

كيف تقرأ المصرية القديمة؟

مارك كولد - بيل منيلى

ترجمة: خالد داود

القاهرة: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٨، ١٧٦ صفحة



يقدم الكتاب دليلاً عمليا لكيفية تعلم الهيروغليفية من خلال نصوص حقيقية موجودة فى المتحف البريطانى، وخصوصاً النصوص الجنائزية الخاصة بالموظفين المصريين، إضافة إلى المناظر المرسومة على توابيت المقابر، وكذلك قائمة الملوك الشهيرة بقائمة أبيدوس التى ترجع إلى عصر الملك رمسيس الثانى.

والكتاب مكون من ثمانية فصول يصحب فيها القارئ لتعلم الهيروغليفية خطوة بخطوة، بادئا بالعلامات ذات الصوت الواحد، والتى تعبر كل علامة هيروغليفية فيها عن صوت كما فى الأبجديات الحديثة. وينبه المؤلف هنا إلى أن محاولة نطق الكلمات المصرية القديمة كما كانت بالضبط لن يكون أمرا مفيداً أو عمليا، خصوصاً أن حروف الحركة لم تكن تكتب فى اللغة الهيروغليفية، والأجدى أن يستطيع الشخص قراءة الترجمة الصوتية ويقوم بنطق الكلمات بالكامل بدلاً من قراءتها علامة بعلامة.

وفى الفصل الثانى يقدم المؤلف نماذج عديدة للعلامات ثنائية وثلاثية الصوت، بمعنى أن علامة واحدة قد تعنى حرفين أو ثلاثة، إضافة إلى العلامات التى لها معنى وصوت فى آن معاً، أى هى علامات تصويرية. وفى هذا الفصل يورد المؤلف عديداً من الأسماء والألقاب الملكية وكيفية تعبير المصرى القديم عن صيغ الجمع، وكيفية تسجيل التاريخ خصوصا فى الحوادث الكبرى. ويخصص الفصل الثالث لبعض الكتابات والهجاءات المتميزة، وأسلوب المصرى القديم فى الكتابة المختصرة، والكتابة بغرض التبجيل، وكيفية تعبيره عن الصفات والألقاب وصيغ القرابين.

ويركز الفصل الرابع على كيفية وصف الأفعال التى تعبر عن فعل ما أو حدث أو حالة. وفى الفصلين الخامس والسادس تعريف بزمن الماضى، بالتركيز على النقوش والنصوص التى يحكى المتوفى ويصف فيها حياته الوظيفية، وكذلك الضمائر وكيفية استخدامها فى اللغة المصرية القديمة. ويتميز الفصل السادس بتقديم نصوص تعنى بالوصف السردى أكثر من أى شىء آخر، وتداخل الأزمنة فى هذا السرد.

وفى الفصل السابع تركيز على الصفات والنعوت التى تصحب صاحب اللوحة كشخص عاش حياة أخلاقية أو قام بإنجازات عظيمة، وكيفية استخدام اسم الفاعل واسم المفعول. وفى الفصل الثامن عدد وافر من صيغ النداء إلى الأحياء كما استخدمها المتوفى مناجيا أجيال المستقبل لتحافظ على شعائره الجنائزية.

■

نواقيس الإنذار المبكر

محمود عبدالفضيل

القاهرة: دار العين، ٢٠٠٨، ١١٢ صفحة



يضم الكتاب دراسات نشرها المؤلف فى مناسبات مختلفة، وهى فى مجملها تمثل كما تشير العناوين أجراس إنذار وتحذير من سوء التخطيط وسوء الإدارة وضآلة الإنجاز، فى الاقتصاد كما فى السياسة والشئون العامة.

يحذر المؤلف مثلاً من ترك الفساد يعشش فى المواقع المختلفة، فإذا ما انتبهنا وبدأنا ملاحقة المفسدين وتجريمهم، تكون ملايين الجنيهات قد نهبت أو أهدرت ولم يعد فى الإمكان استردادها. يحذر أيضاً من سيادة روح جديدة فى حياتنا الجامعية، لا تهتم كثيراً بالتعمق والابتكار، وإنما بالتلخيص والتلقين دون إضافات علمية جادة، وإعلاء قيمة المال والمنصب بين صفوف أساتذة الجامعة، وغياب ما كان يعرف بالعشيرة العلمية الناهضة فى الأربعينيات والخمسينيات والستينيات. ويرى أن الاختبار الحقيقى لمستقبل التطور الديمقراطى فى مصر يقاس بثلاثة معايير: مدى استقلال الجامعة وإعادة الاعتبار لدورها فى مجال البحث والتعليم، مدى استقلال القضاء وعدم التدخل فى شئونه، مدى نزاهة الانتخابات البرلمانية لإحداث نوع من التوازن يخرج البلاد من دوامة الإحباط واحتكار السلطة.

يحذر المؤلف كذلك من الإهدار الحادث فى مجال الموارد البشرية، فإعادة بناء رصيد رأس المال البشرى بالنسبة لنا «قضية حياة أو موت». فلا خير فى نخبة تكنوقراطية معولمة لا ترتبط بمشروع نهضة داخلية، ولا خير فى كوادر ذات وعى وانتماء وطنى ليس لديها عدة معرفية وتكوين علمى يسمح لها بإدارة عملية التنمية. يحذر أيضاً من عدم التوازن فى العلاقات الإنتاجية، بإعطاء حوافز للمستثمرين دون إعطاء حوافز مماثلة للعمال، وهو ما يؤدى إلى زيادة التوتر بين الإدارة التى تمثل رأس المال من ناحية، والسواعد الإنتاجية من ناحية ثانية، وهو ما نشهد نماذجه فى الإضرابات والمظاهرات العمالية الأخيرة.

ويدق ناقوس الخطر باستمرار الخلل فى تقديم الخدمات ومد المرافق، والتمييز بين مناطق يسكنها الأثرياء وأخرى يقيم فيها محدودو الدخل والفقراء، فهذا الخلل فى رأيه يضرب فكرة المواطنة فى الصميم، ويقسم المجتمع إلى شرائح عليا وشرائح دنيا، وينذر بحريق واحتقان اجتماعى لا يعرف أحد مداه.

وهناك تحذير مستمر من شيوع ثقافة الشطارة والفهلوة وسد الذرائع، بديلاً عن ثقافة الاجتهاد والعمل والإتقان، وهذا النوع من الثقافة مسئول لا ريب عن كوارث عدة شهدتها مصر خلال السنوات الأخيرة، بينها كارثة العبارة وكوارث القطارات المتتالية والانهيارات فى العمارات وحوادث الطرق وغيرها.

هذه بعض نواقيس الخطر، تجدى - ربما - لو أسمعت حيا.

■

العيب فى ذات أفندينا

يونان لبيب رزق

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٨، ٢٣٤ صفحة



أفندينا هو حاكم مصر، خديو، سلطان، ملك، أيا كان لقبه.

وبرغم أن مصر عرفت المجالس النيابية باكرا (١٨٦٦)، وكان الهدف أن تتم مناقشة المسائل العامة وتوجيه الانتقادات لأداء الحكومة، وكذلك انتقاد الحاكم، فإن ذلك لم يتم، من ناحية لأن أعضاء هذه المجالس كان يتم اختيارهم وفق مواصفات خاصة، كما أن مكانة الحاكم كانت مصونة لا يجوز المساس بها، وقد عبر عن ذلك أحد النواب بقوله: إذا كان أحدنا لا يستطيع أن يجاوب المدير فى أى أمر يصدره إلينا سوى بقوله حاضر.. على عينى وراسى، فهل يمكن أن نجسر على مقاومة أفندينا الذى يملك أعناقنا وحق التصرف فى أعمارنا، ويستطيع فى أى وقت أن يخسف الأرض تحت أقدامنا.

لكن أحمد حلمى فعلها، فكان أول من انتقد «أفندينا»، وأحمد حلمى شاب عمل مع الزعيم مصطفى كامل فى جريدة الحزب الوطنى «اللواء»، فلما مات الزعيم أسس جريدة «القطر المصرى» الأسبوعية فى ١٩٠٨، ونشر فيها فى يناير ١٩٠٩ مقالات من جريدة العدل التركية التى تصدر فى اسطمبول بالعربية تحت عنوان «مصر للمصريين»، وحملت هجوماً شديداً على الأسرة العلوية، وبرغم التحذيرات التى وجهت إليه ومحاولة استمالته من قبل أفراد مقربين من الخديو عباس حلمى منهم أمير الشعراء أحمد شوقى فإنه لم يرعو واستمر فى هجومه، فصدر الحكم ضده فى ٢٣ أبريل ١٩٠٩ بالسجن بتهمة العيب فى ذات أفندينا لمدة عشرة شهور، فما الذى فعله أحمد حلمى عقب خروجه من السجن، كتب مقالات هذه عناوينها: «صلاح الرعية بصلاح ملوكها»، و«فلتسقط حكومة الفرد»، فما كان من الحكومة إلا أن أصدرت قراراً بعد استئذان المندوب السامى بإغلاق جريدة «القطر المصرى» فى ٨ يناير ١٩١٠.

وحين صدر دستور ١٩٢٣ صار للعيب فى الذات الملكية قانونه الخاص، وكان الدكتور محمود عزمى هو أول من مثل أمام المحكمة بمقتضاه، حين كتب فى السياسة ١٩٢٧ جريدة الأحرار الدستوريين مناديا بإعمال مواد الدستور التى تنص على أن الملك يملك ولا يحكم، وانتقد تدخلات الملك فى شئون الحكم قائلاً: يجب وضع حد لهذه التدخلات وإلا كان الدستور مجرد حبر على ورق. وقد حكم على عزمى بالسجن ستة أشهر ثم تم تخفيف الحكم فى النقض إلى الغرامة

عشرين جنيهاً، وبعدها بسنوات ثلاث، كانت كبرى قضايا العيب فى ذات افنديناً، حين قال العقاد داخل مجلس النواب اعتراضاً على خرق الملك فؤاد للدستور: ليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلد فى سبيل صيانة الدستور وحمايته.

وبرغم محاولات العقاد التراجع عما قاله، وبرغم بلاغة محاميه مكرم عبيد باشا، فإن المحكمة قضت بحبسه تسعة أشهر حبساً بسيطاً بتهمة العيب فى ذات افندينا.

إلى جانب وقائع العيب فى ذات أفندينا، يضم الكتاب ملاحق عن وقائع المحاكمات ودفاع المتهمين والبنود القانونية التى حوكموا بموجبها.

■

اليهود فى عقل هؤلاء

عبدالوهاب المسيرى

القاهرة: دار العين، ٢٠٠٨ ، ١٤٣ صفحة



مثّل اليهود إشكالية أساسية لأوروبا، خصوصاً فى العصور الوسطى، وقد صدر لنا الغرب هذه المشكلة فى صورة الدولة الصهيونية التى تم غرسها فى المنطقة بقوة السلاح. يفند المؤلف الأسباب التى قادت إلى بروز المشكلة على هذا النحو من الفصل الأول، ثم يبدأ فى الفصول التالية عرضاً لتصورات بعض الأدباء من اليهود عن اليهود واليهودية، ثم تصورات الصهاينة عنهم، وفى الفصلين الأخيرين يتناول اليهود فى عقل جمال حمدان ثم فى عقل روجيه جارودى.

بين هؤلاء مثلاً «هاينريش هاينى» وهو أحد أشهر الشعراء الرومانسيين الألمان، وهو بدأ معاديا لليهودية حتى إنه كان يعتبرها أحد أمراض ثلاثة شريرة إلى جانب الفقر والألم، واعتبرها معادية للإنسانية، إلا أنه حين أقعده المرض بدأ يحن لليهودية كجزء من حنينه الدينى العام، وأما فرانز كافكا، فهناك من اعتبره صهيونيا حتى النخاع، وهناك من رآه معاديا للصهيونية، أما المؤلف فينتهى إلى أن عمق أثر كافكا فى الحضارة الغربية يبين مدى تجذره فى التشكيل الحضارى الغربى، ومن ناحية ثانية، يشير إلى هامشية خصوصيته اليهودية.

أما الأدباء اليهود الصهاينة، فيختار منهم المؤلف يهودا جوردون، وهو شاعر من لتوانيا كتب بالعبرية واعتبر مهيجاً اجتماعيا من الدرجة الأولى، وميخا بيريشفسكى وهو كاتب روسى رومانتيكى توفى فى ١٩٢١، وجوزيف بيريز وهو روسى أيضاً كان يعبر عن وجهة النظر الاستيطانية بكل شراستها. وفى دراسته عن جمال حمدان التى تحتل القسم الأكبر من الكتاب، يركز المؤلف بشكل أساسى على الكتيب الذى ألفه حمدان تحت عنوان «اليهود من ناحية الأنثروبولوجيا»، وبعد شرح مطول لمنهجية حمدان فى التفكير والكتابة، يشير المؤلف إلى ثلاثية حمدان: إن موقع مصر مهدد أبداً وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئى ما بقيت إسرائيل، ومن ثم فإن المبدأ الاستراتيجى الأول للأمن المصرى هو: دافع عن سيناء تدافع عن القناة تدافع عن مصر جميعاً، ولا ضمان بالتالى إلا بذهاب العدو، ثم ثلاثية أخرى تشير إلى إسرائيل باعتبارها أخطر مناطق العدوانية الإمبريالية فى العالم الثالث، حيث يضع معادلة عالمية تتألف من عدة متتاليات إقليمية: مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث، مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى، مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين/ إسرائيل. وأما روجيه جارودى، فقد حطم عدداً من الأساطير المغلقة التى تستند إليها الصهيونية وهى أسطورة الوعد، أسطورة الشعب المختار والنقاء العرقى، وهو ما استلزم إقدام الصهاينة على إبادة الفلسطينيين.

■

أوجاع متوحشة

ماهر مهران

القاهرة: دار اكتب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ٩٩ صفحة



ديوان جديد فى شعر العامية الذى يشهد انتعاشة كبيرة فى السنوات الأخيرة، ينتمى صاحبه إلى صعيد مصر، وتنتمى قصائده إلى أوجاع جيل يعانى وحدة واغتراباً وعدم تحقق، يضم الديوان، وهو الخامس بعد «هفهفات النخيل» و«عزيزة» و«أغانى أشجار السنط» و«الخدامة»، عدداً من القصائد القصيرة وخمس قصائد طويلة. نقرأ فى الديوان: نضحك/ ونلعب/ وناكل الحياة دى أكل/ وقبل الفجر ما يشقشق/ نرجع كل ليلة/ بهزيمة شكل!

ونقرأ أيضاً:

النمل/ الماشى ورا البلياتشو/ تقولشى عيل ماسك ديل أبوه/ لو/ جرب مرة يخطى شمال/ لو/ جرب مرة يخطى يمين/ لو جرب مرة/ أكيد راح يوصل/ ومؤكد خالص مش هايتوه.

■

الإصلاح السياسى من أين يبدأ؟

عاطف الغمرى

القاهرة: نهضة مصر ٢٠٠٨، ٣٠٩صفحات



تعددت الكتابات حول الإصلاح وتعددت الرؤى حوله، ويرى كثير من الكتاب ـ ومنهم المؤلف ـ أن الإصلاح السياسى هو أصل كل إصلاح، وهو القاطرة التى ستقود قطار الإصلاح فى اتجاهاته المتعددة، اقتصادى واجتماعى وإدارى.. إلخ، والديمقراطية هى وقود القاطرة، من دونها لا يمكن للقطار أن يتقدم خطوة واحدة، وسيبقى دوما يراوح مكانه.

يخصص المؤلف الفصل الأول للخلاف حول معنى الدولة الوطنية ودلالاتها، ويلاحظ أن ثمة فجوة بين نظرة الدولة ونظرة الناس لمفهوم الوطنية ومصالح الأمن القومى، وهى فجوة لم تكن موجودة أبدا فى دول أوروبا التى نجحت فى تحقيق تقدمها الاقتصادى والحفاظ فى الوقت نفسه على أمنها القومى، اما فى بلداننا العربية فإن أمن النظام حل محل أمن الدولة، واتسعت الفجوة بين الرأى العام والنظام السياسى، وظهرت تصورات عديدة تتحدث عن نهاية نظرية الدولة الوطنية.

ارتبط بهذه الفجوة غياب قسرى لفكرة التعددية، وأهمية الاختلاف فى الرأى، وهما شرطان أساسيان لوجود الديمقراطية التى يرى المؤلف أن لها معالم ثلاثة هى التعددية وتداول السلطة وحرية التعبير، ويشير إلى أن إضعاف نسيج الدولة الوطنية بزعزعة فكرة المواطنة داخلها، يؤثر بالضرورة على الدولة القومية، ويؤكد على الدور المهم للهوية الثقافية فى الحفاظ على السيادة الوطنية.

ويتساءل المؤلف فى الفصل الثانى عن أسباب توقف موجات التغيير فى مصر قبل بلوغ غاياتها، ويجيب بعد استعراضه لعديد من هذه الموجات فى التاريخ المصرى المعاصر، بأن هذه الموجات لا تجرى وفقا لإيقاع عصرها، عصر ثورة المعلومات والاتصالات الهائلة، والذى تحكمه مقاييس زمنية تختلف كليا عن تلك التى حكمت العالم فى عصر الثورة الصناعية، فما كان يحتاج عشرين عاما لحدوثه آنذاك صار يتحتم حدوثه فى عامين فقط. كما يؤكد على نقطة بالغة الأهمية التفتت إليها القوى الدافعة للتغيير فى الغرب ولم تعطه قوى التغيير المحلية والإقليمية ما يستأهله من أهمية، وهى وضع عناصر القوة الذاتية للفرد تعليميا ونفسيا وجسمانيا وصحيا فى ترتيب أكبر مما كان عليه فى فترة سابقة كانت للقوة العسكرية فيها أهمية قصوى، وأخيرا أهمية إزالة فجوة الثقة بين المواطن والدولة عبر آليات أكثر شفافية ومشاركة أكثر فاعلية، وهو ما ينقلنا مباشرة إلى ما يناقشه المؤلف فى الفصلين الثالث والرابع، واللذين يتناول فيهما التجربة الحزبية المصرية ومثالبها خصوصا مع غياب حزب سياسى قوى منافس للحزب الحاكم، وابتعاد الأحزاب عن قواعدها الشعبية لأسباب مختلفة والانخفاض الفاضح فى نسب المشاركة فى الانتخابات البرلمانية وهو ما يعكس استفتاء شعبيا على جدية العملية الحزبية برمتها ومدى شعور المواطنين بجدواها.

■

لحظات ضعف

خيرى رمضان

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨



لفترة طويلة كان بريد الجمعة فى صحيفة الأهرام منصة يلتف حولها القراء فى مصر والدول العربية، واستطاع الكاتب الراحل عبد الوهاب مطاوع، بما له من حس إنسانى رفيع وثقافة موسوعية، أن يحشد جماهير القراء حول قضايا عامة وخاصة، وأن يشاركهم لحظات ضعفهم وانكسارهم، وأن يسدى لهم النصيحة بحكمة ومحبة حقيقية، وقد صار القراء فيما بعد يتشاركون فى البحث عن حلول لمشاكل بعضهم البعض، كمجموعة أصدقاء تجمعهم هموم واحدة ورغبات حقيقية فى تحدى الصعاب.

وقد حمل المؤلف ـ خيرى رمضان ـ عبء تحرير هذا الباب المهم عقب وفاة مطاوع، واستطاع أن يحتفظ بقرائه، وأن يزيد الأواصر بينهم، وأن يقتحم بجرأة عديداً من القضايا الشائكة التى تدخل فى باب المسكوت عنه، مثل تلك الموضوعات المتعلقة بالخيانة الزوجية أو عقوق الأبناء أو النفور بين الزوجين أو الشقاء بين المحبين وغيرها، واختار المؤلف بين مئات القصص الإنسانية التى تصله أسبوعيا عددا يشير إلى لحظات ضعف أصحابه، ليس بهدف كشف سترهم بطبيعة الحال، وإنما لأن إلقاء الضوء على لحظات الضعف تلك، يتيح تجارب بالغة الثراء أمام القراء، ويؤكد ـ اعتمادا على أقصى قدر من الصراحة والمكاشفة ـ أننا جميعا بشر نخطئ ونصيب، وأن اعتراف بعضنا بخطئه وكشفه للحظات ضعفه، هو أول الطريق نحو تصويب هذا الخطأ، واستعادة النفس لقوتها وقدرتها على مواجهة الواقع بكل تحولاته.

■

Where Does the Money Go?
أين تذهب النقود
Scott Bittle, Jean Johnson
Collins, 2008, 336PP, 16.95$



الاقتصاد الأمريكي يعاني من العديد من المخاطر في الفترة الحالية مواجها لشبح الانهيار، مما دفع مرشحي الرئاسة الأمريكية إلى التركيز على القضايا الاقتصادية بصورة كبيرة طمعا في أصوات الناخبين. هذا الكتاب يقدم لك دليلا لفهم القرارات الحكومية الخاصة بالموازنة العامة التي تخرج من جيبك. فالديون الفيدرالية تؤثر وسوف يستمر تأثيرها على مدخراتك ومدخرات تقاعدك وعقاراتك، وحتى رعايتك الصحية ومصاريف أطفالك.

الكتاب يقدم للأمريكيين المعلومات التي يحتاجونها ولديهم الحق في معرفتها، حول ميزانية الدولة والديون الفيدرالية التي وصلت الى ما يقرب من تسعة تريليونات دولار ولا تزال تنمو، فمن الخمس والثلاثين سنة الأخيرة، تعدت مصاريف الدولة على البرامج والخدمات أكثر مما تجمعه من مال الضرائب. وهذا ما فشلت جميع الحكومات السابقة في السيطرة عليه. هذا الكتاب قالت عنه النيويورك تايمز «إذا كنت ستشتري كتابا واحدا فقط أثناء الانتخابات الرئاسية ليكن هذا الكتاب».

The Breakthrough Imperative
حتمية الاختراق
Mark Gottfredson , Steve Schaubert
Collins, 2008, 384PP, 26.95$



كل مدير لمؤسسة اليوم، ليضع قدميه على طريقة ليصبح مديرا تنفيذيا CEO، يتوقع منه أن يحقق نتائج مبهرة وجيدة بأسرع مما يكون، وإلا وجد نفسه في قطار الباحثين عن عمل. ولهذا فالمديرون اليوم سواء بالشركات أو المؤسسات يداهمهم الوقت دائما، لذا فهم ليس لديهم وقت للوقوع في الأخطاء أو للعودة إلى الوراء ليفعلوا ما كان من المفترض أن يفعلوه.

ولكن على الرغم من كثافة الضغوط عليهم، والأطر الزمنية القصيرة، استطاع العديد من المدراء والمدراء التنفيذيين تحقيق نتائج مبهرة واستثنائية وفي وقت قصير جدا، وهذا الكتاب يوضح كيفية حدوث هذا، عن طريق إجراء مقابلات مع أكثر من أربعين مديرا تنفيذيا سواء العاملين بالقطاعات الصناعية أو بالقطاعات غير الهادفة للربح. كما يساهم المؤلفان بخبرتهما الشخصية التي تمتد لأكثر من خمسة وعشرين عاما في مجال الاستشارات الإدارية، ليصلوا في النهاية إلى أربعة مبادئ بسيطة ولكنها قوية بشكل ملحوظ (التكاليف والأسعار دائما تنخفض - المركز التنافسي يحدد الاختيارات المتاحة - الزبائن والأرباح لا تظل ثابتة - البساطة تحصل على نتائج).

فقط، فهم أي مدير لتلك المبادئ كفيل بمساعدته على تحقيق نتائج رائعة، وتحدد طريقه في تحقيق أهدافه الاستراتيجية.

Why Women Should Rule the World
لماذا يجب أن تحكم المرأة العالم؟
Dee Dee Myers
Harper, 2008, 288PP, 24.95$



ماذا سيحدث لو حكمت النساء العالم؟

تقول الكاتبة، السكرتيرة الصحفية السابقة للبيت الأبيض، «دي دي مايرز» إن كل شيء في العالم سيتغير، فالسياسة ستصبح أكثر جماعية، والأعمال ستصبح أكثر إنتاجية، وستكون المجتمعات أكثر صحة، وبالتالي سيكون العالم مكانا أفضل، ليس بسبب أن المرأة مثل الرجل وإنما بسبب أنهما مختلفان.

«دي دي مايرز» تتحدى الجميع بأن المستقبل أنثوي، فهي ترى أن النساء في المستقبل القريب سيشغلن العديد من المناصب السياسية والقيادية ويصبحن أفضل العلماء والأكاديميين. وهي تعتمد في هذا على تجربتها الشخصية في العمل بإدارة «كلينتون» كمحللة سياسية، ومعلقة على وسائل الإعلام، ومستشارة لشبكة NBC الأمريكية. فمن خلال خبرتها، توضح «مايرز» نقاط قوة النساء التي يتجاهلها الجميع، فهي متصلة جيدة، ومستمعة ممتازة، والأفضل في تشكيل الآراء.

الكتاب يقدم قراءة في قدرات النساء الشخصية، ويقدم خارطة طريق للنساء للنجاح في أعمالهن والمشاركة في الحياة العامة.

Climate Confusion
ارتباك المناخ
Roy Spencer
Encounter Books, 2008, 150PP, 21.95$



العديد يشعر الآن أن هناك كارثة بيئية في الطريق، قد تبتلع العالم وتدمر الحضارات، نتيجة للاختلال البيئي الذي سيؤثر في كل شيء، الكتاب يتحدث عن ظاهرة الانبعاث الحراري، عارضا لكل الآراء حولها، بدءا من الحقيقة المزعجة التي أطلقها «آل جور» إلى التشكك حول آثار انبعاث ثاني أكسيد الكربون.

الكتاب يحذر وبشدة من آثار ظاهرة الاحتباس الحراري وتغير المناخ العالمي، موضحا لآثاره المختلفة على الأرض والمناخ والإنسان والحضارات.

Change of Heart
تغير القلب
Jodi Picoult
Atria, 2008, 464PP, 26.95$



الرواية الأكثر مبيعا في الولايات المتحدة، للروائية المبدعة «جوودي بيكولت» التي تقدم فيها المعنى الحقيقي لأن يكون عند الفرد قلب.

النجار «شاي بورن» يمضي عامه الحادي عشر خلف الأسوار تنفيذا لعقوبة حكم بها عليه بعد قتله لطفلة صغيرة وأبيها الشرطي، وأخت الفتاة بالخارج تحتاج إلى عملية نقل قلب، والقاتل يريد التبرع بقلبه لها. وتتوالى الأحداث.

يكمن جمال الرواية في مدى تعقيد الشخصيات فالكاهن الذي يعمل كمستشار لشاي، كان أحد المحلفين الذين حكموا عليه، وممثلة اتحاد الحريات المدنية التي تتابعه، تحاول التوازن بين حياتها العملية ونجاحها بفشلها في إقامة علاقة سوية مع والدتها، وتعقيد شخصية القاتل وعلاقاته داخل السجن مع زملائه المسجونين الآخرين والسجانين.

Liberal Fascism
الفاشية الليبرالية
Jonah Goldberg
Doubleday, 2008, 496PP, 27.95$



في هذا الكتاب المثير، المعد جيدا، يقدم الكاتب «جونا جولدبيرغ» قراءة في مفهوم الليبرالية الحديثة ويربطها بفاشية أوائل القرن العشرين، مدعيا أن الفاشية كانت دوما ظاهرة يسارية، دارسا ورابطا التداخل بين مفهوم الفاشية وبعض الممارسات الحالية للحركات البيئية وهوليوود والحزب الديموقراطي والحركات اليسارية بطريقة ساخرة وتثير الدهشة.

يعرض جولدبيرغ ملامح من تاريخ الليبرالية رابطا إياها بالحركات الفاشية القديمة، عارضا لبعض الممارسات الأمريكية التي يراها قريبة من الفاشية.

Retribution
الجزاء
Max Hastings
Knopf, 2008, 656PP, 35.00$



بحلول صيف ١٩٤٤ كان واضحا أن هزيمة اليابان أمر لا مناص منه، ولكن الطريق إلى انتصار الحلفاء لم يتضح بعد، فالحرب تدور على الساحة بأرجاء آسيا، اشتباكات بحرية وجوية ضخمة، والقتال يحتدم في الغابات، والوحشية غير المبررة من كل جانب، في أكثر الحروب دموية عرفها التاريخ.

هاستنجز يحكي قصة الحرب الآسيوية، مستعرضا للحرب ضد اليابان في شرق آسيا، عارضا لحماقات مارك آرثر في الفلبين، والمارينز في ايوا جاما واوكيناوا، والهجوم السوفيتي في منشوريا،

ومحللا لعمليات صنع القرار التى سبقت قرار اطلاق القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكى.

هاستنجز يسرد قصة الزمان والمكان، مقدما تصورا لشخصيات كان لها التأثير الأكبر فى الحرب، مثل ماك آرثر وروزفلت وتشرشل وستالين وماو ومونتباتن وتشان كاى شيك فورا كما يقدم صورا للجنود العاديين الذين نزفوا الكثير من دمائهم فى تلك الحرب.

■

FairTax

الضرائب العادلة

Neal Boortz , John Linder

Harper Paperbacks, 2008, 272PP, 14.95$



بعد كتابهما الأول الضرائب العادلة الأكثر مبيعا فى الولايات المتحدة، والذى ساعد على تحريك القوى الشعبية على الثورة على النظام الضريبى الأمريكى الذى يمتص الدخل ومطالبتهم بإصلاح النظام الاقتصادى، يأتى هذا الكتاب للرد على الانتقادات التى واجهها الكتاب الأول، والتطرق إلى أفكار جديدة لم يتطرق لها الكتاب الأول الذى كان يعرض خطة شاملة لتطوير نظام الضرائب الأمريكى.

كتاب الضرائب العادلة يقدم لك الوسيلة المثلى للحفاظ على أموالك بعيدا عن نظام الضرائب غير العادل.

■

Why Good People Do Bad Things

لماذا يفعل أشخاص جيدون أفعالا سيئة

Debbie Ford

HarperOne, 2008, 256PP, 24.95$



الكتاب قراءة فى الأسباب التى تقف وراء فعل الأشخاص الجيدين لأفعال سيئة، فالصحف والأخبار تمتلئ بأخبار هؤلاء الأشخاص الذين ذهبوا فى ضلال وفعلوا ما لم يكن ليفعلوه أبدا.

تلك القصص الدرامية أصبحت هاجسا قوميا، فأنت لا تستطيع أن تحصى كم أفعال التخريب الذاتى التى تحدث فى مجتمعاتنا، وفى دائرة معارفنا، وعلى الرغم من كل النوايا الحسنة فإن هناك أفرادا يفعلون أشياء لا يعرفون جديا لماذا فعلوها.

الكاتبة ترشد القارئ إلى معرفة ما بداخله من قوى تجبرنا على العيش بقيمنا، وإعطاء الحب وتلقيه، والانخراط فى المجتمع، وبالمثل القوى التى تخرب جهود الإنسان وتجذبه للخلف دافعة إياه إلى فعل أشياء سيئة.

■

The Digital Photography Book

التصوير الرقمى

Scott Kelby

Peachpit Press, 2008, 240PP, 25.00$



بعد كتابه الأول عن التصوير الرقمى، يأتى «سكوت كيلبى» بهذا الكتاب ليضيف فيه العديد من الأشياء الجديدة التى لم يتطرق إليها من قبل، مثل تقديمه لنصائح حول كيفية استخدام الفلاش الضوئى، والتصوير عن قرب، وتصوير الرحلات، وتصوير الأشخاص، كما يقدم بعض النصائح لجعل الصور تبدو أكثر احترافية، كما يستعرض «كيلبى» كيفية بناء أستوديو تصوير من الصفر وبدون أى تكلفة تذكر.

الكتاب مقدم بطريقة بسيطة جدا، فعلى حد قول مؤلفه «فى هذا الكتاب أشرح لك كما لو كنا بالخارج نصور سويا، فأنا أقتسم خبرتى مع صديق لى».

الكتاب مرجع جيد لأى هاو للتصوير الرقمى، يستطيع من خلاله التحول إلى محترف.

■

Nineteen Minutes: A novel

تسع عشرة دقيقة

Jodi Picoult

Atria, 2008, 464PP, 26.95$



الكاتبة الروائية «جودى بيكولت»، صاحبة الأعمال الرائجة (مراقب أختى والدائرة العاشرة) ، تأتى برواية جديدة ترتبط فى بعض الشخصيات مع رواياتها القديمة.

بلدة صغيرة باستراليا، تعيش حياة هادئة، لا تعرف الجريمة ولا تعتاد العنف، فى تسع عشرة دقيقة فقط، كان هناك عشرة قتلى، وتسعة عشر جريحا، نتيجة لإطلاق نار عشوائى على مدرسة ثانوية بها، لتهتز البلدة الصغيرة نتيجة لهذا العمل الوحشى.

الجانى «بيتر» هو مجرد طالب من طلاب المدرسة، يقبض عليه المحقق القادم من روايات «بيكولت» السابقة «باتريك دوشارم»، ليقدمه للمحاكمة، وليتقدم المحامى «جوردون مكافى» للدفاع عنه.

«أليكس كورنير» القاضية، تحاول المحافظة على موضوعيتها، فى مواجهة شهادة ابنتها صديقة «بيتر» منذ الطفولة، والتى تعمد عدم إيذائها بينما كانت وسط الحشد، وإن كان قد قتل صديقها.

■

The Three Trillion Dollar War

حرب الثلاثة تريليونات دولار

Joseph E. Stiglitz , Linda J. Bilmes

W. W. Norton, 2008, 192PP, 22.95$



الاقتصادى الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد لعام ٢٠٠١ «جوزيف ستيجليز» واستاذة المالية العامة «ليندا بيلمز» يقدمان فى هذا الكتاب حسابات التكلفة الحقيقية لحرب العراق، التى تعدت ما كان مقررا لها بكثير، فمع بدء الحرب أعلن البيت الأبيض أن ميزانية تلك الحرب ستتراوح حول مبلغ خمسين بليون دولار، ولكنها وصلت حتى الآن إلى ما يقرب من ثلاثة تريليون من الدولارات، طبقا لحسابات الكاتبين.

الكاتبان يلقيان الضوء على المصاريف الخفية على دافع الضرائب الأمريكى مثل مصاريف تحرك القوات العسكرية، أو مصاريف العناية الصحية بالجرحى، ومعاش أهل آلاف القتلى، والعديد من بنود المصاريف المختلفة الأخرى التى يدفعها دافع الضرائب الأمريكى، والتى كان استثمارها فى نمو الاقتصاد الأمريكى أفضل له بكثير.

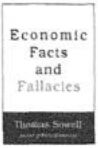
■

Economic Facts and Fallacies

حقائق ومغالطات اقتصادية

Thomas Sowell

Basic Books, 2008, 262PP, 26.00$



هناك العديد من الأفكار الشائعة حول الاقتصاد لدى الأفراد العاديين، ومعظم تلك الأفكار ما هى إلا مغالطات قام بنشرها السياسيون ووسائل الإعلام المختلفة، بعض تلك المغالطات مثل الفوارق فى الدخل بين الذكور والإناث، والمشاكل الحضرية، وأيضا بعض المغالطات الاقتصادية عن الأعراق، واقتصاد دول العالم الثالث.

الكاتب يستعرض تلك المغالطات بصورة مبسطة تصل إلى عقل القارئ العادى بكل سهولة، مفسرا وجود تلك المغالطات إلى استخدامها كسلاح سياسى يمنح لناشريها الاحتفاظ بالسلطة.

■

How Doctors Think

كيف يفكر الأطباء

Jerome Groopman

Mariner Books, 2008, 336PP, 15.95$



لماذا يخطئ بعض الأطباء أحيانا، ولماذا يصيب البعض، وكيف تتدخل أحيانا شخصية الطبيب الخاصة بشكل لا يدركه فى تشخيص الأمراض، فى هذا الكتاب طبيب مخضرم يكتب عن طريقة الأطباء فى تشخيص الأمراض وإعطاء العلاج والإرشادات.

هل للمريض دور فى صحة تشخيص الطبيب لمرضه، وكيف يمكن للمريض أن يصف أعراض مرضه بأدق طريقة ممكنة.

العديد من القصص الحقيقية، والتجارب الغنية، ومحاولة لتحليل شخصية الطبيب، كتاب مفيد لكل من الأطباء والمرضى على حد سواء.

■

The Rest is Noise: Listening to the Twentieth Century

الباقى ضوضاء: الاستماع الى القرن العشرين

Alex Ross

Fourth Estate: 624pp, $19.80, 2008



ترتبط الموسيقى الكلاسيكية الغربية فى ذهن اغلب الناس بالعصور القديمة وعلى اقصى تقدير بمنتصف القرن العشرين وتحديدا مع المؤلف الموسيقى الشهير أيجور ستارفينسكى. إلا ان التأليف الموسيقى الكلاسيكى أستمر بعد تلك الفترة ومما قد يدهش البعض انه مستمر حتى الآن. يقدم الناقد الموسيقى الأمريكى الكس روس دراسة مميزة عن اهم المؤلفين الموسيقيين التجريبيين. ويركز فى كتابه على المؤلفين الذين استهدفوا اكبر عدد من المستمعين. ولا يقصر روس كتابه على الأعمال الموسيقية ولكنه يركز أيضا على الحياة الشخصية للمؤلفين والسياق السياسى والتاريخى للمؤلفات فيتحدث فى الكتاب عن دور الحكومات المختلفة فى تشجيع التأليف الموسيقى او محاربته مما يجعل كتابه عملا شاملا عن السياق العام الذى ظهرت فيه المؤلفات الكلاسيكية الأحدث. ويستطيع روس بمهارة أن يشرح التطور والتجديد فى الموسيقى حتى للقارئ غير المتخصص بأستخدام لغة بسيطة وتشبيهات موحية كما انه يوضح سبب انحسار شعبية الأعمال الكلاسيكية الحديثة بتجريبيتها الشديدة وبأنها موجهة بالأكثر لدارس الموسيقى او على الأقل من يملك القدرة على قراءة النوتة الموسيقية لكى يرى التراكيب الحسابية الكامنة فى الموسيقى.

■

Cairo of the Mamluks

قاهرةالمماليك

Doris Behrens-Abouseif

I. B. Tauris, 2008, 400PP, 75.00$



العصر المملوكى كان له تأثير عظيم فى القاهرة. و هذا الكتاب يستعرض آثار ما يقرب من ثلاثة قرون هى فترة حكم المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧). الكتاب يستعرض ستين من المعالم الرئيسية فى القاهرة التى بنيت فى خلال تلك الفترة. الكتاب يعتبر مرجعا لطلاب الفن والعمارة، حيث يحتوى على العديد من الصور والتخطيطات الملونة.

■

Great Hatred, Little Rooms: Making Peace in Northern Irland

كراهية كبيرة، حجرات صغيرة: صناعة السلام فى أيرلندا الشمالية

Jonathan Powell

The Bodley Head Ltd: 352pp, £12, 2008



تعتبر المفاوضات والمحاولات التى قامت بها حكومة تونى بلير للتوصل الى اتفاق سلام فى ايرلندا الشمالية من اهم منجزات السياسة البريطانية. لقد كانت تلك المفاوضات صعبة بشكل خاص وكان من المتوقع بأستمرار ان تتسبب الحساسيات القديمة فى انفجار الوضع فى اى لحظة حتى بعد بدء المفاوضات حتى على مستوى البرلمانات ومرور المفاوضات بسلاسة دليل على اصرار ومثابرة العاملين عليها. كان جوناثان باول هو المفاوض الرئيسى باسم الحكومة البريطانية وهو لذلك مؤهل بشكل خاص لكتابة سرد للأحداث التى ادت الى نهاية العنف الممتد لسنوات فى ايرلندا الشمالية. ويعتبر الكتاب لهذا السبب وثيقة تاريخية مع الأخذ فى الاعتبار انه وكما هو الحال فى أغلب المجالات فإن الكتاب يقدم بالضرورة وجهة نظر واحدة وهى وجهة نظر بريطانية أى القوة المحتلة وبالتالى تتساوى اهميته مع ضرورة الحذر من تبنى وجهة نظره وحدها.

■

The other Boleyn Girl

فتاة بولين الأخرى

Philipps Gregory

HaprerCollins Publishers: 544pp, £5.19, 2002



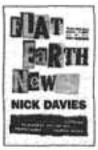
يعلم العديد من القراء المهتمين بالتاريخ الكثير عن أن بولين إحدى زوجات الملك هنرى الثامن والتى أعدمها فيما بعد ولكن القليل يعلم ان شقيقتها الكبرى مارى كانت عشيقة الملك قبل ان يتعرف على شقيقتها الأشهر وانها كانت اماً لأبنائه غير الشرعيين. تسرد الكاتبة فيليبا جريجورى حكايات الأختين فى واحدة من رواياتها الرومانسية التى تبنى احداثها على وقائع تاريخية. تحكى الرواية عن استغلال العائلة الطموحة لابنتيها كوسائل للترقى فى البلاط الملكى. تحقق العلاقة التى تبدأ بين الملك ومارى بولين الرفاهية لعائلتها فعلا ولكن عندما يبدى الملك اهتماما بأختها فإن عليها إن تمتثل لإرادة العائلة وتفسح المجال لأختها التى من المقرر ان تمنح الملك ولى عرشه. تصوغ الكاتبة القصة بتشويق وترسم صورة للأختين تظهران فيها كشخصيات شريرة ومتآمرة فتعوض القارئ عن معرفته المسبقة بمصير بولين ولا تستطيع هذه المعلومة الأساسية ان تفسد متعة الرواية على القارئ. ويبدو ان الكاتبة قامت ببحث مفصل حول جميع جوانب هذه الفترة فقدمت صورة غنية للحياة اليومية داخل القصر الملكى ولكنها ابقت الأحداث التاريخية التى تجرى خارج القصر كمجرد معلومات عابرة تشكل خلفية للقصة.

■

Flat Earth News: An Award-winning Reporter Exposes Falsehood, Distortion and Propaganda in the Global Media

أخبار الأرض المستوية: صحفى حاصل على جوائز يكشف المغالطات والتشويش والدعاية فى الإعلام العالمى

Nick Davies: Chatto and Windus, 416pp, £10.69, 2008



بدات قصة هذا الكتاب بخبر نشر فى جميع الجرائد الإنجليزية المحافظة منها والفضائحية عن محاولة اطفال شنق زميل لهم بتعليقه من رقبته فى شجرة ولكن الطفل نجح فى إفلات رقبته من الحبل. أثار هذا الخبر فضول الكاتب وهو صحفى ايضا لأن من الصعب جدا إن لم يكن من المستحيل على شخص يتم شنقه أن يفلت نفسه. بعد طول بحث اكتشف ان الطفل ربط إلى شجرة ولم يشنق وبرغم علم جميع المحيطين بالحدث بالأمر الا أن الخبر نشر بتفاصيل خاطئة جدا. اتضح للكاتب ان الأخبار التى يتم التأكد من تفاصيلها فى الجرائد البريطانية لا تتعدى عشرين بالمائة من إجمالى ما ينشر فى جميع انواع الجرائد. ولا يقتصر ما تفحصه المؤلف على هذا النوع من الأخبار الشعبية ولكنه يناقش استخدام شركات العلاقات العامة للجرائد فى تسويق مفاهيم او منتجات معينة عبر الأخبار كما يخص جريدة الجارديان التى يعمل بها بنقد لاذع خاصة فيما يتعلق بالأخبار والتحليلات التى سبقت غزو العراق. ورغم النقد الكبير للكتاب الا انه حتى اشرس ناقديه وصفوه بأنه يحوى الكثير من الحقائق ويلفت النظر لوضع مؤسف قائم بالفعل.

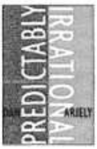
■

Predictably Irrational: The Hidden Forces That Shape Our Decisions

غير منطقى كما هو متوقع

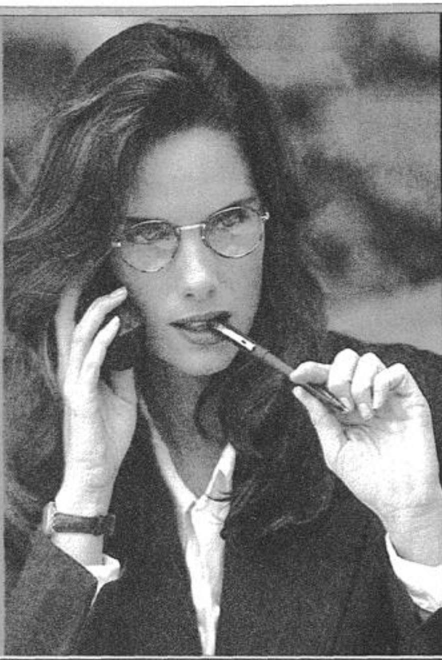
Dan Ariely

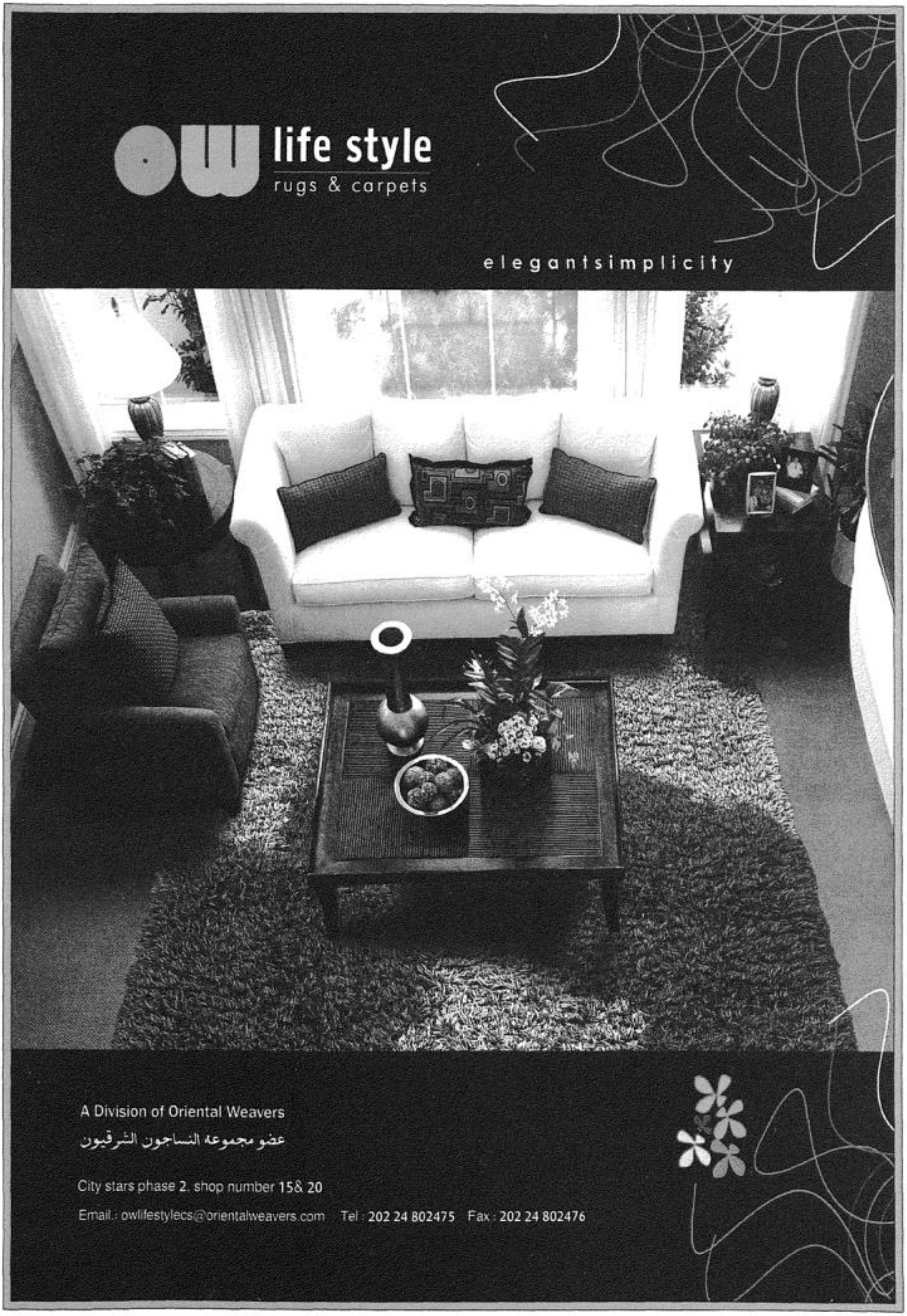
HaprerCollins Publishers: 304pp, £10.19, 2008



يناقش هذا الكتاب كما هو واضح من العنوان الكيفية التى يعمل بها العقل البشرى فى تحديد التفكير والتصرف. وهو ليس كتابا متخصصا اذ انه يندرج تحت قائمة العلم النفس الشعبى. أى الكتب التى تخاطب القارئ العادى. يتحدث الكتاب ان أمورا عديدة تساعد على فهم النفس والآخرين، عن طريق معلومات مختصرة وملحوظات تبدو بديهية مثل ان الحدس عادة صحيح. ينقسم الكتاب الى فصول ويتضمن كل فصل تجارب بسيطة تختبر او تفحص احد جوانب اتخاذ القرار ذهنيا. على سبيل المثال يختبر احد الفصول الكيفية التى تؤثر فيها توقعاتنا على الطريقة التى نختبر بها الأشياء وكيف ان التنوع الشديد فى الاختيارات ليس بالأمر الجيد بالضرورة. تتكون الاختبارات من أسئلة تم توجيهها لمجموعتين او أكثر من الطلبة ولكن الكتاب لا يوضح فى كل الأحوال الطريقة التى تم بها اختيار العينات لتفادى عدم الحياد. كما انه لا يعطى ارقاما فى جميع الحالات وانما يستخدم تقديرات من نوع «اكثر من»، «أو أغلب العينة».

■




life style
rugs & carpets
elegantsimplicity
A Division of Oriental Weavers
عضو مجموعه النساجون الشرقيون
City stars phase 2. shop number 15& 20
Email.: owlifestylecs@orientalweavers.com Tel : 202 24 802475 Fax : 202 24 802476